
وَنَحْنُ نَبْنِي
حَضَارَتَنَا



دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الرابعة: ١٤٣٥هـ - ٢٠١٣م

تصميم

أسيد الصالحي

غلاف

مراد عرباجي

رقم الإيداع: ISBN: 978-975-315-436-9

DAR AL-NILE

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1

34696 Üsküdar - İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 5221144 Faks: +90 216 5221178

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٢٦٣١٥٥١+

المحمول: ٢٠١٦٥٥٢٣٠٨٨+

جمهورية مصر العربية

www.daralnile.com

وَنَحْنُ نَبْنِي حَضَارَتَنَا

مُحَمَّدْ فَتْحُ اللهِ كُولَنْ

ترجمة

عوني عمر لطفي أوغلو

دَارُ النِّيلِ


بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِناء حضارة!! لا شكّ أنه بناء ليس كمثله كل بناء! ضخامةً، وتركيبًا، واتّساعا، وشمولا، واستيعابا، وامتدادا، وأهمّية وخطورة...

فالحضارة تشيؤ وظيفي يتم عبر الزمن، لعناصر التراب، بفعل الناس، ووفق النُّظم التي يتواضع عليها الناس.. والحضارة، شهودٌ ينتسج بحوار الإنسان، فردًا واجتماعا، مع مرجعيته، ليستخلص منها قبلته ووجهاته إليها.. والحضارة، شهود ينصاغ بجهد الإنسان وبحواره مع الكون، ليمتح منه قدرته على الفعل والتسخير، كل بحسب سهمه في الأيدي والأبصار..

ومن هنا فإن نون النسبة في "حضارتنا"، التي بها ألحق الأستاذ الجليل فتح الله كولن، الحضارة بأناسها المعنيين.. بـ"نا".. هذه النون، جاءت بائحة بكل ما سلف، وأشجانا..

بناء حضارة!! وفق أي مثال؟ وبأي نفس؟ وبأي مناهج؟ وبأي أناس؟ وبأي تمكين؟ ووفق أي تشريع؟ وبأي تنظيم؟ وبأي نكهة؟ هذه كلها أسئلة أطّرت بجلاء، بل بنتوء هذا القول الثقيل المكنون في هذا السفر المُغني عن جملة الأسفار في بابه، وعن رَهقة الأسفار دون لُبابه.

إنه لم ينبر عبر تاريخ أمتنا للكدح في هذا الورش اللاحب إلا أحد خمسة: قوي عالم راشد مأذون أمين، أو ناصِحٌ عارف محبّ حكيم، أو

جندي مخلص صادق مكين، أو انتهازي عتلٍّ بعد ذلك زنيم، أو رويبضة،[1] والرويبضة أدهى وأمرّ.

والأستاذ فتح الله كولن هو كل الثلاثة الأوائل الأصفياء، وهو ممّا دون ذلك منزّه براء، فقد خصه الجليل سبحانه وتعالى بخصال من الفضل ليس من أقلّها إكرامه جل وعز إيّاه، بذوق ثمرات البذل، والكدح، والمكابدة، في خاصة نفسه، وفي محيطه، حيث تدرّج حفظه الله، عبر مدارج بناء الذات، مقاما مقاما، ومهارة مهارة، وخُلقا خلقا، ومعلومة معلومة، على عين الله سبحانه، فكان من المصطنعين ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(طه:٤١)، ثم تيمّم حفظه الله شطر الفَلاَح، مُتَسَرْبِلا بطُهر الصلاح، ومشمّرا دون لواء الرّباح، لا يثنيه عن ذلك شيء، أخذا من مشكاة قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾(الشمس:٩)..

ثم اتّبع سببا.. فأكنَّ وَقْدة حُبّ الله في فؤاده، فأضحى ناشدا محابّه لينيط بها، ووجد أن من أولى ما يناط به، نفع عياله، مصداقا لقوله ﷺ: "الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللهِ، فَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ"[2]..

ثم أتبع سببا.. فرأى أن أحرى ما يُنفع به الإنسان، إعانته على استرداد كرامته، وأول مدارج الكرامة استعادة القدرة على قول "لا" للشهوات، والنزوات، والنزغات، والرّغبات، والرهبات، والكبوات، والعثرات، والنعرات، والفترات.. فشدّ حيازيمه ولم يملك كل من لامسَتْه لوعة أخذ الكتاب بقوّة، إلا أن يفعل مثل ذلك فيجتاز المسالك، أو يلزم المهالك!

---

[1] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ"، قِيل: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ يا رسول الله؟ قَالَ: "السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ" (مسند أحمد بن حنبل، حديث رقم ٧٧١٣).

[2] المعجم الكبير للطبراني، رقم الحديث: ٩٨٩٧.

ثم أتبع سببا.. فطفق في نقش المحاضن، وإعداد المساكن، وبث الجواشن،[1] وصقل المحاسن، ورَفْع المآذن بدفع الهمّة، وصوغ اللّمّة، وجمع الأمة..

ثم أتبع سببا.. فانتقل إلى البوح بعد الكتم، وإلى التجلية بعد التحلية..

ثم أتبع سببا.. فانتقل إلى ترميم الجذور، وتلقيح البذور، ومدّ الجسور، وإشاعة البرور، مصطفا خلف المصطفى ﷺ، صافًّا كلّ من أقبل، وراء ناصية الربح، وداعي النُّجح، عليه الصلاة والسلام.

فجاء هذا الكتاب ممهدا طريق الإيمان بالديان، واتباع العدنان، والإناطة بالأركان، وبناء الإنسان، وتطهير الوجدان وصقل الجنان، والسباحة في الأكوان، والاستغناء عن الترجمان، وتجاوز الأوثان، واستثمار الأزمان، وإقامة العمران، والشوق إلى الرحمن.

فجاء كتاب "ونحن نبني حضارتنا" بفضل الله، صالحا لأن يسمّى "كيف نبني حضارتنا؟!"، لأن اليراعة التي خطّته، حرّكتها أنامل الخِرِّيت ذي الخُبر، الذي جاءنا من الكتاب الهادي للّتِي هي أقْوم، وسنة نبِي الله الأكرم، ﷺ، برسم المهيع اليَبَس الناهج، وسط بحر الفتَن والغفلات المائج..

فكان هذا السفر النفيس، لتَضَمُّخِه بمسك كل هذه الخصال، بمثابة البُراق المنهاجي، الذي يحمل طالبه على صهوة متنه، يطوي به المراحل، ويفكّ له المسائل، لانسياب حقائقه سلسبيلا، حيث إنها وصف لما يُحَسُّ ويُشَاهَد، وليست استظهارا لما حُفِظَ فيعاوَد.

---

[1] جمع جوشن، وهو كتاب الأدعية المعروف.

وقد شرفتُ أيما تشريف بترشيحي لتقديم هذا العلق المبارك، وما أصْدق مقال الشاعر عن هذا المقام إذ قال:

قالوا يزورك فيصلٌ وتزوره   قلت المكارم لا تفارق منزله

إن زارني فبِفضله، أو زرتُه   فلِفضله، فالفضل في الحالَين له

أسأل الله ذا الجلال والإكرام، والفضل والإنعام أن يجزل مثوبة الأستاذ فتح الله كولن "هُوجا أفَندي" بخير ما جزى به هاديا، ناصحا، حدوبا، حريصا، رؤوفا، رحيما، عن أمّته.

آمين آمين، والحمد لله رب العالمين

أ.د. أحمد عبادي

الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء- المغرب

نحو "سلطنة" القلوب...



منذ الزمان الغابر وإلى يومنا الحاضر، قادت أمم كثيرة شعوبا متنوعة في بلاد عديدة من هذه الأرض الواسعة، وصارت أحياناً من عناصر التوازن. ومَن يدري، لعلنا نشهد أُمما أخرى أمثالها ولكنها جديدة في رؤيتها للعالم وفي حلتها الحضارية ونسيجها الثقافي. لقد طَبعت روما ومصر واليونان والصين والهند -وكذلك تركستان باعتبارها مهداً لحضاراتٍ مختلفة- نقوشَها على زخارف هذا النسيج العام، أما ما تركه الإسلام من طابع على هذا النسيج قروناً طويلة في قارات عديدة كعنصر للتوازن الدولي، فهو عمق فريد له مزاياه الذاتية...

وما عرفه التاريخ من السموق إلى القمم والذرى لم يحصل كله مرة واحدة وفي عصر واحد، بل -كما هو الحال في فيزياء الأرض- ما فتئت القمم والذرى تتبادل مواقعها مع السهول والسهوب أو شواطئ البحار، والأعماقُ السحيقةُ مع الجبال والتلال؛ فالذين ظهروا على مسرح التاريخ، قد اندثروا واحداً تلو الآخر، ثم تبعهم الذين جاؤوا من بعدهم في مداوَلة تاريخية لا تتوقف... والزمان في خضم سيلانه بينما كان يقدم باقاتِ زهورِ الإقبال لطائفة، كان يطبع بأختام الإدبار على طائفة غيرها. فربما قفزت أمم من ذروة إلى ذروة أعلى، في حين أن أمما أخرى عجزت عن دس رؤوسها في حفرة تحميها، مع أنها كلها كانت تعيش في حقبة زمنية واحدة. ولذلك

لا تُعَدّ القرون الوسطى قرونا مظلمة للأمم جمعاء، كما لا يُعَدّ عصرُ التكنولوجيا والعلوم الذي نعيش فيه نوراً وضياء للمجتمعات كلها.

نعم، إن التداول التاريخي مافتئ يعيد نفسه في تشابه يقترب من التماثل.. فظهر التصاعد إلى الذرى هنا أو هناك، وفي هذا العصر وذاك، لكن لم ينحصر السموق ولا الهبوط أبداً في قارة بذاتها وفي عصر بعينه. وكذلك هو الحال الذي نحن فيه اليوم؛ ففي العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين، ترى شعوبا في بلاد من الأرض يسابقون العصر ويسبقون غيرهم بأشواط تذهل العقول؛ فيطأون بقدمٍ القَمَرَ، وبأخرى كوكبا غيره... في حين أن آلافا من الذين خاب حظهم في بلاد مظلمة من الأرض، يئنون وجعاً في براثنِ بداوةٍ وبؤس موروثٍ من ألف عام.

وينبغي أن لا نرتاب في أن إنساننا وبخاصة الأجيال الفتية منه، سيكونون في القابل القريب أصحاب القول الفصل في سنوات الألفية الثالثة، ما لم تعصف رياح معاكسة فلم تتبدد المكاسب المتراكمة حتى الآن بطريقة أو بأخرى. فإن أجيال اليوم المؤمنةَ السائرةَ في الطريق، المشدودةَ بالتحفز الروحي الكامل استعداداً لمنازلة الغبن والقهر والظلم الذي أصابها منذ قرون، يزفون بتحفزهم هذا من الآن ببشائر مهمة عما سيتحقق من تجديدات أساسية في جميع طبقات المجتمع في مطالع الألفية الثالثة. وحينما يحل الموسم سيؤتي الإيمانُ والعزم والثبات وعشقُ الحقيقة والفكرُ المنهجي بثماره -علما بأن كلا منها طاقة كامنة للقوة في حد ذاته- وسنعيش "انبعاثات عديدةً" تحتضن وحدات الحياة كلها.

إن الذي سيحدد ملامح هذا "الانبعاث" القديم قِدَمَ التاريخ البشري والذي يُعَدُّ قَدَرَه الأبيض السعيد... هو المستوى الفكري والثقافي للإنسان

المعاصر وأعماقُه الإنسانية وسعتُه الميتافيزيقية ورحابته الروحية...

لقد وَجَد عصرُنا نَفْسَه وهو على أعتاب القرن الواحد والعشرين في جو من الرَهَق والاضطراب والقلق والانهيار. ولئن ساقت هذه الحال بعضَهم إلى اليأس والانكسار، فقد أيقظ في الذين لم يستسلموا تماماً للظلمات الغيرةَ "الوطنية" ومشاعرَ الإخلاص، بقدر حريةِ وجدانهم وصفاء أفكارهم... وإذ أيقظها فيهم، صار وسيلة لنضوجِ استعدادات كثيرة تضاهي العبقرية. وكان له وقْعٌ وأثر -كنفخ الصور- في العالم الثالث خاصة، أدى إلى ظهور حركاتٍ إحيائية متتابعةٍ. فهذا العصر العفريت الذي كان مَحضنا لمَفاسد لم يُرَ مثلُها حتى الآن، كان في الوقت نفسه منطلَقا لأمتنا وأمثالها من الأمم للارتقاء المباشر، وميناءً للإبحار نحو آفاق البعث والنهوض.

والأمر الوحيد الذي ينبغي أن نعمله اليوم هو أن نهرع إلى أخذ موقعنا في التوازن الدولي بالشعور الجاد بالمسؤولية وبهويتنا الذاتية ومن غير هدر للزمن. فإن تَلَكَّأنا في تعيين هذا الهدف، فقد نعجز عن إدراك الغد، بَلْهَ التقدمَ والتطور. فنحن اليوم أمام أحد خيارين: إما الكفاح المصيري في الهمة والذي يؤدي بنا إلى "الانبعاث"... وإما الخلود إلى الراحة والاسترخاء الذي يعني "الاستسلام للموت الأبدي".

إن القرآن الكريم يحثنا على تجديد الذات والحفاظِ على جدتنا بالعرض المتكرر لقضيةِ أن "نكون" أو "لا نكون"، بقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(إبراهيم:١٩) ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾(فاطر:١٦-١٧) ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(محمد:٣٨) وآيات كثيرة أخرى شَرَّفَتْنا بالنزول، نكتفي بإيراد هذه النماذج منها لأنها -على ما أعتقد- تفي بالمقصود.

ومن المحتمل بقوة أن الْمَعْنِيِّينَ اليوم في الآيات الكريمة بالإذهاب والاستبدال هم النفوس الميتة وسكانُ العالم الثالث الذين لم يجددوا أنفسهم وفشلوا في الحفاظ على حيويتهم وفرَّطوا في حق إيمانهم وتفحمت عوالمهم الداخلية -مع تقديرنا مبدئيا لجوهر الإيمان الذي يحملونه-. أما الآتون بدلا عنهم، فإنهم "الجيل الجديد" وكادر القدسيين، الذين أتموا التحفز المعنوي بطول الشحذ والتعبئة منذ قرون في دنيا المحزونين والمغمومين هذه، والمرشحون للارتقاء بإنساننا المستصغر والمستهان به إلى ذرى قيمٍ فوق القيم.

وما فعله الغرب حتى اليوم هو إهمال قيمه الدينية ووصايا السيد المسيح عليه السلام؛ إذ شنوا الحروب في القارات وأشاعوا الرق والاستغلال أينما حلوا؛ فلطخوا وجه العالم بالسواد. فعالم الغرب الآن يحلم بالكوابيس تحت أنقاض الدنيا المعنوية التي هدمها بنفسه وجعلها خرائب في قلوب البشر، ويسقط في الحيرة والقلق إزاء العقل السليم والفكر الحر الذي بدأ يصحو في كل مكان... والأنكى للجرح أن هذا العالم -لأنه لا يدري عن جزمٍ أين أخطأ- بائسٌ مهزوز لا حيلة له، ومرتعش هلعاً خشية صفعات الرأي العام الداخلي المتوقعة؟! لكنه -إذ يئن في شدة البؤس- بدلا من أن يعيد النظر في نفسه، يبذل قصارى جهده ليصرف الناس عن التفكير في الفوضى الحالية ويتملص عن مسؤوليتها بِدَفعها للبشرية إلى عالم الترف والسفه واللذائذ الجسمية.

إن هذا العالم يحاول أن يسلِّي نفسه بالمنجَزات العلمية والتكنولوجية هنا وهناك، وأن يُسرِّي عن غمه بالثروة والراحة أحيانا. لكن من البدهي أنها لن تَمنح الإنسان سعادة مستمرة أبدا ولن تلبي رغبة البقاء والخلود

المكنونةَ في أعماقه. ولذلك، ما من شيء يتخذه دواء وعلاجاً إلا ويزيد في قتام أفق الأمل الإنساني ويضيف بؤساً إلى بؤسه الروحي.

إذن لندَعْ هذا العالم يتباهى بالعلم والتكنولوجيا إزاء الفراغ والاكتئاب الذي أوجده في الحياة الاجتماعية نتيجة لخطئه العظيم في تحديد نقطة الانطلاق.. ولْنتركْه يسلي نفسه ويلهو باللذائذ والأذواق، أو يتطلع ببصره إلى أعماق الفضاء في حين أنه يعاني من افتقاد الروح والمعنى الذي ضيعه في قلبه، مُهدِرا العمرَ خلف ضالته في وديان أخرى.

فنحن نعيش منذ جيلين ابتهاج العودة إلى روحنا بوتيرةٍ أسرعَ سيراً وأدق منهجاً مما شهدناه في الماضي. فإن إنساننا الذي اعتاد حتى الآن أن يلجأ إلى المادة والآلة ويقيسَ كل شيء بالمعايير المادية، بدأ يستيقظ -ولو من غير وعي تام- بالصفعات المتوالية للطواطم التي عبدها منذ قرنين عبوديةً لا تريد له عتقا، فبدأ يشعر بأنه ضحية في معبرِ تحولٍ تاريخي، وعلم أن عليه أن يسد الهوة السحيقة بين واقعه وذاته، بالهمة والإخلاص والدموع والشعور بالمحاسبة، وحمل عصا الترحال بخزين من العزم والتوكل والثبات. وسيسير إلى الآباد في هذا المسير الذي لن ينتهي وإن انتهت السبل وانقطعت، بعدما قال: "السياحة يارسول الله!".[1] وإن مصدر قوة روحه اللازمَ الذي لا فكاك منه في هذه السبيل؛ هو اكتشاف حقيقة الإيمان من جديد، واستشعاره في وجدانه، وتغذيةُ إرادته بالعبودية لله، حتى تبقى منفتحة ومستعدة للإقبال على الخير والصلاح، وتعميقُ روح "الإحسان"

[1] إشارة إلى رحلات الرحالة المؤرخ الشهير "أَوْلِياء چَلَبي" (ولادته سنة ١٦١١م ووفاته ما بعد سنة ١٦٨٢م) الذي ذكر أن ما بعثه إلى رحلة بعد رحلة هي رؤيا رأى فيها النبي ﷺ فأراد أن ينادي: "شفاعت يا رسول الله" طلبا للشفاعة، لكنه قال: "سياحت يا رسول الله"! فدعا له ﷺ في الرؤيا بالسياحة، فحبب إليه التنقل والسياحة في البلاد بعدها. (المترجم).

يوماً بعد يوم بالإحساس بحقيقةِ: "لي مع الله وقت"،[١] ثم الارتباط الدائم "بالعالم الآخر" وامتلاك آفاقٍ روحية رحيبة. فإن أفلحنا في التزود بمثل هذه الذخائر المعنوية، فعندما يهتف الربيع ويحل الموسم ستُهرع إلى الحياة تلك البذورُ المنثورة بنشوة العبادة في أرجاء الأرض كلها، وستحيي عهودا وردية عديدة دفعة واحدة في مجتمع المغمومين.

إن من أجدى الأمور في بناء الجيل الحاضر هو تيسير تنقلهم بين عوالمهم الداخلية وبين حقائق الوجود بتحفيز عزم التفكر المنظم لديهم، وتحبيبُ الإيمان والتعلم والتمحيص والتفكير إليهم بتدريبهم على مطالعة الآفاق والأنفس ككتاب مفتوح. فعلينا أن نقدم إلى آفاق مداركهم وعقولهم تلك التصوراتِ المذكورةَ بالوسائل المرئية والمسموعة، وأن ننقلهم إلى عوالم أرحب عن طريق إنقاذ أرواحهم من السجن البدني الضيق. ثم إزالة الكدر والقسوة من أرواحهم، وإيقاظ قلوبهم المتأججة شوقا إلى الآفاق الماورائية على أجمل التطلعات الإنسانية وأرقها وأخفاها وأكثرها سحرا ودلالا. وإذا نجحنا في ذلك فسنكون قد بشرناهم بالانبعاث من جديد.

وبدهي أن الأرواح التي لم تكتسب خفة بالتصفية بالايمان والمعرفة والمحبة لن تَقْدر أبدا على التحليق في سماواتِ ما بعد الأفق. بل دع التحليق في سماوات ما بعد الأفق، فتلك الأرواح الجائعة لا تنفك عن التلوث بالرغبات الدنيوية، فتمتلئ قلوبهم بالأحقاد وتطفح بالكراهية، ويقع نظامُ الروح أسيرا في قبضة جهاز النفس، ولا يزيدون على الأكل والشرب والنوم والجلوس والقيام، فيغدون عبيداً للبدن يأبون الانعتاق!

إن الحقيقة الفريدة التي يتلقاها روح الإنسان من كل من الإيمان

---

[١] الأسرار المرفوعة لعلي القاري ص ٢٩٩؛ كشف الخفا للعجلوني ٢/٢٢٩.

والمعرفة وتعلقِ القلب بالله هي المحبة، أما الحقد والكراهية وجوانب الضعف البشري فتزول -حتما- بحلول هذه القيم السامية... أجل، إن معاني الإيمان والمعرفة والمحبة توحد بين الإنسان والكون، وفي الوقت عينه تنجيه من عذاب الكثرة وآلامها، فتذيب وحدته ووحشته الجوانية في إكسيرِ "معية" الحق تعالى، فتحوِّل حياتَه إلى لذة أبدية ونشوة خالدة تجعله يرتشفها كأساً بعد كأس!

فالأجيال المنطلقة إلى الغد المجهَّزةُ بهذا الجهاز والمزودةُ بهذا الزاد، تنتشر وتهاجر إلى جهات الأرض الأربع بعشق عميق وشوق عظيم ومن غير الانسياق لمكسب أو مربح، بل من أجل الارتقاء بالنوع البشري كله إلى الكمالات الإنسانية... ومع الابتعاد عن تطلعات الشهرة والمجد ابتعادا كاملا، ستتحمل أقسى الظروف وتنهض بأثقل الأعمال ثم تغادر ولا تلتفت إلى الوراء ولا تعبأ بحمد أو إطراء. هؤلاء، أينما حلوا، سيَصبغون كل عين وكل قلب بألوان الاحترام والخشية البادية والفائضة على تصرفاتهم، حتى إن لم يتحدثوا عن الدين، أولم يلفظوا بقول عن التدين... وسينفتح كل من يتصل بهم على آفاق "الروح" الرحبة والغنية، بدلاً عن الحقائق النسبية والقصيرةِ الأبعادِ للمادة، فيبلغ سعةً تتعدى الخيال في الدنيا نفسها، وينال "عرش مملكة" يعجز الكلام عن وصفها.

ونحن نبني حضارتنا



إننا كأمة لا بد لنا اليوم أن نعرف البرامج والخطط التي نسير بها إلى المستقبل، والمراحل التي نريد التنقل عَبرها في مسيرنا. لقد أحاط بمجتمعنا في ماضينا القريب أحداث مأساوية زعزعَتْنَا، وفَتحت عيوننا على العصر في ضبابٍ ودويِّ صواعقَ كأنها قيامة حمراء! فكان عسيراً جدا -بطبيعة الحال- أن نبصر بوضوحٍ ونقاءٍ الغايةَ والهدف الذي هو "إحياء أمتنا"، وأن نستدل على الاتجاه القصير الصائب للوصول إلى ذلك الهدف وقد وجدنا أنفسنا في غبش ذاك الضباب والدخان ومركزِ رجة الكثير من الزلازل. بل لعل ذلك كان محالاً بواقع الأحوال الداخلية والخارجية.

نعم، كان عسيراً أو محالا، لكن العجيب أن تتشكل رؤى هذا المجتمع في "الانبعاث من جديد" وأن يتوجه إلى قيمه الذاتية، متزامنا مع هذا الوقت العصيب بعينه، بعدما سيق إلى التضعضع في كل ما هو ذاتي فيه وهُيء ليُستَلبَ وجُعل "قابلا للاستعمار". وكان هذا حالاً خارقاً للعادة؛ لأن الشعور الفردي كان مهزوزا من الأساس، والشعب كان حائراً ومضطربا في قلب أشد الزلازل وأرهبها، وجموع البشر كانت مقصومة الظهر في مآس مفزعة من أندر ما في التاريخ.

وفي وسط ذلك الضباب والدخان الكثيف الذي لم يكتمل تشكُّل الوجدان والرأي العام الاجتماعي بعدُ، لم يكن هناك غيرُ أفراد منقطعين

عن بعضهم البعض، يكدُّون من أجل الوصول إلى المستقبل بدافعِ: أنْ يجدوا لقمتين ومأوى؛ ويعني ذلك أنهم يحسبون المراوحة في مكانهم سيراً وتقدما، غافلين عن غاية حياتهم وعن وجود قيم سامية تستحق كل شيء حتى الموتَ في سبيلها. نعم، كانت الأفكار مشتتة والإراداتُ مهزوزة والهممُ مشلولةً والآفاق مظلمة والقلوبُ خاوية. ولكن مع هذه المثبطات كلها كان المجتمع يصنع كل يوم أحلاماً جديدة ويُسَرّي عن نفسه بالأماني ثم يرجع خاوي الوفاض مما أمل في كل يوم جديد ببرنامج جديد!

فحديثه عن تصاميمَ تشبه أحاديث النيام، وحديثُه عن مشاريع، ولو ذات نطاق ضيق، كانت تتزامن مع هذه المرحلة المشؤومة التي تَضاعَف فيها وقْعُ النكبات عليه وتوالت عوامل التعرية الروحية. ولقد بدا كل شيء في البداية كردِّ فعلٍ للأفكار المستهان بها والمعتقداتِ المتعرضة للتزييف والضمائرِ المقموعة. ثم أعقب ذلك حركات مستشعرة واعية وأنشطة مستديمة. فمن اللائق أن نعتبر تلك البداية بداية حقيقية للانبعاث بعد الموت لأمتنا. وكان طبيعيا أن يَظهر بعد هذه المرحلة -كما ظهر قبلها- مَن يريد أن يتحكم في هذه الحركة الواعية المستشعرة والطاقةِ الحاصلة من إحياء النفوس والأرواح، ويوظِّفَها كما يهوى ويشتهي... وقد ظهر فعلا. ولكن جموع البشر لم تَعُد تَقبل أن تقع -كرة أخرى- في موقع "القابلية للاستعمار"، بعدما بدأت تُدرِك ذاتَها بذاتها وبمقوماتها الداخلية الذاتية.

ومع الزلات والكبوات، كان الانخراط يمضي ويدوم في هذا الإحياء الذي صارت الجموع تستشعره في عوالمها الداخلية وفي أرواحها وقلوبها. وسيحظى الجميع -الجميع من غير استثناء- بوجودٍ ذاتي جديد، عاجلا أو آجلا. صحيح أن موانعَ كأمثال ذلك الضباب والدخان القديم

لا زالت تُعيق الرؤية السليمة والإحساس السليم للمجتمع، لكن كثافة الضباب والدخان اليوم ليست كالقتام الذي عرفناه؛ فبشيء من الهمة والجهد صارت القلوب قادرة على أن تنهَلَ من منابعها الذاتية وأن تحلم بتحقيق رؤاها الحضارية.

غير أنه ينبغي اليوم أن نحدد إطار الفهم لتلك الحضارة، ونعيد النظر في كنهها (بتعريف جامع ومانع)، ونقف على المعنى والمحتوى لأمسنا، وفوضويةِ يومنا وغموضه، والمعالجات المتصوَّرة لغدنا... ثم نتعرفَ على صوت هذا العصر مع الحفاظ على الأصل والذات من جهةٍ، وأَخْذِ معالجات الزمان الحاضر وتفسيراته بنظر الاعتبار من جهة أخرى. وبدهي أن هذا عمل شاق، لكننا قادرون على القيام بأعبائه بعناية الله ﷻ، ما دمنا قد ألقينا بأنفسنا في هذه الطريق.

ومن مقاربة أنتروبولوجية (Anthropology)،[1] نجد أن الحضارة -والتي يمكن أن نفسرها بأنها مجموع النشاطات المتعلقة بتنظيم الحياة الإنسانية، أو التصورات الفكرية والاعتقادية والفنية لأي أمة، أو كل الأوصاف الخاصة بوجودها المادي والمعنوي- مفهومٌ له أشكال مختلفة وعديدة، وذلك حسب الرؤى والفهوم والفلسفات والقدرة على التلقي. ومهما كثر التنوع في التفسير، فلا شك أن الرؤية السليمة ليست تلك النوعية والأساليب من الحياة التي انتقلت إلينا من رجال فترة الاستعمار فتقطعت أنفاسنا لهثاً وراءها منذ سنين طويلة، ونزعنا من أجلها عن أنفسنا كثيراً من قيمنا. ولو كانت كذلك، لفَقَد الكفاحُ العظيم ضد الاستغلال والاحتلال كلَّ معانيه وجدواه.. والواقع أن هدف الكفاح كان واضحاً، وهو الاستقلال التام في كل النواحي.

[1] أنثروبولوجي: علم أحوال الإنسان والبشرية (المترجم).

فإن كنا الآن نفكر في إعادة بناء الذات من جديد، ونبحثُ عن أسلوبنا الذاتي الحضاري، فينبغي أن نتخلص من احتلال المفاهيم والأفكار الغريبة في داخلنا، والمبرمجةِ على تخريب جذور الروح والمعنى فينا، وأن نتَّبع -بالضرورة- سبيلا يُمكِّننا من العمل على طبع فكرنا الذاتي ونظامنا الاعتقادي الذاتي وفلسفتِنا الذاتية في الحياة، على نسيجنا الحضاري الخاص.

وبغضِّ النظر عن التحليلات الأنثروبولوجية الحديثة لابد لنا -وبقدر المستطاع- أن نستخدم جميع الوسائل المشروعة للوصول إلى الهدف الجليل الذي يُمليه علينا فكرنا الذاتي، ونجدَ حلولاً بديلة للتخلص من الفوضى التي نعيشها. وعلينا -إذ نبحث عن الحلول البديلة- أن نأخذ بنظر الاعتبار كلَّ الحيثيات التي تتعلق بموقعنا الجغرافي والاجتماعي.

ولئن كانت الحضارة عنواناً أو مصدراً لمجموع الأحوال والأشراط المادية والمعنوية وكانت هذه الأحوال والأشراط واعدةً بتلبية حاجة أفراد ذاك المجتمع من أطفال وشباب وشيوخ ومسنين بل ملبيةً لها بالفعل في كل مرتبة من مراتب الحياة وفي كل مرحلة من مراحل التطور... فإني أحسبُ أن الأصوب هو أن ننظر إلى القضية بعينٍ عملية إلى جانب المنظور الأنثروبولوجي، بصورة قد تتعدى علم الأنثروبولوجيا البحت. وإذ نفكر في هذا، يَلزمنا ألا نُهمل المرحلة الراهنة لتطور المجتمع. فإننا إذا اقتدينا -بوضعنا الحالي- بدول سبقتنا في وتيرة الإمكانات الحضارية بأشواط بعيدة، أو بأخرى تقطع المسافات بسرعة البرق في الطريق الذي نمشي فيه مرة ونكبو أخرى، ومعنا آخرون ممن يقاسموننا الخطوط والتوجهات نفسها، وذلك للوصول إلى الغاية... فأحسب أننا سنقع تحت

صفعات الخيبة عند الفشل في نوال المقصود ونعجزُ عن الوقوف على أقدامنا تحت وطأة الخذلان والفشل.

إن المجتمعات المتطورة والمتقدمة اليوم كانت من قبلُ تعاني من مثل ما نعانيه، وكانت تقوم وتقعد في تخبط كتخبطنا وتكتوي بنارِ عذابٍ كعذابنا. ثم جاءتها أيامٌ فُتحت فيها أبواب التجديد على مصاريعها بفضلِ ما كانوا يتمتعون به من شوق البحث وعشق العلم وحثيث العمل ومكافأةِ من وُفقوا، بأجزل المكافآت. فتَحققَ النجاح إثر النجاح مما أدى إلى فوران العزم وشحذِ التوق. وصارت البيئة عندهم مشاتلَ تحتضن فسائل العبقرية... فتَتَابَعَ الاختراع؛ من مكائن البخار إلى مصانع النسيج، ومن مختبرات الأبحاث إلى المطابع... وبلغوا بعد مدةٍ عصرَ العلم والعقولِ الألكترونية.

ولما بادر الذين يقدِّرون العلم في تلك الأيام بمكافأة الكشوفاتِ والاختراعات والأبحاثَ العلمية، صاروا وسيلة لانكشاف القابليات العظيمة في كل مكان لِتجدَ فرصتها في النماء والتطور، فكأنَّ أطراف أرضهم معرض العجائب لأعمال النوابغ الذين لا يَعرفون الفتور.

وكما تعاقب ظهور العلماء في عالمنا الإسلامي من أمثال ابن سينا والفارابي والخوارزمي والرازي والزهراوي إبان تحقُّق الوسط والبيئة الشبيهة، كذلك استَخدم الغربُ ما تَوارَثَه من المكتسباتِ خير استخدام وبأوسع وجه ممكن في ذلك الوسط، واستطاع أن يسِمَ القرون الأخيرة بسِمَتهِ.

لذلك، من الغلط أن نحصر حاضر "الغرب" في آثار جهود علماء ذوي قابليات راقية، مثل كوبرنيك وغاليلو وليونارد دافينشي ومايكل أنجيلو ودانتي أو أديسون وماكس بلانك وآينشتين؛ فلا يمكن أن نُرجع "النهضة العلمية" أمس ولا الفوران العلمي والتكنولوجي اليوم، إلى مساعي عدد

قليل من أمثالهم فحسب. وإلا، فإننا سنواجه مشاكل نعجز عن إيضاح أسبابها بالقاعدة المعروفة بـ"تناسب العلية". فإن النجاحات الخارقة للعادة، المتحققة أمس واليوم، والتكوينات العالمية الكبرى، مرتبطةٌ -إضافةً إلى عبقرية الأفراد ونبوغهم- بالبناء الاجتماعي المولدِ للعبقرية، والوسطِ المناسب لتنشئة المكتشِفين، والبيئةِ العامة الحاضنة للقابليات. فنقول بهذا الصدد: إن الحديث عن الوسط والبيئة العامة مازال يرِد حيثما كان يرِد ذكر همة أصحاب الاستعدادات السامقة وجدِّهم وجهدهم، بل كثيراً ما يَظهر الدهاء والقابليات لأصحاب المواهب العظيمة والعباقرة السامقين بقدر ما تسمح به البيئة العامة. وتَوَقُّعُ ما يخالف ذلك غير مُجْدٍ اليوم أيضاً.. فبدهي أنه ما من أحد يَقوى على تغيير قواعد "الشريعة الفطرية". فالذي يناطح السنن الكونية كلَّها فسيخرُّ منهزماً، عاجلا أو آجلا. إن العبقرية في أرضٍ غير أرضها محكومٌ عليها أن تكون كعصفٍ مأكول، كما يُحْكَمُ على البذرة بالفناء في أرض لا تُرعى فيها بالهواء والماء والقوة الإنباتية.

إذن علينا أن نبحث عما نأمله لغدنا، في نقطةٍ تتلاقى فيها البيئة الصالحة وعشقُ العلم وعزمُ العمل والبحث المنهجي. فإذاما أثارت البيئةُ الصالحة العشقَ العلميّ وألهبت العزائمَ على السعي والإنجاز، فستشعر القلوب الحساسة بذلك في أعماق كيانها بعملية امتصاص خارقة، ثم تقوِّمه، ثم تضعه موضع التنفيذ في إطار منهجية معينة. وبعد ذلك، تعمل "الدائرة الصالحة"[1] للارتقاء بإلهاماتٍ وتداعيات وتركيبات وتحليلات جديدة.. تعقبها -باستمرار واطرادٍ- الجهودُ الفكرية والنُّظُم المنسجمة مع مقوماتنا الذاتية والمتوافقةُ مع رؤيتنا ومبادئنا الحضارية.

---

[1] أراد المؤلف بالدائرة الصالحة الدائرة الوَلود التي يثمر فيها الخير خيراً على الدوام، وهي ضد الدائرة الفاسدة التي يفرز فيها الشرُّ شرا على الدوام في حلقة مفرغة عقيمة. (المترجم).

لكن الحاصل عندنا كان دائماً عَرْضاً خَلَّاباً لما أنتجه غيرنا تحت اسم الحداثة أو النهضة الإسلامية، وإن كان أكثر هذه المنتجات يناقض مرتكزاتنا الأساسية. فلم نفلح في تفهم "الحداثة" أو "النهضة" بمقوماتها الذاتية، أو -قل إن شئت- ذهلنا عن ذلك. ومن هذا الوجه، نستطيع القول بأنَّ تخلف عالمنا عن اللحاق بما بلغته الدول المعاصرة، وعجزَه -مع كده وجهده- عن تحقيق النهضة المأمولة، ليس بسبب الوضع الجغرافي لبلادنا أو نقص الإمكانات أو ضعف القدرات والقابليات لإنساننا، بل لقصورٍ عن فهم كنه التحديث ونقصٍ في الفكر، والاكتفاءِ بالقوالب الفكرية النمطية كبديل عن حب العلم وعشق الحقيقة.

وأظن أن التعرف على أنموذج جارتنا القريبة منا: ألمانيا، وعملاقِ الشرق الأقصى: اليابان، يزيح عن أنظارنا ستائر كثيرة لنطلع على نواقصنا. فألمانيا خرجت من حربين عالميتين مثخنة الجراح؛ فكان حالها في النصف الأول من القرن العشرين خراباً وركاماً ومأوى للبوم الناعب في كل طرف، وكأنها هي التي وصفها محمد عاكف في بيت شعر (ترجمته):

الديار خرائب،

والصحارى خالية موحشة،

والأيام محرومة من العمل والكد،

والليالي جاهلة بمعنى الغد.

لكنها تغلَّبت على المثبطات، ولمت شعثها وجمعت أشتاتها في زمن قصير، وانتصبت بلداً عملاقا أمام العالم. ولم يكن أحد يتفوه بكلمة عن الوحدة الألمانية، حينما كنا نحلم نحن بأحلام التحديث في أوائل القرن التاسع عشر. وإذ صارت ألمانيا بلاد الأحلام متحدية كل

هذا الخراب، لا زلنا نثرثر عن أحلام التحديث. وقد يقال: "إن ألمانيا غيرت كفنها إلى قميص مرتين لكونها بلدا غربيا محظوظا، فحققت انبعاثات بعد موتها مرات حسب فلسفة حياتها... إذ ما كانت ألمانيا قادرة على القيام من كبوتها لولا حظها من القرابة الدينية والثقافية من دول أوروبا". ولئن قَبِلْنا بهذه الفرضيات والتقديرات في شأن ألمانيا، فثم "يابان" الشرق الأقصى التي تعرضت إلى الحصر والتحديد من العالم الغربي كله ردحاً من الزمن.

إن مشاريع التحديث عندنا تسبق اليابان بنصف قرن من الزمان. إنها بدأت بالسعي الحثيث في طريق التحديث بعدنا بخمسين أو ستين عاماً... فاجتازت كل العوائق وسبقَتْنَا في طفرة واحدة مع أنها كانت قد أصيبت بنكبتين عظيمتين في تاريخها القريب، فأخذتْ موقعَها بين العوائل الكبيرة والقوية التي تتولى شؤون العالم. وإذ نسلي أنفسنا ونُسرِّي عنها بأناشيد الولادة والانبعاث من جديد، بدأ اليابانيون بجني ثمار نهضتهم. وإذ ينهش بعضنا بعضاً بعد مائة وخمسين سنة من المسير بمناقشةِ صحةِ نقطة الانطلاق بدلا من النقاش حول الهدف المنشود، سد اليابانيون الفجوة بينهم وبين الغرب في زمن قصير لا يعدو الأربعين عاماً، واكتسبوا قد رةَ منافسةِ عصرهم ومنازلته. فاليابان اليوم قوة عملاقة؛ بقدرة اقتصادها ونشاط مبادراتها، وطاقتها الاستثمارية الفعالة، وسُمْعتها الجيدة على مستوى العالم... وقد ظلت اليابان حَذِرة وانتقائية ومُخْلصة لهويتها القومية إبان تحقيقها التحديثاتِ المتتالية وتبشيرِ شعبها بوعود المستقبل المرفَّه، وأثناء اقتباسها من العالم ما تقتبس، وأخذِها ما تأخذ أو تركِها ما تترك.. فلم تستخف بتاريخها، ولم تلعن ماضيها، ولم

تنكر جذورها المعنوية والروحية.. بل ما فتئت تفكر مليا في المهاوي السحيقة بين حالها المتخلف وبين الذرى التي تصبو إليها، وتُقَوِّم الحال بعقلانية وواقعية، فخططت مشاريع قابلة للتطبيق، وآمنت بأنها ستحل معضلات التخلف كلِّها بمنظومة اجتماعية تقوم -إلى حد كبير- على الأسس الأخلاقية، ومَلَأت الفجواتِ الناجمةَ من نقص القدرات وزيادةِ الحاجات، بالاعتزاز الوطني والانتساب القومي والعز، والحركةِ المنظمة الهادفة وتنظيم المساعي والجهود. فنجحت في الاحتفاظ بهويتها الذاتية، وصارت أنموذَجاً يَذكُره التاريخ كشعب أنجز عجائب العصر.

إنَّ ما فعلناه في تاريخنا القريب هو الكدح في بناء الحضارة فوق إنجازاتها السابقة وأنعُمِها وثمراتها. أما اليابان وأمثالها من البلاد المتقدمة، فقد أقامت كل شيء على أسس الفكر الحضاري والمفاهيم والسلوكيات الحضارية. ومع تقديري وتوقيري لشيء من التطور الحاصل عندنا، فإني أظن أن هذه النظرة المنحرفة -في عالمنا الإسلامي- هي السبب الرئيس في مراوحتنا في مكاننا بينما يتسابق الآخرون من نجاح إلى نجاح؛ فبينما كنا نكافح نحن في استكشاف طرق سهلة ورخيصة للحصول على نعم الحضارة ووسائلِ تَقَاسُمها، أقامت الشعوب المتقدمة بناءَ كلِّ شيء على الإنسان والأخلاق والتعليم والثقافة.. واجتازت بسرعة الطير المهاويَ التي سقطنا فيها، فارتقت إلى القمم التي قصرنا عنها.

ولننظر إلى الموضوع من زاوية أخرى؛ إن مجموع النتائج والمعطيات لحضارة معينة هي تلك الحضارة عينها. وعلينا أن لا ننسى أن أهم أركان ظاهرة الحضارة هو الإنسان المؤهل، وأقوى أسسها الحيوية هو دولة حرة ومستقلة، وأثمن رؤوس أموالها هو الزمن. ولا نشك أن الدول

المتقدمة قد استغلت هذه المقومات بأحسن وجه. وعلاوة على استغلالها هذه المقومات استغلالاً حسنا، لم تهمِل أبداً تقسيمَ الوظائف، واحترامَ الاختصاصات والاهتمامَ بالإنسان ومكافأةَ النجاحات واستثمارَ الإمكانات الأولية التي وهبها الله تعالى لها استثمارا مُجْدِيًا؛ وفي المقابل إذا وقعت هذه المقومات التي تساوي قيما فوق القيم في أيدي المجتمعات التي لم تنظِّم مساعيها تنظيماً دقيقا، ولم توزِّع الواجبات والأعمال توزيعاً جيدا، ولم تتعرف إلى أسرار ثرواتها المكنوزة والظاهرة، ولم تتفهم القيمة الحقيقية للإنسان، ولم تستثمر الزمن استثماراً مجزيا... ففي هذه الحالة ستكون هذه المقومات كالمتاع الذي يقع في يد بائع لا يقدِّر قيمته فيبيعُه بثمن بخس دراهم معدودة.

إن كل الأمم التي تركت حضاراتُها آثارا وبصمات في التاريخ والخرائط الجغرافية لم ينقش اسمها على صفحات التاريخ بأحرف بارزة إلا بمثل هذه المثابرة في التقويم والتنظيم، والقابليةِ في التركيب والتحليل، والتعبئة الروحية والفوران المعنوي؛ ففي الخط التاريخي الطويل، الممتد من البراهمانية إلى البوذية، ومن اليهودية إلى المسيحية ثم الإسلام، هناك أمم عديدة تربت في مهد الإيمان والعشق والتصورات الروحية والمعنوية فأكسبت الأرضَ والزمان والإنسان قيما لا تقدر بثمن.

لكن الواقع أن الإسلام يمتاز بأوجه كثيرة عن جميع الأفكار والنُّظم القديمة والحديثة، الدينية واللادينية. وابتداءً، فإنه من المسَلَّم به أن حركات التجديد والتحديث الواقعة في جميع النظم غير الإسلامية، أدت إلى إبعاد الدين عن مركز الحركة. أما في الإسلام، فعلى خلاف ذلك مطلقاً قد تولى الدينُ رسالةً مهمة في مركز الحركة التجديدية، وتحولت

كلٌّ حملة إلى تماسك ونضوج واعدٍ بالمستقبل، بتغذيتها المستمرة من معانيه وروحه.

وما زال إنساننا منذ سنين ينتظر من روح الدين بارقة من هذا النوع كلما هم بالقيام بعمل. وبالفعل لاحظنا أن لمعان بارقة من هذا النوع ولو من بعيد، أو رؤى تحمل رموزا ودلالات حوله، قد كفت لانبعاثِ أرواح بالية منذ مئات السنين.

فما بالك إذا اطلعنا على نتائج الجهود التي تبدو الآن ضعيفة ولكنها في الحقيقة مهمة...؟! فإنني أظن أن الآمال حينذاك ستتحفز وتنشدُّ بجدةِ "انبعاث بعد الموت"، وتنهض الإرادات، وتجيش القلوب بالإيمان، فإذا بنا نُحَقِّق المشاريعَ الحضارية المترقبة منذ مئات السنين واحدا تلو الآخر. هذا، ما لم نستسلم للعوائق المصطنعة والموقوتة التي تريد أن تقطع علينا السبيل، وما لم نتطلع إلى الأجور الدنيوية أو الأخروية لخدماتنا التي نحن ملزمون بأدائها والإيفاء بحقها، وحَصَرْنَا الغاية في طلب رضى الحق تعالى وحده.

إن التصور للديمقراطية والحرية، -ولو بوضعهما الحاضر- قد خلّصت شعباً عاش رهين الغفلة، وجهزته بأحاسيسَ وأفكارٍ وقدرات للعبور إلى الحضارة... فإذا لم ندمر التوازناتِ ضد مصالح أمتنا، في مواجهة الأحوال والمعادلات الداخلية والخارجية، فسنقتدر في العاجل القريب أن نقول: هاكم مشاعرنا الذاتية ومنظومتنا الفكرية وقراءتنا للحياة ورؤيتنا الحضارية وثقافتنا الأصيلة...

مشكلتنا الثقافية...
أو الكينونةُ الذاتية



لا شك أن المعنى الذي نقصده من "الكينونة الذاتية" هو إبراز هويتنا الداخلية المنسوجة من ميراث حضارتنا الذاتية وثقافتِنا الذاتية، وجعلُها "المحورَ" الذي ندور حوله. فلربما يَفهم بعضُ الأوساط في أيامنا هذه كلمةَ "الذاتية" على أنها العروض الفلكلورية التي لا علاقة لها بالجذور "المعنوية" لأمتنا، و"الغرائزُ" التي تطفح حينما تحس الكتل البشرية بالحاجة إلى إشباع نزواتها "الجسمانية"، والمراسيمُ التي تقام في مناسبات الأكل والشرب والأعياد والأعراس... لكننا نحن نفهم من تعبير "الذات" معنى أوسع وأشمل وأعمق؛ فهي ظاهرة أجرت فاعليتها في كل شرائح المجتمع، وتغذت من ذاكرة الأمة وشعورها ووجدانها على مر الزمان إلى أن وصلت إلى عصرنا هذا، وانعكست على مشاعر الأمة وأفكارها ولسانها وتصوراتها الفنية وتمثلت فيها، وعشناها في أعرافنا وعاداتنا وتقاليدنا باعتبارها أهم عمق من أعماق الحياة في كل أوان.. فنحن نحس ونشعر بها في كل وحدة من وحدات الحياة، وفي كل صفحة من صفحاتها وكل مرحلة من مراحلها، وفي كل محطة من محطاتها؛ من الرعاية التي نلقاها في أحضان أمهاتنا إلى سلوكيات أجدادنا المشبعة بروح الأبوة الحانية التي تعكس طبيعتنا الذاتية.. ومن طبع برامجنا التربوية

ومضامينها بروحنا الذاتية إلى نفخ المربي لهذه الروح بأكمل وجه.. ومن أشكال الطهي في مطابخنا إلى تصرفاتنا في حقولنا ومزارعنا.. ومن قيامنا وقعودنا في مكاتبنا إلى أخلاقياتنا المهنية.. ومن أساليب كلامنا وكتابتنا إلى علاقاتنا بالآخرين.

قد لا يُدرِك البعضُ على المدى القريب الفوائدَ العملية أو الاجتماعية للعيش في أجواء "محور الذات". لكن من الطبيعي والبدهي أنه على المدى البعيد وبالإصرار عليه سوف تبدو الأهمية الحيوية له في مراحل التقدم كلها. وعلينا في هذا السياق أن نواصل السير في إطار ديننا وتراثنا وأعرافنا وعاداتنا وتقاليدنا، مع أخذ ما يستجد من تفسيرات الزمان بعين الاعتبار. وبمرور الزمان ستكون قيمنا الذاتية جزءاً لا يتجزأ من طباعنا. وما نقتبسه من الخارج سيصطبغ بصبغتنا وسنتبناه فيكون لونا مهما من ألوان الخطوط في نسيج أطلسنا الذاتي؛ الفكري والثقافي.

إن تلك الحضارات التي كانت تُذهِل العقولَ وتَبهر العيونَ بغناها الثقافي لم تَظهر في روما وأثينا ومصر أو بابل فجاءةً من غير مقدمات؛ إن الثقافة في كل مكان إنما وُلِدت بعد حضانة طويلة في عالم المشاعر والأفكار للأفراد، وفي السفوح الخصبة للوجدان العام، واستقت من المناهل الداخلية بشكل مباشر، ومن الخارجية بعد الترشيح والتصفية، فترعرعت حتى صارت بعد زمان عمقا مهما لطبائع الشعوب ولوناً ظاهراً لحياتها، ثم أحاطت بأرجاء الحياة كلها وإن لم تَجْرِ الألسنُ بالكلام عنها دائماً، فهيمنت على حياتها في المعبد والمدرسة والشارع والبيت والمقاهي وغرف النوم... حتى إنَّ الناس لو لم ينصاعوا لها بإرادتهم ووعيهم، فقد كانت تطوِّعهم بقوة سرية عفوية تأسر إرادتهم.

فأية أمة أرسيت قواعدُها بهذه المثابة على أساس ثقافي بهذه الرصانة فإنها بمرور الوقت ستصل إلى مستوى من النضج بحيث يكون من الطبيعي لها أن تتخطى كل العقبات التي تعترض طريقها كالجهل والفقر والتشرزم والتسيب والضغوط الخارجية. فكل من حضارة روما وأثينا ومصر والعثمانيين تُعتبر -باعتبارها من حضارات العهد الوسيط- من الأمثلة الجيدة على هذا.. وبالنسبة للتاريخ القريب تُعتبر ألمانيا نموذجا لابأس به لولا أنها أنهكت نفسها بخوض مغامرات من نوع الحرب العالمية الثانية. فبعد الحرب العالمية الثانية، انقلبت ألمانيا عاليها سافلها، وصار اقتصادها ركاماً، وتسلط الأجانب على سيادتها الوطنية، وتفرَّق المجتمعُ إلى معسكرات متنازعةٍ في الجو النفسي الذي ولَّدته الهزيمة والبؤس، وصارت تلك البلاد من أدناها إلى أقصاها معسكراً للأسر... لكن قلوبهم كانت -في الوقت ذاته- تنبض بالهمة، ورؤاهم تفوح بحب ألمانيا الكبرى، وكانوا على ثقة تامة بأن قوتهم العضلية وفكرَهم كافيان لتحقيق ذلك. وكانوا على يقين بأن ألمانيا إذا كانت لا بد وأن تنجو من ميدان الموت هذا، فإنما تنجو بطاقتها الحيوية وثقافتها المستقرة الراسخة. وهذا ما حصل فعلا. نعم، إن الشعب الألماني ولَّى وجهه شطر جذوره المعنوية، واستفاد بعقلانية من الظروف الاجتماعية، والنفسية-الاجتماعية، والاجتماعية-الثقافية، وأصبح من الذين قرؤوا وفسروا أوضاع النصف الأخير من القرن الماضي في سبيل مصالحهم، بشكل لم يسبق له مثيل.

نستنبط من هذا الأنموذج: أن اختزال أسباب المعضلات السياسية والاقتصادية والإدارية لأي بلد وحصرَها في السياسة والاقتصاد والإدارة وإن صح من وجه معين، لكنه معلول بنواقصَ من أوجه كثيرة ؛ فما من

شك في فائدة الجهد والهمة والعلم وابتكار البرامج البديلة في كل ساحة وميدان، لكن هنا أمر آخر ينبغي صرف الهمة إليه بالضرورة، وهو -على ما أعتقد- ثقافةُ الأمة وجذورها المعنوية؛ إذ ينبغي على الأمة ألا تغض البصر عن جذورها المعنوية في جميع فعالياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وألا تنسى البتة الرسالةَ الهادفة المميِّزة لثقافتها الذاتية، ما دامت قد قررت أن تتقاضى وتتحاسب مع عصرها.

صحيح أنه كلما دار الحديث حول التغير والتطور في بلادنا حصل التركيز على ثقافتنا الذاتية، ولكننا لا يمكننا الحديث عن مبادرة تتصف بالديمومة والمنهجية في هذا المجال؛ فالمدارس (التقليدية) والزوايا والتكايا التي كانت تربي مهندسِي فكرِنا وعمالَ روحنا في الماضي، لم تنتج مشاريعَ تأخذ بأيدينا إلى المستقبل. وإذ لم تنجح في ذلك، انسحقت تحت ركام أنقاضها. وإذ نقول هذا القول، نواجه مبدأً يكاد يسكتنا ويضرب على أفواهنا، هو: "اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم"،[1] ويمنعُنا من أن نتفوه بشيء غيرِ هذا. ونحن بدورنا نقول: "إن حوادث التاريخ لا تعيد نفسها مهما تشابهت فيما بينها. فاللازم أن نعتبر بعبرها، لا أن نتلقى دروساً منها". ومن ثم نوجه الأسئلة عن الماضي إلى أنفسنا في الحاضر، فنقول: إن الذين سبقونا قد انقرضوا لما انحرفوا عن الغاية والهدف من وجودهم. ونحن اليوم في الموقف عينه. فالأصوب إذن أن نقاضي أخطاءنا بدلاً عن الانشغال بأخطائهم، وإن سلّمنا بوقوعها.

لنسلِّم بأنهم لم يأبهوا بالمنابع التي ينهلون منها، فصاروا وسيلة لجدب أمتنا. لكن قولوا لي -أرجوكم- ما الذي صنعناه نحن؟ هل نستطيع أن

---

[1] الترمذي، الجنائز ٣٤؛ أبو داود، الأدب ٥٠.

ندَّعي بأننا -كشعوب- وفَّيْنَا بمسؤولياتنا كلها؟ أو هل نزعم بأننا قمنا بإدارةِ مؤسسات الدولة كما يتطلبه العصر؟ رجاءً أفيدوني! من يستطيع أن يقول: إن المدارس في كل هذه المدة المديدة قد أثمرت المرتجى؟ صحيح أن كثيرا من الشباب حصّلوا تعليماً عاليا في باريس ولندن وميونيخ ونيويورك... لكن هل صاروا أعضاء نافعين لمجتمعهم؟ بل على العكس؛ فدع عنك كونهم أعضاء نافعين، رجع أكثرهم إلى بلادهم بأحلام (فانتازيات) مختلفة، وجلبوا للوطن معضلات عويصة بتأثيرِ تياراتٍ مثل الأنكلوسكسونية والنازية والسلافية، أو الرأسمالية والليبرالية والشيوعية؟ فزادوا الاضطراب اضطرابا، وزادوا القطيعة مع الذات شدة... ولا زلنا نرجو ونأمل ألا يدوم الحال على هذا المنوال.

والحقيقة أن ثمة أسبابا كثيرة تبعث على الرجاء والتفاؤل؛ فقبل كل شيء، قد أصبحنا نعي إبان هذه المدة ما أصابنا من الغدر والظلم. ويمكن لألبوم الصور المريرة هذه أن تلهمنا صورا مختلفة منذ الآن.. إنَّ تَعَلُّقَنا بمد جسور الصداقة مع فرنسا وألمانيا وإنكلترا وأمريكا، وخيبةَ آمالنا، وقلةَ حيلتنا، والتجاربَ التي اكتسبناها في خضم محاربة المئات من السلبيات، قد تحولت إلى توتر روحي جاد يمكن أن يولد انفتاحاً على غرار "قوة الطرد المركزي". لكن استثمار هذا التوتر استثماراً جيداً واجب يقع على عاتقنا نحن. المدرسة أعطت ثمارها بمقدار أهميتها. والآن جاء أوان ترويض ما ألهمته المدارسُ من العلوم والتجارب بعجنها في معجنة أرواحنا نحن، وتغذيتها بأسس ثقافتنا نحن. ذلك بأننا إن كنا عازمين على المضي قدما نحو المستقبل، فلا مناص من أن نكون ذاتيين في المنطق والمحاكمة العقلية والأسلوب، باستثمار تراكمنا العلمي والتجريبي في مواقعه المناسِبة. فقد

تُكسب المدرسةُ الإنسانَ تراكمات وتجارب علميةً واجتماعية واقتصادية وسياسية؛ لكنَّ تقبُّلها من قِبل فئات المجتمع كافة ودوامَها مرتبط بامتزاجها وتكاملها مع الجذور المعنوية للمجتمع وبنيانه الفكري. ولهذا فإن معضلة أمثالنا من الدول المتخلفة إنما هي عجزها عن اكتشاف حقيقة المدرسة بروحها ومعناها، بل -وبالأحرى- إنها معضلة ثقافية في أصلها. ومن الضروري واللازم أن تُحَلَّ هذه المشكلة في أرضيتها هي.

نعم، هناك أمور كثيرة نحصل عليها وتتشربها أرواحنا ونحن على مقاعد المدرسة، ولكن ثمة أمر أشد وَقْعًا وتأثيرا، ألا وهو الثقافة.. ومما لا مرية فيه أن الثقافة من الأمور التي تنتجها البيئة والمحيط.

يمكن القول بأن البيئة ظلَّت مصدر القيم الثقافية في كل الحضارات سابقها وحاضرها. ويمكن أن نسميها "البيئة العامة" التي تتكون من الأحاسيس والأفكار والسلوكيات والأصوات والألوان والأساليب والأداء والخصوصيات الأخرى الحاوية على أعماق متنوعة من طبيعة الأمة. ولا يتعسر علينا التدليل على صحة هذا المقترب بأدلة كثيرة، لكننا نريد الآن أن نركز على أقوى حركيةٍ، وهي "شمولية" الثقافة التي تتنفسها جميع شرائح المجتمع كالهواء، وترتشفها كالماء، وتشمها كالزهور، وتصغي إليها كالطبيعة. فالثقافة إنما تتسع وتحوز على قدرة التأثير الدائم بهذه "الشمولية". وهذا ما ينبغي أن يتبادر إلى الذهن حينما تُذكر "الثقافة". نعم، إنها مؤثرة في راعٍ بعين المقياس الذي تؤثر به على مثقف أو علاّمة. فما يعنيه التقاء الماء والتراب والهواء والشمس في نقطة واحدة بالنسبة لوجود أي كائنٍ حيٍ ومواصلتِه لحياته، هو الذي تعنيه الثقافة بالنسبة لحاضرِ أيِّ مجتمعٍ ومستقبلِه. نعم، إنها من أهم المقومات التي تُوصِل

الفردَ والمجتمع إلى درجة النضج من الجهة النفسية والأخلاقية.

إن المدرسة بقدر ما تكون متوجهة نحو الهدف ومتسمة بالعمق تصبح ميناء أو مطارا أو منطلقا للأمة، بشرط أن تُصْهَر مكتسباتها في بوتقة الثقافة الذاتية. وإلا فمن البدهي أن المدرسة لن تستطيع حل المشاكل الفردية والاجتماعية. إن المدرسة، باعتبارها دائرةَ تخطيطٍ ومركزَ مشروعٍ، من الممكن أن تعني شيئا بقدر ما يستمع الوجدانُ الاجتماعي إلى صوتِ شيء من برامجها المنسجمة مع الأخلاق العامة وثقافة الأمة... ولكن من العسير جداً -بل من المحال- أن نستدل على أنموذج واحد أنجزته المدرسة بوحدها. لذلك، علينا أن نتقبل المدرسة بواقعها وحقيقتها، ولا نأملَ منها إلا ما يمكن أن تمنحنا إياه. ومع حفظِ ورعايةِ حق العلم، إنَّ تعليق الآمال كلها بالمدرسة منطلَقٌ مبالَغٌ فيه وتفكيرٌ سطحي وبسيط يَجعل إيضاحَ كثير من البديهيات مستعصياً، كتحميل الأرض على قرن الثور!

إن المجتمع السليم الواعدَ بمستقبل مشرق، يتكون من أفراد سليمين هم منه كالجزء من الكل، ولكن -من جانب آخر- وجودُ أفراد منضبطين وممتازين وتطورُهم لا يتم إلا في مجتمع سليم كهذا، وإن كان هذا المقترب يؤدي بنا إلى نوع من "الدَّوْر المحال". فإن بيئة عامرة بتراثنا الثري ستؤثر في كل وقت؛ في العالِم والجاهل، والشاب والكهل، والبدوي والحضري، والمفكر والسارب في هواه.. وما إن يفتح هؤلاء أعينهم ويرتبطون بما حولهم حتى يوحي المحيطُ والجو العام إليهم دائماً بأمورٍ ويحاسبهم ويحاورهم... وبوارداتها وغناها، أو بفقرها، أو بوسطها النفسي والمادي، قد تغذيهم وتربيهم وتعمرهم، أو تقوض عواطفهم وأفكارهم وتحيل كل شيء إلى خراب.

وقد لا يتسنى للإنسان أن يحس على وجه تام بمدى التأثير الذي يحدثه جو "روح الأمة" على أي مجتمع وعلى أفراده من كل النواحي، ولكن ينبغي أن نستحضر دائماً أن هناك أمورا جزئية في العالم النفسي أو المادي تبدو لأول وهلة وكأنها تافهة وعادية ولكنها في كثير من الأحيان لفتت الأنظار وفتحت الأذهان نحو اكتشافاتٍ أو محاولاتٍ أو إجراآتٍ علميةٍ غايةٍ في الأهمية؛ فكما أن ترقُّب قطة لجحر فأر ألهب مشاعر بعض النابهين، فهناك عقول انكشفت أمامها آفاق واسعة حينما فَكَّرت في التناغم البديع لمجتمعات النمل والنحل، تلك المجتمعات التي لا يضاهِي كمالَها أكملُ الجمهوريات.. فَكَّرت في التناغم البديع لمجتمع النمل والنحل الذي لا يضاهِي كمالَه أعظمُ الجمهوريات كمالاً.. وكم من أمر مستصغر في عالم المادة أذكى نارَ أذهان وقَّادة. وكم من أمر يبدو للآخرين هينا ولكنه فتح الأبوابَ لاستلهام عظائم؛ مثل طاس الحمّام لـ"أرخميدس"، وتفاحةِ "نيوتن"، والتناغم العام لـ"جِين"، والقِدْرِ المتدحرج على سطح الدار لنصير الدين الطوسي، وأنغامِ الموسيقى التي تهدِّئ المجانين لابن الهيثم، وبزوغِ شمسِ صباحٍ آسرٍ لـ"ميخائيل إنجيليو" وماءِ جَرّةٍ لـ"دنيس بابن"!

ومن الحقيقة أن لبنيان المجتمع من حيث صحته أو عطبه، وجوانبه الإيجابية أوالسلبية تأثيرا بَيّنا على الأفراد، وإن لم يتمكن العقل -دائماً- بالنظر الظاهري السطحي من إدراكه والشعور به. فالأفراد هم أبناء المجتمع الذي يوجَدون فيه، و يحسون بكل شيء ويعيشونه ويتقبلونه في بيئة مجتمعهم. فالواجب على أهل العلم والمعرفة عموماً، وعلى المسؤولين خاصة، أن ينقُّوا ويغربلوا الأفكار الغريبة والضارة والمنكَرة التي تؤثر على المجتمع سلبا وتُضادُّ العقل والمشاهدة والتجربة والفكر

الديني. إن أعظم الأبطال الذين قاموا بهذه الغربلة في التاريخ هم الأنبياء. ثم مِن بعدهم الأصفياءُ المتحفِّزون بالإلهام، ورجالُ الفكر الذين تكاملت قلوبهم وعقولهم، ورجال العلم الموقِّرون لعالم الغيب مع عالم الشهادة، وللحس الوجداني مع التفكير العقلاني، وللوحي السماوي مع التجربة.

فحينما فتح سيدنا نوح عليه السلام النقاش حول وَدٍّ وسُواع ويغوثَ ويعوقَ ونسر؛ وثار إبراهيم عليه السلام تجاه الأصنام والفكر الوثني المحيط ببيئته؛ ونافح موسى عليه السلام الظلم والاستبداد والطغيان واستغلال الإنسان؛ وأذل المسيح عليه السلام الماديةَ المؤلَّهة؛ وحارب مفخرةُ الإنسانية ﷺ العللَ الاجتماعية التي ما فتئت تمسك بتلابيب البشر كالجهل والفقر والتنازع والتفرق، إلى جانب جميع الأخطاء الأخرى التي جاهد الأنبياء السابقون ضدها... ومن بعده إلى يومنا فَسَّر جميعُ المجددين والمرشدين الكمّل الحياةَ تفسيرا جديدا في إطار أوامر الله تعالى وإرادته ورضائه... هؤلاء كلهم سعوا جاهدين لتحقيق تلك الغربلة والتنقية.

فمن أجل إنشاء الثقافة وإدامتها، ينبغي تحفيز رد الفعل المشترك ضد الأفكار الماسخة والغريبة المنكرة، إلى جانب استشعارها والإحساس بها بكامل عناصرها من قبل كل فئات المجتمع... حتى نبقى وندوم بذواتنا وبخصالنا الذاتية من جهة، وحتى نسير إلى المستقبل من غير السقوط في دوامة الباطل والخرافة والتغرب من جهة أخرى.

إن التأثير المتبادل ما بين الثقافات حقيقة لا مراء فيها. لكن نقل الثقافة من مكان إلى آخر مع المحافظة على أصالتها غير ممكن؛ فالثقافة ليست لباساً يُنزع عن بدن ويُلقى على بدن آخر. وكما تحافِظ الكائنات الحية على أصالتها باعتبار خصوصياتها البيولوجية، كذلك الثقافة إنما تحافظ

على نفسها وتصير بُعدا حيويا للمجتع الذي وُلدت وترعرعت فيه إذا صارت كالهواء الذي يتنفسونه والماء الذي يرتشفونه، حتى تصيرَ عمقاً حيويا لذلك المجتمع، فتُحمَى وتُصانَ.

إن الثقافة تموت إذا ما نقلت من مكان إلى آخر ما لم تتجهز البيئة الجديدة بما يصلح لوجودها ونمائها، أو -في الأقل- تفقد خصوصياتها الذاتية، فتتهجن ويُعدم معناها وتنقلب إلى حقل ثقافي آخر. وكما يَعجز الآخرون عن التمثيل التام لصوتنا ونغمنا وخطنا ورسمنا ونمطنا وأسلوبنا بأصالته الذاتية، كذلك يتعذر علينا التمثل العيني لخصوصيات ثقافة الآخرين. ومع ثراء الألوان في ثقافتنا، فإن الآخرين لن يستفيدوا منها معاني كالتي نفهمها نحن، ولن تهيج فيهم المشاعر كما تهيج فينا نحن، ولئن أحدثتْ فيهم تأثيراً معيَّنا فلن تُحْدثه فيهم بطبيعتها وفطريتها الذاتية. والعكس صحيح إذا أخذنا ثقافة الأمم الأخرى قبل استيعابها وهضمها. ذلك لأن الثقافة ليست بضاعة تشترى من الباعة المتجولين فتؤخذُ إلى البيت كلوحة أو صورة أو أسطوانة أو شريط؛ إنها من حيث كونها ملتقى كل العناصر الزمانية والمكانية للمحيط الذي نشأت وترعرعت فيه "كلٌّ" لايتجزأ وخاصةٌ ببيئتها التي تربت هي فيها، ولابد من تناولها مع كل العناصر التي تقف وراءها حتى يمكن وضع كل الوحدات التي تُكوِّنها وتُغذِّيها في إطار يربط فيما بينها... وأول ما يخطر بالبال أثناء نظرتنا هذه أنها صيغةُ حياةٍ معينة ذات نمط خاص لأمة معينة ومنظومةُ سلوكياتٍ خاصة فريدة من نوعها لأفراد تلك الأمة. ولا شبهة في أن أول ما يلفت النظر في هذا التحليل هو التأثير والتأثر بين فلسفة الحياة لأي مجتمع ونمط سلوكيته. وكلما توطدت فلسفة الحياة وتبناها كل أفراد المجتمع،

تكون سلوكياتهم وأنماطُ حياتِهم باقيةً وواعدة للمستقبل. وكما في الأحياء البيولوجية؛ "الكلُّ" -أي الجسم بمجموعه- يعيِّن حركاتِ الخلايا في خط معين، وتقوم الخلايا المتوجهة باتجاه معيَّن بوظيفةِ عواملَ تنقل الهيأة العمومية "للكل" إلى المستقبل.

منظومة الحركات هذه، التي تجري وكأنها في إطار المسؤوليات المتبادلة، توجِد -من جهةٍ- تنظيماً من التدرج الوظيفي عندما يتعلق الموضوع بالموجودات الإرادية، ومن جهة أخرى، تفجِّر سيلاً من التمحيص والاختبار من قِبَل العقل السليم والمشاهدة الصحيحة والتشخيص بالحس الوجداني.

إن هذه هي الطريقة المثلى لتوحُّد المجتمع وتَطابُقه مع فلسفة حياته وأسلوبه الذاتي وطبيعته التاريخية، حتى يصبح مجتمعا مستقرا بماضيه وحاضره ومنفتحا على العقل والفكر والوحي.. وإلا فإن الأمور الفلكلورية التي لم يكتمل سياقُ تطورها، والتي تم نسجها من العادات والتقاليد واللهويات وما يُشبِع الغرائزَ والأذواق.. حتى المؤلَّهة منها.. ما هي إلا نماذجُ خادعةٌ من العدْم والعوز الثقافي.

نعم، ثَمَّ أخذ وعطاء، وتأثير وتأثر دائم بين فئات المجتمع المتنوعة في الأمم والحضارات الوطيدة التي سكن تموجُها الاجتماعي. وفي الأوساط التي يوجد فيها جو ديمقراطي خاصة، يوجد تأثير وتأثر، وتفاعل مهم ودائم بين قمة هرم المجتمع وعناصر قاعدته. فالمعلم في المدرسة، والواعظُ على الكرسي، والكاتبُ في الجريدة والمجلةِ، والمحللُ على شاشة التلفزيون، والأديبُ بشعره ونثره، والرسامُ الناقل للموجودات بالمعنى الواسع ولمحيطه بالمعنى الضيق إلى لوحات للعرض... هؤلاء

جميعاً يتحركون دائماً في سياق التأثير والتأثر مع جماهيرهم. فالذين في الأعلى، بصفتهم معطِين ومنتجين، يرسلون الإشارات إلى من حولهم باستمرار، يحفّزون بها المعنيين بالخطاب، ويجهزونهم للتحرك، ويزيدون من عدد المعطِين والمنتجين بتوجيه قابلياتهم واستعداداتهم نحو آفاق "تصوراتهم" المهنية والفنية. فيحوِّلون كل واحد من المستقبِلين الذين قلَّت أعدادهم بمرور الأيام، إلى أناس ذوي آفاق واسعة.

وإذ ينتج الصانعون للأفكار ويقدمونها، يتعاطى المتلقون مع كل ما يقدَّم لهم من رأس الهرم بنظرة ماحصة متفحصة ونقدية، ويعترضون على أخطاءِ أولئك أو ما يعتقدون أنه خطأ حسب نظرهم.. ويضغطون على من في الأعلى فيُلجئونهم إلى حلول بديلة. فبذلك يُؤكَّد على كل ما يخص هويتهم، وتتم مراجعة أي فساد في الأساليب بإمرارها من المرشِّحات، وتُنَقَّى السلوكياتُ الخاطئة بالتقاضي والمحاسبة. ولا يمكن تبادلٌ وتفاعل من هذا النوع بين طبقات المجتمع إلا بفضلِ مشاركتهم جيمعا وتقاسُمِهم لموروث ثقافي مشترك.

فإذا تكاتفت أمة بفئاتها المختلفة وأصبحت كـ"البنيان المرصوص" كما وصَفَها مفخرة الإنسانية ﷺ، وسَخَّرت قوتَها وطاقتها في سبيل تكوين البناء الداخلي وتناغمه، فإن الْحَزن سيصير سهلاً، وسيكون من الطبيعي أن تَأخذ تلك الأمة طريقها لتكون عنصرا فاعلا في التوازن الدولي. لكنَّ تواجُدَ رابطة اجتماعية مؤثرةٍ على هذا المستوى من القوة منوطةٌ بثقافة ذاتية قد استقرت أركانها وعايَشَتْها شرائحُ المجتمع كافة حتى غدت جزءاً من طبعها وجِبِلّتها... ثقافةٍ مبنية على قيم أخلاقية تتغذى وتتنفس بها، مستندةٍ بقوة الدين القاهرةِ ومتخطيةٍ بالاستناد إليها كلَّ أشكال "التغريب"،

ساندةٍ لتصوارتنا الفنية بحيث تكُون ملجأً ومأوى آمناً لها في كل مكان. وإلا فأي ثقافة لم يتوضح إطارها ومعالمها بشكل جيد، ولم تحظ بالقبول لدى كل المجتمع، فلا مناص من أنها في حالة كهذه ستصبح دائما مدعاةً للتنازع والتناحر بين معماريي الثقافة وتلاميذهم، ناهيك عن غناء تلك الثقافة وثرائها واحتضانها! وقد يَفتح أحيانا تشاجرٌ كهذا -وبخاصة إذا كان في موضوع الفن والأخلاق- جروحا يستعصي دواؤها.. وقد يورِث الإفراط والتدقيقُ الشديد في مسألة أخلاقية هيمنةً وتسلطاً على المشاعر والأفكار حتى يُوقع الفردَ والمجتمع في الْمَحْلِ والفقر أحيانا، وأحيانا يفتح الباب لتضييع القواعد والأخلاق في البديعيات، فيتلوث كل شيء بالفوضوية والمستهجنات.

ونحن إذ نتناول قضية الثقافة فبدلا من تهيئة الأجواء والمناخ لإشباع الغرائز باللذائذ واللهويات لمن لم تنضبط قدراتهم الروحية بعدُ.. علينا أن نزيد من نشاطاتٍ تُكسبهم القوة والمناعة لمواجهة المعضلات التي قد تواجههم في الحاضر والمستقبل، ونضعَ في الأساس توجيههم نحو التفكير الشمولي الذي ينمي لديهم موهبة اختيار الخير والجميل والصحيح.. وبذلك تتهيأ الأجواء لإمكانية ترجيح الأفراد للخيار الأفضل والأنفعِ بفضل التوجيه الإجباري-الاختياري للجو العام، والانسياقِ وراء التيار الجماهيري، إلى جانب مساندة العلوم والمعارف...

وهكذا، بفضل التمسك بالقواعد نوعا ما، وبفضل التوجيه الاختياري أو الجبري للبنيان الاجتماعي سيصبح مركزُ التقاء "الأخلاقية" و"العلمية" و"الذوق الفني" مغذيا لأسلوب حياتنا، وماكنةً ساحبةً لتحركاتنا وانطلاقاتنا، فتجعلنا ننهل على التوالى لذائذَ نشوات الظفر في ميدان

الخير والجمال والصحيح... ومن المهم هنا أيضا، كيفية التفسير والتعقل لـ"تصور" الأخلاق والإيمان والفن ومفهوم الجمال. إن حصر الأخلاق في تطبيق بعضِ قواعدَ صارمةٍ.. وفهمَ الإيمان على أنه تصديقٌ أعمى لا يحسب حساباً للعقل والمشاهدة والحس والوجدان.. وتفسيرَ الجمال بأنه التقاط لمحة من منظر الأشياء وصبُّها في لوحات عارية وتماثيل جامدة.. وحبسَ الفن في أطر محددة كالشعر والموسيقى والمسرح.. كل ذلك لا يعني إلا حبس الجمال وثقافةِ الجمال في مساحة ضيقة وجعْلَها ضحلة وترفا لبعضهم.

إن انبعاثنا مجدداً بثقافتنا الذاتية يتطلب رجالَ قلوبٍ متحفزين بالإيمان، ومهندسي فكرٍ سائحين في الغد بأفقهم الفكري، وعباقرةً يحتضنون الوجود والأحداث بتصوراتهم الفنية، ويتعرفون بتحسساتهم وتفحصاتهم الدقيقة على آفاق جديدة أبعدَ من الآفاق التي نحن فيها.

إن انفتاح العديد من عشاق الجمال نحو آفاق جمالية جديدة وتفسيراتِهم الجديدةَ لها.. والهممَ العالية التي تستحق التقدير للفنانين المهرة في الفنون وتلاميذِهم المجدين.. وألحانَ ذوي الأصوات الذين يبذلون قصارى جهودهم لترجع موسيقانا إلى روحها الأصلية، ومخزونَهم الثري.. والجهود التي يبذلها الشعراء الفطاحل والناثرون عشاق اللسان في سبيل تخطي مرحلة التقليد حيث بدؤوا يتشممون الذوق الأدبي.. كل ذلك تبدو لنا وكأنها أمارات بزوغ فجر صادق في طريق عودتنا إلى الذات. فإن يكن شعاعاتِ فجرٍ كاذبٍ، فلا ريب أن ما يعقبه هو الفجرُ الصادق!

فإذا سرنا على هذا الخط فلسوف تكون ثقافتنا الرصينة، وجذورُنا المعنوية والروحية، وشخصيتنا ومحتوانا، جزءاً لا يُستغنى عنه من الثقافة

العالمية حينما يأتي الوقت المناسب. أما إذا بقينا على تخبطنا الذي عرفناه أمس واليومَ في التزود والتغذي من مصادرِ ثقافةِ الآخرين، وانغرزنا في التقليد كلما فكرنا في الإنشاء، فلن تنجو الأمة من ذلة التبعية، ولن نتحرر من الوصاية في الشعر والموسيقى والرسم وفروع الفنون الأخرى، ولن نتمكن من إدامة وجودنا بذاتيتنا الخاصة، ولن نفلح في الوصول إلى درجة الإنتاج والعطاء.

نعم، إن لم نبدأ من فورنا بشحن أجيالنا الناشئة بشعائرِ ثقافتنا الذاتية، ولم نبادر بإحياء ما شحنَّاه في النفوس، فسوف نَحكم على الآتين مِن بعدنا بأن يكابدوا حظنا العاثر في الحياة. فينبغي أن يُستنفَر كلُّ مَن له قول في الموضوع، ومهندسو عالمنا الفكري خاصة، بروحية النفير العام إزاء خَطب داهِمٍ، ويحوِّلوا البلاد من أدناها إلى أقصاها إلى مشاغل لثقافتنا الذاتية، ومدارسَ لفلسفة حياتنا الذاتية، ومختبراتِ تركيبٍ وتحليل لمنطقنا ومحاكمتنا العقلية الذاتيتين؛ فإن بقاءنا بذاتيتنا يمر عبر انبعاثنا بذاتيتنا.

رسالة الإحياء



لم نعرف حتى اليوم أيديولوجية نجحت في جمع البشر في ظلها زمنا طويلاً، بل ولا أيديولوجية اكتَشفت كلَّ الضرورات اللازمة التي يتطلبها جمع البشر تحت سقف واحد. ومع الادعاءات الباهرة، لم تستطع الدولُ الغربية التي هيمنت على قسم واسع من الأرض في التاريخ القريب أن تُحقق الأمان والحبور الدائم للعالم، ولا الشعوبُ الاشتراكية والشيوعية في الشرق، ولا "المحايدون" الذين يستوي وجودهم وعدم وجودهم، والذين عَبَّر عنهم "جميل مَريج" بـ"رجال الأعراف".

إن هذا الإخفاق في تحقيق الوعود زعزع أركان الثقة لدى الذين هم في موقع المتلقي، بالإضافة إلى أنَّ عَجْز الحلول المطروحة عن البلوغ إلى مستوى العالمية، وقصورَها عن احتضان البشرية كلها، ومخالفتَها للطبيعة الإنسانية، قد أوقع الجميع في أزمةِ انعدامِ الثقة، بل في الريبة والشك في وعودِ كل من يعد! فلذلك تقف الإنسانية اليوم مع كل نظامٍ يُعرض عليها موقفَ الشك والقلق والاستهزاء.. لأنها باتت تعتقد أنَّ الأنظمة التي فُرضت عليها حتى اليوم لم تَعمل كما ينبغي، بل عجزت عن العمل، وبالتالي هناك خلل في الأنظمة كلها!. وهذا يَقتلع بعض المحاسن التي غرستها تلك الأنظمة، فلا يُبقيها في ذاكرة البشر إلا خيالاً بائساً ورؤى خائبة.

وكما أنَّ نقص قطعة صغيرة في نظام ميكانيكي متكاملٍ، يعطل عملَ النظام ويحوِّله إلى ركام، فكذلك هذه الأيديولوجيات؛ برزت إلى الميدان بادعاءات مبهرة، لكنها كانت عليلة بعلل وبيلة؛ مثل التصادم مع الطبيعة البشرية، والعجزِ عن احتضان الفئات كلها، والقصورِ في إنجاز وعودها، والضعفِ في الاستجابة للحاجات الإنسانية؛ والأنكأ إغفالُها مجموعة من القيم الإنسانية، بل تأجيج بعضِها مشاعرَ الحقد والبغض والغيظ بين البشر... فذلك كلُّه قوَّض أركانَ الأيديولوجيات كلها فخلفتْ خرائبَ وأنقاضا فكرية، أو قُلْ: هكذا حَدْسُ المجتمعات وظنُّها. ولذلك يمكن القول بأن الجميع اليومَ -إلا شرذمة قليلة- في حالةِ تزعزُعٍ وخيبةِ أمل وترقبٍ مريب وبحثٍ عن مَخرج خارق للأسباب.

بناء على ذلك، فإن أمتنا أولا وبالذات، ثم الإنسانية جمعاء، بحاجة ماسة إلى فكر سام يقوي إراداتنا، ويشحذ هممنا، وينوّر أعيننا، ويبعث الأمل في قلوبنا، ولا يعرِّضنا للخيبة مرة أخرى. أجل، نحن بحاجة شديدة إلى أفكار وغايات وأهداف سامية، ليس فيها فجوات عقلية أو منطقية أو عاطفية، وتكون منغلقة تجاه السلبيات التي ذكرناها آنفاً، وصالحةً للتطبيق كلما سمحت الظروف. إننا نشهد مرحلة يتغير فيها مركز العوالم الفكرية في الأرض، وبدأ الناس يتوجهون بشكل أساسي ودائمي إلى الأفكار بدلا من الأشخاص، واضطر البشر بعد التجارب الفاشلة إلى المبالغة في التمحيص. فإن وُفِّقْنا في استثمار هذا الوضع العام بإستراتيجيات متماسكة ومنسجمة، ونظَّمنا التحفز المعنوي الموجود في المجتمع والنشاطَ الفعال المتراكم فيه منذ عصور، حول هدف سامٍ، فلسوف يجتمع الجمهور الأعظم من الإنسانية -ولو بنسبة معينة- حول هذا المركز الجاذب، إن لمَ يكن من يومه، ففي القابل القريب.

لكن ينبغي بادئ ذي بدء تعيينُ ذلك الهدف السامي. فلقد تعرضت أمم عديدة في الماضي، كما تتعرض في الحاضر، لهزات شديدة مع كونها تملك سياسات، ولكنها فشلت في ربط تلك السياسات بهدف سام وسليم، وقَصُرَ باعُها في النفوذ إلى قلوب البشر. صحيح أن هذه الحال أشد ظهوراً في البلدان التي لم تستقر فيها الحضارة والديمقراطية استقراراً كاملاً؛ لكن الأمم التي ادعت لنفسها أستاذية العالم في الحضارة والديمقراطية، ليست أحسن حالاً في هذا الأمر؛ فمهما كان بهرج ظواهرها، ومهما زعمت دعاياتها، فإن عديداً من الدول التي تبدو عظيمة بترفها وبذخها وأبهتها، إنما تُلهي في الواقع حشودَ الغافلين بالخدع الوقتية لحركتها في فلك النفعية، و تتباكَمُ إذ تدعو الحاجةُ للحديث عن الغد، بدلا من بث الأمل في مستقبل مشرق مغبوط أو حياة راقية... والأنكأ للجرح أنها تتمادى في تجويع القلب والروح والوجدان.

فالواجب علينا الآن -مع وضع كل هذه السلبيات نصب أعيننا- أن نضع أمامنا أهدافا سامية نتخذ في سبيل تحقيقها قيَمَنا الذاتية أسسا لصياغة سياسات ومشاريع مستقبلية، حتى يتحققَ الاستقرار في سياساتنا... وإذ يتحقق ذلك، نتمكن من استخدام هاتين القوتين في الاتجاه عينه، من غير السماح للصِّدام بينهما. ونقول: "من غير الصدام بينهما"، لِعِلْمِنا بأن أيَّ نشاط أو حركة معينة، مهما تمثلت بمشاعر مخلصة، قد لا تكون بنَّاءة دائماً. إن النية الخالصة جديرة بالتقدير باعتبارها بُعداً معنويا في الأعمال الصائبة؛ لكن لا تحمل المعنى نفسَه البتة إذا كانت وصفاً من أوصاف العمل الخاطئ. إن أية حركة من الحركات قد تكون بنَّاءة أو هدَّامة حسب طريقة عرضها وأسلوب طرحها. وإذ يفيد العقلُ والمنطق والمشاعر قيمةً

في أي مخطط أو مشروع، فإنه من المهم جداً وجودُ تمثل سليم ومتين له، إلى جانب انعدام الثغرات العاطفية. وأحيانا قد تُبيد الأعمال بعضُها بعضاً بـ"التعارض" و"التساقط" وإن كان كل عمل من هذه الأعمال بمفرده خيراً وصالحاً؛ فعندما يحاول أفرادُ النمل أن تنقل مادة إلى خليتها، فتتشوش بموجات الحس المؤقت أو باختلاف الأهداف في برنامجها الانسياقي المشترك، يَسحَبُ بعضُها المادة إلى جهة وبعضها إلى جهة أخرى. فتبدد طاقتها كلها ثم لا تتقدم إلى الهدف... كذلك المجتمعات التي لا توجد لها أهداف سامية ومُثُل عليا، أو وُجِدت ولم تَمتلك معها جاهزيةً ذهنيةً تناسبهما، فإنك تجدها تتحرك باستمرار، لكنها لا تقطع شوطا، لأن قطع الأشواط يتطلب -منذ البداية- تعيينَ هدف سام يوقره الوجدان ويُرغِّب فيه الانسياقَ الداخلي في نشوة كنشوة العبادة، ثم تفعيلَ منظومة سليمة حسب معطيات الظروف والبيئة العامة، ثم توجيهَ مختلف دورات الطاقات إلى نقطة واحدة معينة، ويعني ذلك تسخير التراكم العلمي والتجريبي والطاقةِ الكامنة لأمرِ ذلك الهدف السامي والغاية المنشودة.

لقد تكاتفت المساعي الفردية كلها إبان الكفاح الوطني (حرب الاستقلال) في اتجاه تحقيق "تركيا المستقلة". فهذا الهدف كان بسيطا جدا، ولكنه استطاع أن يحوز على الاحترام من كل الفئات، فيستحوذَ على العقل والمنطق والعواطف، ويكثِّفَ الحركاتِ كلَّها في نقطة واحدة. فكانت هذه القوة -في إطار الشروط العادية والأخذِ بالأسباب- كافيةً لتحقيق الهدف المنشود. غير أن كل نصرٍ وظفرٍ يستجلب الفتور والزهو. لذلك، مِن الصعوبة بمكانٍ الحفاظُ على نقاء لون الفكرة من التغير، وإدامةُ وجودها بحيويتها التامة. ونترك تقويم مدى نجاحنا في هذا الأمر

للتاريخ... ونقول: إنه لا مفر للمجتمع الذي يعيش مشاعر الظفر والنصر وينتشي بهما، من ارتخاء التحفز المعنوي ومن التورط في دوائر الحلقات المفرَغة للفتور، ما لم يستمر إمدادُه بغذاء الأسباب الجديدة المحفِّزة نحو الأهداف والغايات السامية. وقد لا نُصيبُ إذا حصرنا أسباب ارتخاء هذا التحفز، في الفتور المصاحب للانتصارات، أو نشوة النصر، أو الانقباض واللامبالاة اللذَين قد يعتريان طبع الإنسان، فهناك أمور أخرى تولِّد شروخاً واسعة في حياتنا الفكرية وفي حركياتنا؛ مثل تصرفات الزعماء والمرشدين التي لا توحي بالثقة فتُوجِد التذبذبَ والشك، أو مثل ضعفِ قدراتهم وأهليتهم، أو ضيق أفق المثقفين أحيانا إلى درجة العجز عن رؤية مَواطئِ أقدامهم، بله إبصارَهم لمواقع نقل الأمة إلى آفاق جديدة، أو ضعفِنا كأمة عن الإحاطة بواقع حالنا، أو نقصِ التحفيز فينا، أو تقديم التفكير الميكافيلي النفعي على القيم الدينية وقيم الأمة...

ونحن الآن في مواجهة سلسلة من الأزمات المختلفة الناشئة من بيئة مفعمة بكل هذه المحاذير. وحالُنا يوحي بإمكان انفلات الذات وإرسالها، والوقوعِ في تبعثرٍ وتشتت يؤدي بنا إلى الانحلال والذوبان. ولا شك أن هذا يثير شهية العدو، ويخذل الصديق. بل الأدهى والأمرّ هو احتمال أن نُصرَع ونسقط -حفظنا الله تعالى- إذا تكاسلنا في سد هذا الكم من الثغرات العقلية والمنطقية والعاطفية المفتوحة في حياة الأمة. وحتى نجنِّب أمتنا من الفظائع والفواجع التي لا مفر منها في حال سقوطنا، فمن الضروري والمحتَّم أن ننسلخ ونتزحزح تماماً عن التيه في انعدام الهدف، وقابلية الانصياع للاستعمار والاستغلال، ونفسية العيش تحت الوصاية، وهي الحالات الملازمة لدول العالم الثالث... وعلينا أن نتشبث بالسعي

مستعينين بالله تعالى، ونستهدي التوفيق الإلهي في وحدة الأمة وتَوافُقها، ثم نركِّز على كينونتنا الذاتية ونتعقب أهدافنا وغاياتنا السامية.

ومن الظاهر عيانا وبيانا، أننا لن نتغلب بمشاريعَ سبق أن تعودناها، على كل هذه السلبيات في مرحلة عاصفة تُواجهنا فيها مهاوٍ سحيقة متشابكة، وجسور منهدَّة وطرق متوعرة، وبأمة مرهَقة بمحن متنوعة لم نشهدها في تاريخنا إلا قليلا. إن مثل هذه الأحوال غير الاعتيادية، تستدعي هِمماً وجهودا تتجاوز الهمة والحمية الإنسانية، وطاقةً تعلو فوق ما هو المعتاد. وبالتالي قد تكون هذه الأحوال المدلهمة أحيانا ميلاداً تاريخيا للأمم، بمخططاتها، ومشاريعها، وإستراتيجياتها، وعقولها النابغة التي تنتج هذه المطلوبات، وممثليها الأبطال الذين جَلُّوا عن أن يعيشوا لأنفسهم بل نذروا حياتهم لإحياء غيرهم.

ولذلك، نؤمن -في هذا الوقت الذي نرجو ونأمل فيه أن نكون أمة عظيمة- بضرورةِ وضعِ مناهجَ ومشاريعَ مصوغةٍ بعقلية محترفة ومتخصصة، بل -قبل ذلك- بضرورة إعدادِ أجيال مثالية مستهدِفةٍ إنشاءَ أمة عظيمة. إنَّ تحقيق هذا الفكر بدرجة معينة، وإنْ كان في دائرة صغيرة، وظهورَ نماذجه في آلاف الأبطال الذين تركوا دُورهم وأوطانهم مهاجرين إلى أرجاء الأرض المختلفة، بروح الكفاح الوطني (حرب الاستقلال)، وسعيَهم في زرعِ فسائلِ "روح الأمة" في كل مكان، ووضْعَهم اللبنات الأولى لثغور حُلم المستقبل الكبير في جهات الأرض المختلفة، وعَرْضَهم لعالمهم الروحي والمعنوي حيثما حلُّوا، وكدَّهم مِن أجْل إبراز موقع أمتنا الموروثِ من أعماق التاريخ لِتملأَ مَقعدها الشاغرَ اللائق بها في التوازن الدولي، ونجاحهم في كل ذلك بقدْر معين... لهي أمثلة شاخصة ومهمة، تُرينا ما

يمكن أن تفعله الأجيال التي تَعَلَّقَ قَلبُها بفكر سامٍ إلى حد العشق.

وإن هذه الكوادر "المحتسبة" التي قد تجوع أحيانا وتعطش أخرى، لكنها تتدرع دوما بالإيمان والأمل والعزم، وكأنهم المعنيون بوصف محمد عاكف: "مستعينون بالله، متشبثون بالسعي، مستسلمون للحكمة الإلهية"، هؤلاء يَحُلُّون -بحَملة وانطلاقة واحدة، وبنفخة واحدة- معضلاتٍ تَعجز دولٌ كبيرة أن تَحُلها بأنشطةِ "لوبياتها" وصَرْفِها الملايينَ على إعلاناتها. فينبغي أن لا يستهان بهذا "التكوين" الباهر، ولا يعلَّل بسلسلة الصُدَف، ولا يُربطَ بمكانة الدول المهاجَر إليها. بل السر في هذه الحركة الرائعة هو توجُّه القلوب المخلصة إلى الله تعالى، ومَنُّ الله تعالى بزيادة الإحسان على هذه الأمة التي تَوارثت العزَّ من أعماق تاريخها. نعم، يناط النجاح في هذا العمل -كما في كل نجاح- بالهمة والحميَّة من الصدور النابضة بالإخلاص، وبالوفاء من الأمة، وبالتوفيق من الله تعالى.

إن الأبناء المضحين اللائقين بهذه الأمة الوفية، يهرعون أفواجا باسم وطن المستقبل الكبير، إلى الغربة والحرمان، وفي أيديهم مشاعل العلم والعرفان، كالذين كانوا يتَحَدَّون اليأس والعجز في أشد محن التاريخ، وكالحملات الباهرة المتدفقة في انبعاث فجائي، والمترعرعة بجلوات الغنى والوجود على الرغم من الفقر والعدم، وكالجيوش المتقدمة إلى الموت في سرور وانشراح، على وقْع الأناشيد الوطنية، على رغم أنف التضييق والافتراء والاتهام مثلما يحصل اليوم. هؤلاء يؤدون منذ سنوات من غير توان أو فتور، رسالةً مهمة لحساب أمتنا وشعبنا وبلدنا، ونبعُ قوتِهم التي لا تنفد هو إيمانهم، ووقودُ مشاعلِ عشقِهم وحماسهم الذي لا يخمد هو هدفهم السامي وفكرهم وروح الأمة.

إن الذين يجهلون الأهمية الحيوية لهاتين المقومتين، ولا يعقلون القدرة التي يوجِدها الإيمانُ والأهدافُ السامية في الإنسان، فيتساءلون في شك ممزوج بالحقد والبغض أحيانا، وفي رفض غاضب متشرب بالهذيان أحيانا: "كيف يحصل كل هذا؟ ما مصلحتهم في هذا؟"... هؤلاء بقولهم هذا يفضحون أنفسهم ويُظهرون مدى حرمانهم من الأهداف والأفكار السامية.

ومن المسَلَّم به، أن الفكر والهدف السامي نشيدٌ يحرك الأجيال المثالية، و"مولِّدُ طاقةٍ" يَشحن طاقتَهم الدائمة، ومنبعٌ صافٍ يمد عشقَهم وحماسهم، ومشاعرُ فياضةٌ متدفقة تَرفع إلى السماء نداءَ مصيرهم. وبفضل هذا الفكر السامي، تصل المساعي الفردية المتوسعة باطراد والمتحولةُ إلى حركة جماعية، وإلى عمق مختلف وتدفق مختلف وإيقاع مختلف، و-بطبيعة الحال- إلى نسق مختلف، فتجدُ لتيارها مجرىً حتى وإن اضطُرَّت إلى اجتياح القمم لمواصلة المسيرة.

ففي عصورِ تخبُّطِ الإنسانيةِ في الظلمات، كان أهم مصادر القوة لتلك الثلة من المجاهدين الأوائل المنبثقةِ من صدر الصحراء هو إيمانهم واعتبارهم تفريغَ إلهاماتِ إيمانِهم الفوارةِ في قلوبهم إلى صدور الآخرين هدفا أسمى؛ فبحَملة واحدة بَدَّلوا مصيرَ الدنيا من النحس إلى السعد، وبنفخة واحدة صاروا صوتَ الأمل ونَفَسه في ثلاث قارات. وكانت المقومات عينُها وراء الأمل العثماني الكبير؛ فهي التي استنهضت عشيرةً من هضاب آسيا، ودفَعَتْهَا للسير إلى الأناضول لتُقيمَ دولةً عظمى. وأيضا هي التي كانت في عقول أبطال الكفاح الوطني (حرب الاستقلال). وكذلك جموع الهند الذين لم يكن يبدو على سيماهم أمارات الحياة في أواسط القرن العشرين، فحركهم إلى الحرية

والاستقلال حماسٌ عظيم؛ كان أساسَ قوته إيمانُ ذلك الشعب وأمله، وفكرةُ أن يَحْيَوْا ويَبقوا بذاتهم ومقوماتهم.

لكن ينبغي أن يكون الهدف السامي، الذي يُلهِب الحماسَ في صدور الناس ويدفعُهم إلى التحرك، هدفا منضبطا بضوابط معينة، ومرتبطا بنظام معين؛ فإن كنتَ مهندساً، فعليك أن تُعِدّ العدّة قبل البدء بإنشاء صرح؛ فتتفحصَ متانةَ عناصرِه وسلامتَها، وانسجامَ آحادها فيما بينها ومشاركتَها في جمال ذلك الصرح ومظهره. وهل يتحقق الكمال من غير توافر التوافق والمواءمة والانسجام في الأجزاء كلها!؟ إنَّ الهمم والمبادرات الفردية، إنْ لم تنضبط بالتحرك الجماعي ولم تنظَّم تنظيماً حسنا، فستؤدي إلى تَصادُم بين الأفراد لا محالة... وبالتالي سيَختل النظامُ، وتَنهضُ كل حملة في عكسِ اتجاهِ حركةٍ أخرى، وتُنقِص كلُّ عملية من قيمة الناتج حتى يقرب من الصفر، كما في حاصل الضرب لكسور الأرقام ببعضها في الحساب. وكما أشرنا سابقا، ينبغي أن لا تُطفأ جذوةُ الطاقات الفردية بتاتا، باحتساب ضرر قد تسببه. بل على العكس؛ تجب العناية الرفيعة حتى لا تُهدَر ذرةٌ واحدة من تلك الطاقة، وتُوجَّهَ نحو تحقيق الهدف المنشود الذي تم تعيينه سابقا، ويزاح خُلُق المصادَمة في النفوس، ويستبدل بروح التوافق، بل يُطَبّعَ كل إنسان بهذا الطبع مهما أمكن.

وقد لا نجانب الصوابَ إن قلنا: إن الأديان كلها جاءت لترسيخ هذا الفهم خاصة، ضمن أبعاد تبليغاتها الشاسعة؛ فقد وَضع كلُّ دين ضوابطَ لتنظيم القدرات الفردية، فحَوَّلَتْها إلى مقومات مهمة في توجيه كل الطاقة الكامنة الموجودة نحو المسير إلى حضارة جديدة وعمران جديد. فبإرشاد الدين يوازِن كل فرد حريتَه وفعالياته الشخصية، مع حركة

المجتمع وفعالياته؛ فيتصرف حراً موفياً إرادتَه حقَّها من جهة، ومحافظاً على تكامل الحركة مع الآخرين من جهة أخرى، فينجح في تحقيق الأمرين معاً. كالنجم التابع في موقعه، يدور في فلكه حول مركز الجذب، وحول نفسه في الوقت عينه. ولا يغترنَّ أحد بحيوية الحركات ونشاطها كلٍّ على حدة مهما بلغت، إن لم ترتبط أجزاءُ التكامل والتوازن بمنظومة أقوى وأمتن؛ فربما لا يُسنِد بعضها بعضاً في خط المقصود العام، فتولد أحياناً نتائج أشد سوءاً من السكون والجمود. خلاصة القول: إن السكون والجمود، وكذلك الفوضى في الحركة، كلاهما موت. والمحتوم على الأمم التي تضعضعت نفوسُ أفرادها بمثل هذا الموت أن تُغلَب وتُطرَد إلى خارج مسرح التاريخ.

ومن دوافع الميل إلى التحرك الفردي في الإنسان؛ الأنانيةُ، وثقةُ الإنسان بنفسه، وقصورُ فهمه لحدود قدرته، وقصورُ إدراكه لمدى تأثير روح التوحد والتجمعِ والفعالياتِ المشتركة والوفاقِ والاتفاق في جلب العناية الإلهية. وكذلك، قد تتسبب الشهرةُ والمنصب والطموحاتُ الشخصية والنوازع الأخرى في تقدُّم الملاحظاتِ والنوازع الفردية إلى الصف الأمامي. وقد يَظهر بمثل هذه الملاحظات والنوازع منحوسون نسوا أهدافهم وبيئتهم تماماً، وخنعوا لمطالب الأكل والشرب والنوم وطرحِ الفضلات، بعدما كانوا في صفوف "الخدمة - الدعوة" يهتفون بأناشيد الخدمة ويبذلون قصارى جهدهم طلباً لتحقيق مرضاة الله تعالى. إن من ينسى المقصود ويُضيّع الغاية المنشودة سيسقط -بالضرورة، كائنا من كان- في شباك الأنانية، وتحل رغباته الجسمانية محل عشق "الخدمة - الخدمة"، وتنطفئ عنده مشاعرُ "العيش من أجل الآخرين".

من هذه الزاوية، يمكن القول بأن قضيتنا الكبرى التي تفوق كل القضايا هي إلهاب جمرة "الرغبة في إحياء الآخرين" في أرواحِ أفرادِ الأمة مرة أخرى، وتنقيةُ الأفكار الغريبة المندسة والحائلةِ بين "الأمة" وأهدافِها السامية.. ومِن بعده، تحريكُ طاقتها التي تبدو خامدة، وحثُّها بتحفيز جيد وبأنشطةٍ وفعالياتٍ منضبطة ومنظمةٍ، على السير نحو هدفها التاريخي كرة أخرى. ومن الضروري لمثل هذه الحركة تحديدُ معالمِ المساحات المشتركة التي ستُشَكِّل المحورَ لحركة المجتمع المشتركةِ بكل شرائحه من بدو وحضر، ومثقفين وحرفيين، ومعلمين وطلبة، وخطباء ومستمعين... ونعني بالمساحات أو القواسم المشتركة أمورا مثل السعي لجعل أمتنا عنصراً مهما في التوازن الدولي... والعزم والإصرار من كل فرد على أداء هذه الرسالة بلا فتور مهما كان ثمن التضحيات... والتركيز على أولوية الفكر، وموازنته مع مشاعر روح الأمة، ومن ثم منعِ حصول الثغرات العقلية والمنطقية والعاطفية أثناء التحرك الجماعي... واحتساب عشق الحقيقة، والتوق للعلم والبحث وسائلَ للارتقاء العَمودي نحو الله تعالى، وتغذية المجتمع بهذه المفاهيم دائماً.

ومن هذا المنطلق، نحن نؤمن بأن الأشخاص الذين يتقاسمون هذه الأهداف والغايات السامية سيُحافِظون على حماسهم وحيويتهم، وستُجرَى الفعالياتُ والأنشطة الجماعية بانسجام ووئام، وسيُستفاد من الوقت والإمكانات بأَجدى وسائلِ التحفيز السريعة، وستَبقى أبوابُ التجدد مفتوحة أبدا بفضل السماح للتفكير بالتوسع.

ولتحقيق هذا كله، لا حاجة إلى تلقين المسلم فهما جديداً للإسلام، ولا إلى إعادة تعليم الإسلام للمسلمين؛ وإنما المطلوب العمل على

تفهيم المسلم الأهميةَ الحيوية لما يعرفه عن الإسلام فعلاً، وقوةَ تأثيره، وديمومتَه الأبدية. لكن المؤلم حقا أن الأقوال في هذه المسألة مختلفة اختلافاً بيناً إلى درجة تحير العقول... فهوى النفس يتقدمُ العقلَ ويغتصب مقام الألوهية، والعواطف تُصدِر أحكاما من فوقِ عرش المنطق... وكما نرى هذا الانحراف لدى نفر من اللادينيين الذين احترفوا الإنكار والإلحاد والذين تعودوا مهاجمة الدين، فكذلك من الممكن أن نراه أيضا عند بعض المتعصبين المحرومين من الحياة القلبية والروحية، الذين يحسبون أنهم فقط متدينون.. هذان الصنفان قد يبدوان مختلفَين فيما بينهما حسب الظاهر، لكنهما كَفَرَسَيْ رِهَانٍ في الإضرار بالدين والأمة والوطن.

الصنفان كلاهما لا يوقر روح الدين، وكلاهما لا يتسامح في التفكير الحر، وكلاهما منغلق أمام فكرة المشاركة والتقاسم. رأسُ مالِهم الأعزُّ هو الفِرية والزور والتشويه، وأجود فنونهم هو النميمة واللمز على غير المحسوبين منهم... لا يهمهم إلامَ يلجأون، ولا على من يستندون؟ فالمهمُّ أن يبتلعوا ويأكلوا من لا يستسيغون وجوده. والحقيقة أن الفريقَين يبذلان في هذه المسألة جهدا عظيما وحثيثا أظن أنهم لو صرفوه فيما يليق، لَعمَّروا الأرض كلها.

وبدهي أنه في هذه الأجواء المظلمة الخانقة، وفي ميدان الذين لا يفكرون ولا يبصرون ولا يعلمون، لن توجَد الحياةُ الفكرية والعشق إلى الحقيقة والتحري في سبيل العلم والبحث... وإن وُجدت، فلن تنمو وتتطور... وإن نمت وتطورت، فلن تغادِر عالمَ الأحلام والفانتازيا. وإنّ حالنا المنكسرَ البائس شاهدٌ على ما نقول ليس بلسان واحد بل بألف لسان.

لكن الحال يقتضي في الواقع أن تكون عقليةُ أمتنا عقليةَ إعمارٍ

وإنشاء، وأن ننجو من هذه الحالة التي نتخبط فيها والتي نعاني فيها من فقر التفكير وغياب الأهداف. ونحن اليوم بحاجة ماسة -قبل كل شيء- إلى هدف سام بعيد المرام، هو انبعاثنا برؤيتنا الحضارية وبثقافتنا الذاتية. ولكي ترتقي أمتنا -كصرح سامق- على أركان القيم التاريخية وقواعدها لابد لها أن تزيد من الصبر على الأوجاع والعذاب وتباطُؤِ الزمان الذي قد يوصل الإنسان إلى حد الجنون. إنَّ مراعاة سيرِ تطورِ الأحداث ضمن طبائعها منوطةٌ بسعة المعرفة بهذه الطبيعة. القرآن الكريم يخاطب سيدنا ﷺ فيقول: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلكِنْ بَعُدتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾(التوبة:٤٢)، فيُسَرِّي عنه ﷺ ويُوبِّخ المتخلفين المتهاوين في الطريق.

وحسب المنظور الإسلامي، يُعَدُّ المقصود حاصلاً بنوال الهدف البدهي لكل حركة أو انطلاقة، وهو رضى الله تعالى. فسواء بعد ذلك إن تحققت نتيجةُ الخدمات المقدَّمة باسم أمتنا بارتقائها إلى المكان اللائق بها في التوازن الدولي، أو لم تتحقق؛ فإن المؤمن يسعى لنوال رضاه تعالى في كل خدمة إيمانية وكل فعالية دعوية. فبهذه النظرة يتحول غيرها من الأهداف إلى أهداف إضافية واعتبارية ومجردِ وسائلَ تؤدي إلى الهدف الحقيقي.

الطابع الأساسي للتصور الإسلامي



إن جذور الإسلام لانهائيةٌ فوق الزمان والمكان، والمخاطَبُ في الإسلام هو قلب الإنسان الذي يسع ويستوعب السماوات والأرض بسعته المعنوية، وهدفُه السعادة الدنيوية والأخروية

الإسلام، اسم الصراط المستقيم الممتدِ من الأزل إلى الأبد، وعنوانُ النظام السماوي المنزَّلِ لتحقيق رغبة "الخلود" في كل شخص، ولِفتحِ مغاليق القلوب جميعاً؛ ابتداءً من قلبِ أشرف البشر في الأرض ﷺ، وانتهاء بقلب البشرية.

منذ أن نصب الإسلام سرادقه في الأرض وظّف طاقاته كلها في مخاطبة القلوب وفتحِها، واستطاع أن يرسم صورتَه في كل وجدان، ثم توجه نحو وحدات الحياة كلها.. فثَمَّ تناسب دائم بين تعمقه في الصدور وتأثيره في مفاصل الحياة؛ فبقدر عمق تغلغله في الأرواح وتجذُّره فيها، يتدفق فيضُ تأثيره في حياتنا وتزداد انعكاساته فيما حولنا.

بل نستطيع القول بأن ما نلاحظه في محيطنا من الشوق والرغبة والتلقي بالقبول نحو الإسلام إنما تتحقق متناسبةً طرديا مع عمق هذه الصورة الداخلية المشرقة ومدى سعة إحاطتها، وهذا يعني أنه كلما كان هذا القبول المسبق ضاربا في أغوار أعماق الإنسان، يقوَى تأثيره في محيطه. وفي ضوء ما يمليه هذا الإذعان الداخلي يأخذ المجتمع وِجهته

في مسيرة حياته الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والإدارية والثقافية.

نعم، إن المجتمع -من كل الوجوه- يحمل في ملامحه خطوطاً مهمة من هذا الوازع الداخلي، وينعكس الفن والأدب إلى الخارج حاملَين ألوان هذا المحتوى الداخلي ونقوشه، ويُسمَع ويُستشعَر في كل مكان بين سطور الوجود والأشياء صوتُ هذا المحتوى الداخلي ونَفَسُه وأداؤه، ويشجي كل شيء مرئي أو خافٍ أسماعَنا بأنغام رائعة يلحنها لسان هذا المحتوى الداخلي الصامت بلا صوت ولا كلام.

ومن هذا السر فإن أصحاب القلوب التي فُتحت بالإيمان ما يلفظون من قول إلا وتُسمَع منهم نغمات من الوجود السرمدي.. وهؤلاء كلما يلقون نظرة إلى ما حولهم يحسبون أنفسهم في ممرات زمردية تؤدي بهم إلى سفوح الجنة، وهم بذلك يمزجون وعثاء السفر بالسعادة التي سيَلقونها في نهاية المطاف.. ففي كل مظانِّ التأففِ تراهم يسيحون قائلين: "مرحى... مرحى".

إن الكلمة المفتاحية لفتح القلوب هي "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، بحيث إن كل الخصائص الإيمانية -حسب الإسلام- تتأسس على هاتين الجملتين الوجيزتين اللتين هما تعبير عن حقيقة لها وجهان؛ أحدهما: غاية، والآخر: وسيلة. فالإيمان الذي هو كـ"شجرة طوبى"، تنشأ من هذه البذرة، فتغطي -بما تؤتي من ثمار المعرفة- سماءَ أحاسيسِ الإنسان وشعوره وإدراكه، ثم تتحول العلوم والمعارف كلها إلى العشق والاشتياق والحرصِ بحَملةٍ وهِمَّة داخلية وشعورٍ وحسٍ داخليّ، ليحاصر ذاك الإنسانَ من كل جهة، فيحوِّله إلى إنسان جديد قائمٍ على محور الوجدان... فتنعكس هذه الحالُ على كل سلوكيات هذا الإنسان العاشق

المشتاق. وتَحمل عبادتُه وطاعتُه سماتٍ ترتسم بخطوط هذه العلاقة والرابطة، وذلك العشقِ والاشتياق، وتصير مناسباتُه البشرية انعكاساتٍ لهذه اللدنية... وتتمحور حركاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية كلها، حول قوة الجذب المركزي هذه... فتتشكل فعالياتُه الفنية وأنشطته الثقافية بهذه المقومات الداخلية، وتتوسع بها، وتَبْرُز بألوان القلب وأدائه الجميل تماماً. وإذا كان الحاصل الظاهر أثرا فنياً أو كتاباً أو رسماً أو شعراً أو لحناً، فإنه يهتف بمشاعرِ وأحاسيسِ القلب المتغذي بهذا الأنموذج والجوهر الداخلي... فيهتف معبِّراً عن الهيجان أو الخفقان المرتشف من واردات القلب لصاحب الأثر، وعن عشقه، ووصاله أو هجرانه. وكذلك الحال حال الروح المشبع بالإيمان والمعرفة والمحبة والأذواق الروحانية، إذ تُبدي رسمَها الداخلي على الفن والثقافة والأنشطة الأخرى، وتهتف بمعاني (الإنسان - الكون - الله)، المتحولة في أعماق الروح إلى "خُلاصات" أو "عُصارات" رائقة وتسعى دوماً إلى "نَظْم" المعاني الغائصة في بواطنها العميقة.

قد لا يكون الإنسان في كل أحواله قاصداً هذا القصدَ أو متحريا هذا الأمرَ، إلا أن المنهجية الإيمانية في قلبه تَقُود كل تصرفاته -بإرادته أو من غير إرادته- إلى هدف معين. وبطبيعة الحال ستنعكس ألوان "حركيته" الداخلية وأداؤها على نوع حياته وأسلوبه وشخصيته ومناسباته الاجتماعية... وكذلك تَبرز تلك اللهجةُ والأداء والأسلوب في أعماله الفنية وأنشطته الثقافية، لأن موقع الإنسان في الوجود، وغايةَ خلقه، ومقصودَ فعالياته، وتداعياتِ الفكر عن هذه الغاية وذلك المقصودِ، ووظيفته ومسؤولياته، ستحيط -مع الزمان- بكيانه وتحاصره، وتُوجِّهه في

كل ساعة نحو التميُّز والفائقية إزاء ذلك الموجود المتعالي والأعلى بأشدّ المشاعر حيويةً وتأثيراً.

هذا الفكر الأول الموجِّه سيتمادى في تأثيره على أنشطته الذهنية والفكرية والعلمية... وبعد مدةٍ، سيُحقق حصولَ "طبيعة ثانية" فيه. هذه الطبيعة ستبدي تأثيرها من الأعماق رويدا رويدا في كل صفحات حياته: معتقداته وعباداته، وأخلاقه وعلاقاته الاجتماعية، وارتباطه بربه وسلوكياته. والحقيقة أن الإنسان يرسم حدود عالمه الحقيقي الذاتي بمقدار ما ينمِّي هذه الموهبةَ الأولى الموجِّهة.

وإن هذا الذي تَوجَّه وطَمَح إلى ذرى الحياة القلبية والروحية لهو على بصيرة من أمره؛ لذا فهو يعرف كيف يفكر ويتحرك ويعمل، ومن أين يبدأ... فهو حساس في العبادات، ولديه استشعار عظيم بالأخلاق، وهو منفتح على المراقبة ومحاسبة النفس، ومنهمك في الشعور بالرهبة من الذنوب في مراقبة دائمة.

فمن استقر وتوطد شعوره وتفكيره بهذا القدر، فستكون الحياة بكل وحداتها بالنسبة له كأنها شلال وَجَدَ مجراه، ينحدر هدارا أبداً ليَبلغ البحرَ المحيط، وهو في هذا الشلال يعيش نشوة العشق والوصال أبداً. الإيمان -بمقدار انكشافه وعمقه- مولِّد الطاقة (الدِّينامو) الأساسُ لهذا الإنسان الحركي، والعبادةُ سندُه ومحرِّكُه الواقي، والأخلاق ومجموعُ العلاقات الإنسانية علامتُه الفارقة وفيصلُه المميِّز. والثقافة غدت سجيةً من سجاياه. والفن بدا انعكاسا لاستطلاعه وتفحُّصه وحدسه الداخلي ومشاهداته الباطنة.

وأستطرد لأذكر موضوعا ليس مكانه هنا... لكن أقول عن الفن الإسلامي: إنه يحتوي آفاقا واسعةً خصوصيةً بتحرِّيه "التنوعَ في فَلَك

التجريد". فهو إذ يؤكد على التوحيد، يتخذ موقفاً بيناً وواضحا ضد التشبيه والتجسيم.. وبحكمةِ "إبقاء باب التأويل مفتوحاً أبدا"، يريد أن يُرِيَ بحراً في قطرة، ويصورَ شمساً في ذرة، ويشرحَ كتاباً في كلمة واحدة. أما الثقافة الإسلامية المتشكلة بتأثير هذا المحرك الرئيسِ وهذه المقوماتِ الأساسيةِ -ولا ننبش الآن عن مقولةِ أن الثقافة ميراث الإنسانية عموماً-، فهي منفتحة على كل الأنشطة الفكرية والذهنية المرتبطةِ بواقع الإنسان، وخلاصةٌ وعصارةٌ للخلطة المشتركة لتلك الأنشطة. ونحن نستشعرها بكل شيء يخصنا بأمسنا ويومنا، وبكامل حيويته، فنعيشه، ونطوره، ثم نُودِعه أمانةً لدى الوجدان الاجتماعي، العارفِ المتأهل لما يُقدَّر ويوقَّر.

لذلك، فإن الواجب علينا اليوم هو أن نكافح من أجْل الحفاظ على ذاتيتنا بالارتباط بمنظومتنا العقدية والفكرية، والتوجهِ نحو ثقافتنا ونتاجها.. وأن نقوم بتحقيق ألوان جديدة من الفكر والعرفان -إذا اقتضى الأمر- فوق نسيجِ أطلسنا الفكري.

نعم، ينبغي أن نبذل قصارى جهدنا للالتزام بمصادرنا الذاتية أبداً، وأن نحصر الذهن في بلوغ البحر بمجرانا الذاتي، ونحرص على التطلع إلى الوجود من تحت قبة سمائنا، وقراءته ككتاب، وتفسيرِه إذ نقرؤه، واستنباطِ أفكار جديدة منه.

ومعلوم أن الإسلام منفتح على اقتباسِ ما يمكن اقتباسه من قيم الأمم الأخرى؛ فالإسلام يبحث عن كل فائدة ومصلحة حتى وإن كانت في أقصى بقاع الأرض ويطلبها أنَّى يجدها. وكما اقتَبس في الماضي من علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك والهندسة والطب والزراعة والصناعة والتقنيات الأخرى أينما وجدها، ثم قوَّمها وطوَّرها وأودعها

أمانة للأجيال الآتية، فكذلك اليوم أيضا يأخذ كل ما يمكن أخذه أينما وجده، وينميه ويطوره ويُودِعه أمانة للوارثين الجدد.

وكون الإنسان خليفة الله في الأرض يستوجب على المسلم أن يكون عاشقا للحقيقة وحريصا على العلم والتحري وشغوفا بالبحث واكتسابِ المهارة في كل مجال. لكن ينبغي أن يتقي المؤمن ويحذر من الاتكاء على المصادر الأخرى في الأمور المتعلقة بالنُظُم العَقَدية والفكرية، والموضوعاتِ المرتبطة بالكتاب والسنة وبكل ما يتعلق بتمثُّل الرسول ﷺ، وطرائقِ التحليل والبحث في السيرة وتاريخِ الإسلام عموما، والفنِ والأدب ونحوها... ذلك، لأن الذين أقاموا بنيانهم الفكري على معاداة الإسلام، ونظروا إلى الإسلام وكأنه خارج الوحي السماوي، لا يُرجى منهم التصرفُ بحسن النية وطلبِ الخير للمسلمين وتمنِّي التقدم لهم. أما العلم والتكنولوجيا -وهما خارج إطار ما ذكرناه- فقد ظلت الأيدي تتناقلهما بين الأمم في الماضي، وستستمر المبادلة فيهما مستقبلاً، وتنتقل أمانة ووديعة في أيدي حائزيها. فالعلوم والتكنولوجيا ليست حكراً على دين أو أمة.

لذلك، تستطيع كل أمة سليمةِ المشاعر والفكر والمعتقدات، ومنتصبةٍ على ساقيها بثبات ورسوخ، أن تعتصر هذه العلوم الصِّرفة وتقطرها في روحها، فتجعلَها صوتَ قلبِها ونَفَسَه، ووسيلةً تُوصِل البشر إلى الله تعالى.

والمؤلم أن فلسفة العلم في أوروبا -وعلى نقيض المرونة في عالمنا الفكري- قد أوقعت الغربَ كله في صراع دائم بين العلم والدين لأمور وأوضاع خصوصية، فخَلَّفَ ذلك انفصاماً بين العقل والقلب. هذا هو السبب الرئيس للمعضلات المتتابعة منذ عصور في النُّظم الغربية كلها.

بل لقد تفاقمت الأزمة من مخاصمةِ جبهة العلم والفلسفة للدوغمائيات الكنسية، إلى مخاصمة "المفاهيم" الدينية كافة بمرور الزمان... فكأن العلم والفلسفة حاميةٌ ومدافِعةٌ عن الإلحاد. وقد أصاب -للأسف الشديد- الفكرَ الإسلاميَّ البريءَ شيءٌ من هذا العداء ضد الأديان كلها، إذ عُرِّض لأشنع ظلم وأبشعِ غبن، ووُضِع في قفص الاتهام مع الكنيسة التي هي المعنية في الأصل بهذه الخصومة.

انقلبت هذه الحركة المعادية لدوغمائياتِ تلك التنظيمات التي ظهرت بمظهر الدين، والمنطلقةُ في بداياتها من الحرية الفكرية والعلمية.. انقلبت بمرور الزمان إلى معاداة الله والدين والتدين، ثم إلى تحمسٍ في أرجاء العالم كله لإسكات المتدينين وإحباطهم وتضييقِ الخناق عليهم، بل إزالتِهم من الوجود تماماً. ومع أنه لم يكن للعالم الإسلامي مشكلة البتة مع العلم أو حريةِ الفكر، ولكنَّ زمراً من أعداء الدين تغاضوا عن هذه الحقيقة الفارقة واتخذوه غرضاً لمراميهم العدائية الدنيئة مساوين له بالمسيحية الكنسية.

والحال أن الإسلام كان -ولم يزل- يقدِّم للإنسانية جمعاء نظاماً للحياة جديداً وفريداً... نظاماً لا نظير له في الماضي، ويبدو رمزاً للمثالية والتفرد في الآتي. فهو قد نظَّم وينظِّمُ بأسسه حياةً جديدة لنوع البشر، ويضع تفسيراً جديداً لعوالمِ الدنيا وما بعد الدنيا، والعالمِ المادي وما وراءه، ويرتِّبُ -من جديد- الوشائجَ بين الإنسان والكائنات والباري ﷻ... يرتبها من وجهة خصوصيات الظواهر وبشكل مميز وفريد، ويقطع دابر التناقضات في "الإلهيات"، وتستجيب القيمُ التي أوجدها بإشباع كامل ومُطَمْئِن لكل متطلبات البشرية حول الموت والحياة، ويسد كل الثغرات

العقلية والمنطقية والفكرية والعاطفية في قلوب المخاطبين وعقولهم.

كان الإسلام -وما يزال- حيويا وحركيا من كل وجهة... كان يتوسع وينبسط في واقع الحياة، ولم يؤجِّل النظرَ إلى أي مشكلة واجَهَتْه. كان يدخل إلى أضيق المعابر في الحياة الفردية والعائلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، ويجول في وحدات الحياة كلها بصوت العصر الذي هو فيه، ويَلفت النظر في كل وحدة من وحداتها بصورة أشد إحكاماً من أحكم شيء واقعي.

ولم يكن الإسلام "أيديولوجية مثالية" بمعناها المعروف في الغرب، ومحال عليه أن يكون؛ لأن هذا المعنى كان شمسا خيالية بزغت في السهوب المجهولة خلف جبل "قاف".. شمسا لا ينعكس شعاعها قط على واقع دنيانا المعيش، ولا يُمْكنها الظهورُ حتى في أصغر وحدات الحياة. فهي بأضوائها الكاذبة تصطدم بالخيال وتتكسر عليه كمثالية غير واقعية، وترنو إلى الحياة وحقائقها الواقعية، من أفق بعيد كنوع من أنواع الأحلام اللذيذة(!) -ووصفُها بـ"اللذيدة" يعود لمن يتأولها-.

أما الإسلام، فقد وعد -ويعِدُ- البشرية بنظام فريد في نوعه، قابلٍ للتنفيذ في كل مجال، مالكٍ لوسائلَ تحقيقية بديلة في التنفيذ. فيجد فيه الذين يلبون نداءه نشوةَ وتلوُّنَ نظامٍ قد نما في رحم واحدة متوافقةٍ مع طباعهم وجبلتهم. فهو بسعةِ العناية بكل شيء -ابتداءً من "القبول المسبق في الوجدان" إلى المسائل الأخلاقية في المناحي النهائية للحياة، ومن أدق المسائل الفردية والعائلية إلى أعظم المعضلات الاجتماعية- يقدِّم حلولاً فريدة، ولا يخيِّب رجاءَ المنتسب إليه مهما كان ضيّقَ الصدر أو قصير الشأو. الإسلام يبدأ بالعمل في الوجدان الفردي، وإذ يستقر فيه، يطفح منه

بفائقيته الخاصة الذاتية، ويَفيض من محيطه وبيئته، ويجعل كلَّ مكانٍ حقلَ فسائل، فيصطبغ كلُّ مكان بصبغة روحه، ويبدِّل جذورُه -أينما انتشرت- لونَ الحياة وأداءها، ويُسمِع القلوبَ نداء الوجود الأبدي، وقد كان -ولا يزال- كلُّ نداء منه ترنما للسلام العالمي، وتناغماً للانسجام الاجتماعي، ونَفَساً للتسامح والحوار. أما الصلف والوحشية والحقد والبغض، فهي إما من الغثيان المنعكس من البناء الروحي لخصومه في الخارج، أومِن عسرِ هضم جَهَلة المنتسبين لتعاليمه إليه. فهو على كل حال نور وضياء ولكن حيلولة الخصوم بينه وبين القلوب أدت إلى الكسوف كما أن نشر أعدائه وجهلة منتسبيه تسببت في الخسوف.

ولو تخلى العدو قليلا عن الجفاء، وبَذَلَ الخليلُ قليلاً من الوفاء، لكان الإسلام قد محا وكنس أنواعَ الظلمات -مثل البغض والغيظ- من الأرض، كالبراكين بقوة طردها المركزي أو بحُزَم الضياء من أطياف النور، ولَجعل الأرضَ جنانَ اطمئنانٍ تمتد حافاتها حتى تصل الجنة... ففي ظله يُنسى العِراكُ والجريمة والإرهاب والاضطراب، وتُشَمُّ نسائم الحب والتوقير والانسجام والحبور في كل الأرجاء. وإن القلب الذي يتوطد فيه الإسلام، يمتلئ بالحب والاهتمام والتسامح إزاء المخلوقات إجلالا للخالق، والمصنوعاتِ إجلالا للصانع.

نعم، لن يجتمع في القلب إيمان وارتباط بالله مع الحقد والكره والغيظ. وبالأخص إذا كان القلب يحافظ على جلائه ورونقه بتجديد إيمانه وانتسابه للحق تعالى وميثاقه، ويصقل ويجَلَّى كل يوم وأسبوع وعام بشتى أنواع العبادات فلا يُحتمل مطلقاً أن يبقى ذلك القلب مفتوحا لتلقي العداوات. فإن كل تصرفاتنا الإسلامية تحفِّز فينا شعورَ التحرك المسلم، وتقودنا

إلى الحياة الإيمانية. وبتواتر انعكاس مكتسباتنا الوجدانية ووارداتنا القلبية على سلوكياتنا، يتكوَّن نسيج أخلاقنا ويتلون بأبهى الألوان. وبدوام تدفقها من تصرفاتنا تتكون مرجعياتُ ثقافتِنا، فتؤمِّن لنا البقاءَ بذاتنا وشخصيتنا. وهكذا إذا كان التكمل في الإنسان مستندا إلى ما وقر في قلبه من الإيمان بالله والاعتماد عليه والثقة به، فسيفيض ذلك على المحيط والبيئة حباً واهتماماً وإخلاصا ووداً. والفردُ المسلم بفضل هذه الجاذبية القدسية التي يحوزها يَخرج من الفردية ويكاد يكون أمة.

إن الهمم الفكرية والتخطيطية والفنية تُولَد ابتداءً في ذات الإنسان، ثم تتشكل صورُها، ثم تتوسع وتنبسط إذا وَجدت المناخَ الملائم للنمو والتطور. فكذلك أيضا العباداتُ والأخلاق والحياةُ الروحية والثقافةُ والعلاقاتُ البشرية الأخرى كافة... يُستَشعَر بها بدايةً في عمق الإنسان إيمانا وإذعاناً، ثم تنمو لتحيط بالحياة كلاً، وتسربِل بصبغتها التصرفاتِ البشريةَ كافة، فتكون مُوَجِّها أساسيا لكل همة وانطلاقةٍ وحركة وفعالية، حاضراً بنفسه وبوجوده في كل الأحوال.

يتميز الإسلام عن النُّظم الدينية والفلسفية الأخرى قاطبة، بأنه رَسَم للإنسانية صورةً فكرية وحياتية ذاتَ بُعد عالمي، لكن بسيماء خاصةٍ به في الوقت عينه... وحَمَّل المنتسبين إليه مسؤوليةَ أن يجعلوه حياة يَحْيَونها وأمرا ينفذونه. ولذلك يسعى كلُّ مسلم يَعرف هذه الحقيقةَ لكي يتصرف ضمن إطارها في أعماله وعلاقاته الفردية والعائلية والاجتماعية، ويخطط لمستقبله وفقاً لهذا الفهم، ويستجمع همته ما استطاع وسنحت له الأحوال، للإيفاء بحق هذه المسؤولية. ولا يخفى أن الأفكار والأهداف السامية تبقى أحلاما وردية رفرافة، ما لم تؤيَّد بحَمَلات وأفعال حركية

لوضعها موضع التنفيذ بقدر ما تسمح به الأحوال... فإن قصّرنا، فسوف تستمر كمّاشة الواقع الفعلي تسحقنا بين فكيها.

ومن الحق أن حقيقة الإيمان المتأصلةَ في عالمنا الداخلي، إنما تُديم وجودَها بقدْرِ تناميها وتوسعِها في الحياة المعيشة؛ فإذا بُذِرت بذور الإيمان وترعرعت واخضرّت في القلوب، ثم تحولت إلى استقامة ووثوق في التصرفات، وانقلبت إلى وقار وخشوع في الصلاة، ورَفدت وازعَ الحَقَّانية والعدل في علاقاتنا الاجتماعية، فذلك يعني أن الأفق منبسط أمامنا إلى اللانهاية للتطور والتوسع. وكما يكون إيمانٌ كهذا الإيمان في الإنسان مصدراً لا يَنفَدُ للقدرة والحيوية، كذلك يكون قاعدةً ومنصةَ انطلاق للارتقاء به باسم "خلافة الله في الأرض" إلى حق "التدخل في الأشياء"، وتشكيلِ صور البيئة المحيطة حسب مشاعره وأفكاره الإيمانية، والانفتاح على اللانهاية في محور التوحيد والتجريد بالتصورات الجمالية والروح الفنية في طبيعيتهما الذاتية. ذلك لأن الإيمان يوجِد روحاً فنية مكينة في الأرواح المنفتحة على الجمال يدعو إلى العَجب والانبهار. نعم، إن الفنان المؤمن يصل إلى الماهية المجردة في منشور الوجود اللانهائي، ويرسم ألوان الأبدية، برقوشٍ وخطوط عديدة على اللوحة بضربةِ ريشة من غير تعب أو رهق... حتى إن الناظر يحسب نفسه أمام أنموذجِ نقشٍ مصغَّر للوجود في كلِّ تأملٍ في اللوحة الفنية، فتأخذه نشوةُ مطالعةِ اللانهاية في المعطيات المحدودة، والبحرِ في القطرة، والكائناتِ في الذرة، في عالم الخطوط السحري، ضمن تصورِ ملاحظاتِ التوحيد والتجريد بلسان الفن.

ونحن لا نريد أن نفهم الفن الإسلامي بحصره في رفض موضوعات

ذاتية أو موضوعية، أو إشهارا وإبرازاً للمهارات... بل تأليفاً -من جهةٍ- بين الروح والمعنى والمحتوى فيما يشاهَد من علائقِ الوجود والحوادث فيُستشعر، وما يُتحسس منها فيفهم أو ما يُتحسس وينبغي أن يُفهم، وبين لغة القلب والشعور والحس -من جهة أخرى-... فيتمكن -من ثم- أن يرشد على الدوام إلى الموجود الذي ليس كمثله شيء بالإيماء والإيحاء من مختلف المستويات والترتيبات -ولكن بلا حيدٍ عن خطٍ مستقيم واحدٍ تشير إليه بوصلةُ القبلة-، وفي مرونة تُشعر بالحقيقة الواحدة الثابتة المطلوبِ فهمُها -ولكن ببعد جديد مختلفٍ في كل نظرة وتطلُّع-، فيُشهر الوحدة في الكثرة، والكثرةَ في الوحدة بخطوط سحرية في هذا الإطار أو فيما يتجاوز هذا الإطار.

الحاصل أن الإسلام صوتُ كتابِ الكائنات ونَفَسُه وتفسيرُه وإيضاحه، كذلك هو رسْمُ ماضي الكائنات وحاضرِها ومستقبلِها، وصورتُها وخارطتها، ومفتاحُ سرّيٌّ لأبوابها التي قد تُظَن أنها مغلقة. الإسلام "كلٌّ" يعبر عن هذه الأمور والشؤون جميعاً. "كلٌّ" يستحيل تَجَزُّؤه، ويستحيل أن يُحمَّل جزؤه القِيَمَ المحمّلةَ على الكل. فإنَّ تجزئته إلى أجزاء، ثم محاولةَ استنباطِ فهمٍ كاملٍ وتام من الأجزاء غلطٌ وخطل وإهانة لروحه. وسوف يبقى من يريد أن يفهمه أو يحصره في تفسيرِ آياتٍ وأحاديث معدودة بأسلوب وعظيّ، مهزوزَ الوجدان بأحاسيسِ نقص حقيقي، ومُعانِياً من خواء روحي دائم؛ مهما كدَّ وسعَى لسماع مجموعة الأنغام الرائعة هذه.

الإسلام إيمان، وعبادة، وأخلاق، ونظام يرفع القيم الإنسانية إلى الأعلى، وفكر، وعلم، وفن. وهو يتناول الحياة كلاًّ متكاملاً، فيفسرها، ويقوّمها بقيمه، ويقدِّم لمنتسبيه مائدةً سماوية من غير نقص. وهو يفسر

أداء الحياة دوماً ممتزجاً مع الواقع، ولا ينادي البتة بأحكامه في وديان الخيال بمعزل عن الحياة. يَربط أحكامَه وأوامره بمعطيات الحياة المعيشة وبإمكانية التطبيق، ولا يَبني الأحكامَ في دنيا الأحلام. الإسلام موجود وحركي في الحياة بكل مساحاتها، من القضايا العقدية إلى الأنشطة الفنية والثقافية... وذلك هو أهم الأمارات والأسس لحيويته وعالميته الأبدية.

المعقوليةُ... ووجهان للعقل



العقل "جوهر" مجرد عن المادة، لكنه ملاصق لها.. وامتداد نوراني للغيب في عالم الشهادة.. وهو من أهم جوانب الروح، وأضوأُ وأنفذُ نورٍ لماهية الإنسان، فارقٍ بين الحق والباطل... وهو "النفس الناطقة" الذي يعبِّر عنه القدماء بالـ"أنا".. ومن مقتربِ المتصوفة هو: اسم من أسماء جبريل عليه السلام كما يسمونه "النور الأعظم" و "عرش محمد"... وفي مصطلح بعض الصوفية: هو جوهر إنساني يسمونه: "العقل الجزئي" أو "العقل المجازي"، وبالنسبة لتعلقه بالأمور الأخروية "عقل المَعاد".

إن العقل -بمعنى من معانيه- هو مركزُ حراسةٍ للروح باعتباره موجِّهاً للإنسان إلى التفكر والإدراكِ والفهمِ ومانعا له عن القبائح وحاثا له على المحاسن. والفلسفةُ تهتم كثيرا بهذا "العقل"، وعلمُ الكلام يربط به كثيراً من مسائل "أصول الدين"، وبعضُ المتصوفة يقسمونه باعتباره خيرا أو شرا ومفيدا أو ضارا إلى قسمين: "العقل السماوي" و"العقل الترابي". ونكتفي هنا بهذه الإشارات، لأن تناول العقل بكل خصائصه، الأصليةِ منها والتبعيةِ، تضيق عنها مقالتنا هذه. كذلك نطوي هنا صفحةَ اعتبار العقل –حسب المنظور الإسلامي- سبباً من أسباب العلم، مع أهميته الخاصة. وكذا سنكتفي بالتذكير بأن العقل مناط التكليف والعنصرُ الأساسي للتفكر، والجوهرُ الأول للمحاكمة المنطقية، والمميزُ للإنسان

عن الحيوان والناقلُ إياه إلى مستوى الإنسان الحقيقي، وخيرُ هبة من الخالق للإنسان... فسنتناول هذه الجوانب منها على أنها موضوعات تبعية بالنسبة إلى هذه المقالة القصيرة، قد نعرّج عليها هنا بإشارات سريعة للتذكير ببعض أوجهها.

ما نريد أن نركز عليه هنا بإيجاز هو العقل في إطار وظائفه -وذلك حسب رؤية الأستاذ النورسي في رسائل النور- وهو إما العقل المنشئ (العقل المكوِّن) الذي يتكاتف مع الوحي والإلهام والوجدان، وإما ضده الذي هو العقل الضيّق غيرُ الملتفت إلى النواحي الروحية، المنسلخُ من العلائق السماوية، المحدِّد قدرةَ مرونته ومجال حركته. ولا نخوض أثناء البحث -حتى وإن وُجدت مناسباتٌ من بعض الأوجه- في فرضيات "العقل النظري" و"العقل العملي" من مقتربِ "كانْط" أو في ملاحظات "لالَند" عن "العقل المُنشِئ" و"العقل المُنْشَأ". ونكتفي بهذا التذكير السريع، لأنها مواضيع تستوعب كتبا ولكن ليس لها فوائد ملموسة في الواقع العملي.

العقل باعتبار أعماقه الكامنة -في رأي بديع الزمان النورسي والمفكرين المسلمين- عينٌ تَقرأ كتابَ الكائنات، وأُذنٌ داخليةٌ منفتحةٌ على اهتزازات واسعة ومتنوعةٍ، إذ يقوِّم الأصوات والأنغام التي يسمعها ويربطها بمعانٍ مختلفة، وإدراكٌ شامل ومحيطٌ متطلعٌ بتفحصٍ يتجاوز حدود الأشياء والحوادث، وبصرٌ باطنيٌّ منفسح في كشف عوالم الوجود وما بعد الوجود. والإنسان بالعقل يقوِّم ما يراه بالعين ويسمعه بالإذن، فيصل إلى حُكم، وبدلالته يسيح خلف أستار الوجود، بل يرتقي به إلى مقام مخاطبة الله (جل وعلا)، ويتأهل لحمل بعض مسؤولياته: الجبريةِ منها والاختيارية،

ويتحرى عن الكائنات والحوادث طراً، ويشخِّصها، ويؤصلها، ويسير إلى الله تعالى. ففي الخير والأمور الحسنة يجمع العقلُ منطقَنا وتفكيرنا مع الثراء الواسع للوحي والإلهام، ويصير مرجعاً للنداءات الواردة من الماورائيات. أما في الشر والقبح، فيورِد التفسيرَ المنطقيَّ للحدود الإلهية ويكبح جماح الرغبات المنفلتة للنفس ويضع إستراتيجيات ضد هجماتها. وفوق هذا، يمنحنا خططاً للتفلت من شِباك الشيطان المختلفة، ويضرب على أهوائنا ورغباتنا الجسمانية قيوداً وسلاسل مصنوعة من أفكار منصهرة في بوتقة المحاسبة والمراقبة. وهو يكبت الأهواء النفسانية ما دام محافِظاً على سماويته ويمنعُها من دناءاتها المتولدة من خصوصياتها، فكأنه شُرطيٌّ حارس أو موظف رقيب يحفظ القيم الإنسانية. وبدهي أن هذه من خصائص "العقل السماوي" أو "عقل المعاد" ولا تمتُّ إلى "العقل الترابي" أو "عقل المَعاش" بِصلة.

وقد كان من المناسب في هذا السياق أن نتحدث عن العقل وقيمته ومكانته في المسؤولية وحجيته في القرآن والإسلام، لكننا نريد أن نحصر الكلام فيما هو معقول وغير معقول حسب القرآن الكريم ومن منظور بديع الزمان النورسي.

لقد تقرر في نظام التفكير الإسلامي -من المنظور القرآني- أن هناك ما يسمَّى بـ"العاقل" و"غير العاقل"، والطبيعة والخلق، والأسباب والقدرة الخالقة فوق الأسباب، والموجود بنفسه والموجود بإرادةٍ محيطةٍ، أو بتعبير عام آخر: هناك التحليق في أفق التوحيد أو التخبط في وحل الشرك. فمنذ وجود الإنسان استمرت مسرحيةُ "مفيستو - فاوست"[1]. (الملحوظة

---

[1] مفيستو - فاوست: ظهرت شخصية "مفيستوفيلس" الأسطورية في أواخر القرن السادس عشر في التراجيديات الأوربية كأشباه أبالسة يتزلفون للشيطان؛ ففي مسرحية "مارليو" المأساوية، تقمصت

الزمنية المربوطة بوجود الإنسان هي من وجهة وجودٍ خصوصي لمفسّرٍ وممثل خارجي وهو الإنسان. فالأصل من وجهة التفسير المجرد للكائنات والحوادث، شموليةُ الحال بعينه على ما قبل خلق الإنسان أيضا) وسيدوم صراع الأخيار والأشرار أبدا، وستستمر المفاصلةُ بين الشياطين والأرواح الشيطانية، وبين الأرواح المستعدة لقبول الحق والحقيقة.

ففي كل عصر ما فتئ ممثلو "غير المعقول" الذين يربطون وجود الكائنات والحوادث بفكر التكون الطبيعي والأسبابِ المادية والطبيعة يشكلون صفاً، ويتجمعون حيناً حول آلهة الطبيعة المصطنعة، وحيناً آخر حول القدرة الموهومة للأسباب، فلم يتوانوا عن محاربة ممثلي "المعقول": الأنبياءِ والأصفياء والمؤمنين. وأصحابُ هذا الصف مع أنهم بدلوا إستراتيجياتِهم حسب الزمان والمكان، ولكن عزيمة الحرب وعقلية الكفاح عندهم واحدة لم تتبدل؛ فإما أنهم أحالوا الخلق والتنظيم والإماتة والإحياء وأمثال ذلك من لوازم حقيقة الألوهية إلى ما لا يتجاوز وجودُه الوهمَ كالأسباب والصُدَف والطبيعة، وإما حاوَلوا ربط الأفعال الإلهية -ولو من بعض الوجوه- بهذه المسائل. ولا شك في إلحاد الصنف الأول من هذا الصف. أما الصنف الثاني فقد وقعوا في الشرك، لإشراكهم الأشياء التي خلقها الله تعالى، في أفعاله الإلهية. فإن عقيدة التوحيد تَعتبر

شخصيةُ "فاوست" (حوالي ١٥٨٨) إبليساً باسم "مفيستوفيلس" يضلل الإنسان انتقاماً من طرده من الجنة. أما غوته، فقد أضفى على "فاوست" من خلال "مفيستوفيلس" صفة جديدة. فجعله رمزاً لإبليس يساير الأحداث المستجدة وينفخ في الإنسان وهم القدرة على الهيمنة على مقدرات الكون وعلى فهم كل الأشياء من جهة، ومن جهة أخرى جعله رمزاً معترضاً على كل شيء ومخربا لكل شيء. وينهي "غوته" تراجيديته بهزيمة "مفيستوفيلس" الذي يعبر عن تعطش "فاوست" ونهمه الدائم إلى الخلود والعمل الدائب. إن كل الاعمال المستلهمة من أسطورة "فاوست" تستعين بشخصيات مفيستوفيلس (Mephistopheles). وفاوست شخصية الغربي الباطن. (يراجع هامش ص ١٢٩ من من كتاب: ونحن نقيم صرح الروح للمؤلف، دار النيل، ط:٣، ٢٠٠٩) (المترجم).

أدنى مُحاصَّة ومشاركة أو مماثلة -بأي وجه من الوجوه- للقدير المطلق، الخالق، المنشئ، المحيي، المميت، الرازق، القيوم، السميع، البصير، القيوم.. شركا وغير معقول.

فمن هذا المنظور، فإن عقيدة التوحيد التي هي من القواعد الأساسية في القرآن الكريم موافِقة للعقل، فهو "معقول"؛ ورَبْط الوجودِ بالأسباب والطبيعة وأشياءَ أخرى مناقضٌ للعقل، فهو "غير معقول". ولعل من المفيد أن ننوه هنا إلى أن المعقول يتضح أكثر فأكثر بذكر اللامعقول حسب ما تقرر من أن "الأشياء تعرف بأضدادها".

إذن، الضرورة تحكم -في حال التخلي عن ربط كل الأمور بالتوحيد الحقيقي- بالحاجة إلى مؤثِّرين كثيرين يمتلكون قوة الإله في الخلق والإنشاء والإماتة والإحياء والإبصار والقيومية... فتصورٌ كهذا، يقود إلى تقبُّلِ محالات متسلسلة كثيرة لا تعد ولا تحصى، وهو تَناقض صريح مع العقل.

يتحول مفهوم "المعقول" و"غير المعقول" (الذي يلجأ إليه الكلاميون بعناوين متعددة) عند بديع الزمان النورسي إلى صوتٍ قرآنيّ ونَفَسٍ توحيدي خاص. فالمتتبع للقضايا الإيمانية في رسائله سيتعرف على المعاني التي أضفاها القرآن الكريم على هذين المفهومين ("المعقول" و"غير المعقول"). والقرآن الكريم في آيات كثيرة مثل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾(الأنبياء:٢٢). يدعونا دائما إلى المحاكمة العقلية والمنطقية في هذا الموضوع، ويفتح أمام المنطق آفاقاً جديدة.

إن القرآن، يحيل كل المسائل التي يتناولها -ما عدا أوامره التعبدية المتعالية- إلى العقل والمنطق والمحاكمة، ولا يَترك في توجيهاته ونداءاته ثغراتٍ عقلية أو قلبية أو روحية البتة. بل لم يزل معبرا عن الفكر السليم

والمحاكمة العقلية المنهجية والمنطق المنضبط ضد الأحكام والمزاعم المختلفة التي يَبْنِيها خصومه الكثيرون على "غير المعقول"... فأفحمهم، هم وكلَّ أنواع مغالطاتهم وديماغوجياتِهم وجدليتِهم، وحَسَم الأمرَ بظهوره وغلبته عليهم. وهو ما نعتبره، في الوقت عينه، ظهورا وغلبة لرسل الحق تعالى وللعقل السليم عليهم.

وإن دورة التاريخ الدائمة هو التناوب بين مراحل الفتور إزاء الوحي وإهمال "العقلي"، ومراحلِ ظهور التنور السماوي والنشاط العقلي. فمتى ما استضاءت القلوب وتنورت العقول بالأنوار التي ينشرها الأنبياء، وانكفأت الجسمانية والمادية في زاويتيهما، واستقرت الفيزيائية والميتافيزيقية في مكانهما الصحيح، وتَقدم "العقل السماوي" (بتعبير مولانا جلال الدين الرومي) و"عقلُ المعاد" (بتعبير الإمام الغزالي) على "عقل المعاش" و"العقل الترابي"، فقد تحقق -حينئذٍ- تزاوُجٌ جديدٌ بين القلب والعقل وميلادٌ جديد. هذا الميلاد هو ميلادُ ربطِ الوجود بمالكه الحقيقي حسب وعيِ العصر وإدراكه مرة أخرى، بتفسير الوجود من جديد، وميلادُ خلاصِ الإنسان من التناقضات الداخلية... ومتى ما عميت الأبصار عن أنوار السماوات وأُهمل العقل وأُبعد التفكير ونُسي "المعقول" بالكلية (بمعناه الخاص)، فقد ارتفعت راياتُ "غير المعقول" في كل المجالات، وانكب حشود البشر على وجوههم في التناقضات، فجعلوا زردشت أو عُزيراً عليه السلام أو المسيح عليه السلام ولداً لله -حاشاه- ووقعوا في انحرافات وضلالات مثل "ثالث ثلاثة"!.. وحينئذٍ انقلبت الموازنات والنُّظم المتعلقة بالوحي والعقل عاليها سافلها.

وقد يتجسد "غير المعقول" في "وَدٍّ" و "يَغُوثَ" و" يَعُوقَ" و"نَسْرٍ"، أو

في "النور والظلمة" كما عند المجوس، أو في روحٍ كليةٍ، أو في أصنام "اللات" و"مناة" و"العزى" و"نائلة" و"إساف"، أو في حوادثَ مخيفة ومفزعة في كتاب الطبيعة مثل النار والنهر والبرق والريح. وفي كل حالٍ، الأرواحُ القابلة للاعوجاج والانحرافِ تنجرف أحيانا إلى هاوية الانحراف انطلاقا من حسن النية، كما في تأليه "ود" و"يغوث" و"يعوق" و"نسر"، أو تندفع في طريقٍ خاطئ فتبعد عن الصواب، لالتفاتهم عما هو معقول وسماوي. وقد يغفلون عن القضية لضيق زاوية الانحراف في المركز. وحين الانتباه في نقطةٍ على المحيط بعيداً عن المركز تتعسر العودة إلى نقطة البدء لتوسع الزاوية. ثم يبدأ التلطخ بتفسيرِ أجلِّ الحقائق، تعليقاً بالأوهام والخيال. إن هذه "اللامعقولية" هي مخالَفة صريحة للعقل وللوحي وانحرافٌ واضح، سواء بإحالةٍ صريحة لكل قضاءٍ إلهيٍّ إلى صنم من الأصنام المتنوعة، أو بربطٍ خفيٍ للمشركين في منظور "الوسطاء" الشفعاء المقرِّبين زلفى، ربما بدوافعِ اختلاقهم للتبريرات أو الديماغوجية.

المعقول واحد أبداً. فكلَّما حصل انحراف عنه، حصل السقوط في الكثرة غير المعقولة بلا انتباه ولا وعي... فأقاموا "الكثير الحقيقي" مقام "الواحد الحقيقي" في صور شتى: كما أسند الصابئون الولادة والموت والسعادة والشقاء والبلاء والمصائب إلى الشمس والقمر والنجومِ بكيفيةٍ تشبه معتقداتنا حول القدر، وأسند الأنيميون هذه الأمور إلى الروح الكلية، والمجوسُ إلى النور والظلمة، والوثنيون إلى الأصنام بأسمائها وصفاتها المختلفة. حتى إذا أراد الوحي أن يردَّهم عن هذا الانحراف قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾(الزخرف:٢٣)، ولم يفكروا بتاتا بتعديل مسارهم إلى الطريق السماوي أو العقلي.

فأولئك ما كانوا يبالون بالمعقولية فيما يعتقدون ويؤلهون. ومآربهم كانت محصورة في أهوائهم ورغباتهم والاقتداءِ بآثار آبائهم متى ما نفعهم ذلك. القرآن الكريم يستصرخ العقل في أولئك المقلدين العُمي، وكلّ اللاهثين وراء الهيكلية الصورية الجوفاء من قَبلهم ومن بعدهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ۝ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:١٧٠-١٧١)

ولنا أن نستطلع هذا في الأسلوب العام للقرآن الكريم؛ فالقرآن الكريم يخاطب المشركين المعاصرين لسيدنا ﷺ مرة بعد مرة بلسان العقل، ويوسع آفاقهم بلسان المنطق، ويحقنهم بالمعقول بقوة المحاكمة المنطقية، ويعيد عليهم صفحات من ديمومة التكرر التاريخي، ويضعضع -بسرد الأمثال- لامنطقيةَ الشرك في تلك الأيام إلى جانب الفكر الإلحادي في قابل الأيام، ويدعو إلى التعقل في كل الأمور.

إن سيرة الأنبياء والمرشدين الذين اتبعوهم مَشْهرٌ لعرض نماذج حية ضد كل نوع من أنواع الكفر والإلحاد والشرك، ومنبر لسرد أشد الخطب إقناعا. والقرآن الكريم يأخذ بيد تلاميذه مرة بعد مرة ليسيح بهم في تلك المشاهر، ويُسمع خدامه أجلَّ الخطب العصماء بأصدق الأصوات.

ومثال ذلك قصة إبراهيم عليه السلام التي تتكرر في القرآن الكريم مراراً، لأنه من أقوى أصوات فكر التوحيد. فتراه محطّما لأصنام المشركين من قومه، أو مقوضاً لأركان فكر المشركين، أو ضاربا على أفواههم بالأقفال المصنوعة في مصنع العقل، فهم لا ينطقون، أو حاملاً إلى السماء فَهْمَهم المشركَ وتوهُّمَهم الألوهيةَ في النجوم والشمس والقمر، ليحلَّ رباط

الأجسام السماوية، فتتساقط على أفهامهم المنحرفة عن الربوبية، فتخرّ أنقاضا وركاما يئطُّون تحتها، ويفتح سبلاً واسعة تُوصِلُ إلى الله تعالى للقادمين من بعدهم.

ثم يصرخ في المصرين على غير المعقول تارة أخرى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(الأنبياء:٥٤). ثم تراه قد حطم أصنامهم وقام منتصباً وموبِّخاً منطق شركهم المنحرف الضال قائلا: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(الأنبياء:٦٦-٦٧). إنه يصرخ ويوبخ حتى يوجِفَ أرواح المشركين من قومه والمشركين من بعدهم جميعاً.

ومثلما كان إبراهيم عليه السلام، كان الأنبياء العظام: نوح وهود وصالح وشعيب وموسى... وكلهم أجمعون صلى الله عليهم وسلم، أدَّوا الرسالة نفسها وساروا في الطريق بعينه مع تنوع اللون والنمط حسب تنوع الأحوال والأوضاع، فاتبعوا نهج "العقل السماوي" ونشروا "المعقول" جميعاً. وعلى النقيض كان صفُّ أهل الكفر والإلحاد والشرك الذين أفنوا أعمارهم في السجن الضيِّق للهوى والرغبات، وأسْرِ الفهم والفكر المتوارَث من الأجداد، فأهدروها في مد الشعور المنحرف والفكر الضال وجزرِهما وأشهروا اللامنطق على الدوام.

لقد حث الأستاذ النورسي بإصرار على قراءةِ كتاب الكون واستشراف آفاقه والتطلع إلى معرض الوجود. وحثُّه هذا تعبير عن المفهوم المتوارث من ممثلي المعقول: الأنبياء والأصفياء والأولياء وعلماء الإسلام. ومع استحضار اختلاف الخط حسب الزمان، كان محتوى الرسالة والطريق المتبعة واحداً لا يتغير: التحري المستمر في الأرض والسماء... وخضُّ

الأشياء واستبطان مغازى الأشياء والأحداث... وتسليمُ كل الأشياء إلى مالكها الحقيقي... وبعد ذلك، الإحساسُ باطمئنان هذه المعقولية في الوجدان، وتحوُّلُ العلوم المؤدية إلى المعرفة: كل علم إلى نبع يُروي الذوق الروحاني... ومن ثم، تقاسُمُ من في الأرض ومن في السماء تلك الحالَ الروحيةَ.

يرشدنا القرآن الكريم في كثير من آياته البينات إلى هذه الطريق ويدلنا على أن المعقولية هي تعلق الفكر وانشداده باللانهاية: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾(ق:٦-١١)، فيلفت النظر إلى السموات وإلى الأرض وإلى الرزق، ويدعونا إلى التعقل والتفكر والتعمق في الإيمان والإثراء في المعرفة، ويؤكد مراراً على أهمية المحسوسات، ويدعونا دائماً إلى استطلاع الأرض التي نعيش عليها: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(الحج:٤٦). والقرآن هنا يومئ إلى أصل الحرمان والخسران وإلى أنه في القلوب التي عميت بصيرتُها. وهو يوبخ مراراً من لا يستعمل عقله وبصيرته حين يمر من غير تحقيق وتدبر بآيات الأرض والسماء، وكذلك ينبه إلى أهمية "النية" و"النظر"، وأن الرؤية المجردة لا تجدي شيئا: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(يوسف:١٠٥).

والقرآن الكريم أنموذج فريد للمعقولية من أوجه كثيرة تجتمع كلها فيه. فهو -مع حثه على استطلاع كتاب الكائنات- أنموذجٌ بمتانةِ تقديمِه للقضايا الكبرى وإثراء الفكر بمحتواه، وإحاطةِ رسالته، وسحرِ ألفاظه، وتأثيرِ أسلوبه، ووقْعِ صدقيته... نعم، إن مستنَد القرآن هو الوحي، لكن طريقه لا يغادر فَلَكَ العقل. فهو يَطرق باب المخاطَبين مسجِّلاً ومُثْبِتاً كل معانيه ومفاهيمه لدى العقل والمنطق والتفكير، ويمضي إلى القلوب بأسلوب يحفز الانتباه، وينطق كابحاً اعتراض العقل والحس والشعور، ويروِّض المتتلمذين عليه دوما بالمعقولية... فالقرآن الكريم يستند إلى الوحي ويتعامل مع البشر في سفح المعقول في كل الأمور... والأمر سواءٌ؛ في تقديمه مئات المسائل المتشابكة بتناغم وتجانس لا يُدرَك شأوه حتى في تحليل المسألة الجزئية، أو في صفاءِ وخلوصِ وتأثيرِ كل تذكرة ومعنى من معانيه، وكذا في الارتقاء بالقلوب المستعدة للإيمان إلى الاطمئنان، أو في إقناع الأرواح المترددة.

فنقول من هذه الوجهة: إن مستطلعي الأشياء والحوادث القادرين على قراءتها، والمسنِدين إياها -من ثم- إلى التوحيد، هم في طريق المعقول... وكذلك الذين يستمعون إلى القرآن الكريم وينصتون إليه ويستمرئونه يُعَدّون في الطريق العقلي. وبالمقابل، من يعجز عن النفوذ إلى بواطن الوجود والحوادث ويبقى خارجها، فليس في الطريق العقلي، وكذلك من لا يستمع إلى القرآن ولا ينصت إليه ولا يستمرئه فليس مستفيداً من أنوار العقل استفادة كاملةً.

نعم، المعقول: هو قراءة الوجود والأشياء، والتفكيرُ بها وتقويمها... ومن بَعدِ التقويم ربطُها بوشائج الإيمان والمعرفة والخالق. واللامعقولُ:

هو إسناد كل شيء من الأشياء وكلِّ حادثة من الحوادث إلى الأسباب المختلفة أو الطبيعة أو أمور أخرى... المعقول: هو استغناء الخالق وجوداً وتوحيداً عن الشريك والنظير والمُعين، وغيرُ المعقول: هو فكر الشرك والإلحاد بصوره وأشكاله كافة... المعقول: هو ضرورة الأنبياء والرسل المرسَلين من الله إلى البشر لشرح الأشياء والحوادث وتفسيرِ الوجود وربطِه بالحقيقة المفردة، وغير المعقول: هو رد النبوة والرسالات الإلهية. ويمكن توسيع هذا الإطار حسب الملاحظات الواردة في رسائل النور، إلى أن يستوعب الأركانَ الإيمانية جميعاً. وأظن أن هذا القدر كافٍ هنا، وأحيلُ إلى كتب مفكري الإسلام للتوسع في الموضوع.

من زاوية أخرى، العقل يعني الفهم والإدراك واستجماع الفكر. وهو بهذا المعنى وسيلة مهمة لتفهُّم الأمور الداخلة ضمن تعريفه، ومن المقومات الحيوية للروح؛ فبالعقل نفهم ما نفهم، وبه نعلم ما نعلم، ونقوِّم ونستنبط الحاصلَ والناتج. وضده الحمق والغباء وعدم الإدراك. الحمقى والأغبياء ومعدومو الإدراك لاهثون في طريق اللامعقول بلا هدف ولا مقصود... فلا يفهمون كتاب الكائنات ولا يتآلفون مع الأشياء ولا يستمعون إلى القرآن ولا يدركون أسرار التكليف... ومحال على هؤلاء أن يفهموا الدين وروحه وغايةَ الوجود ومقصوده. ويُسنَد إلى نبينا محمد ﷺ قول مآله: "أن الأحمق عدونا"... فجعله مولانا جلال الدين الرومي عنوانا وصاغه شعراً بلسانه الفصيح (ترجمته):

"قال النبي ﷺ: الأحمق عدو لنا، شقي يقطع طريقنا.

إذَنْ العاقلُ حبيبنا... نَسِيمُه المعتلُّ بردٌ يفوح رَوْحاً وريحانا.

فإنْ غضِبَ العقلُ مني.. فسبَّني وشتمني، أُطأطِئْ رأسي وأُدِمْ صمتي،

لأن العقل من (الله) الذي يمنُّ عليَّ بالفيوض أبداً.

أما الأحمق فإنْ وَضَع في فمي حلوى، أعتلّ من حلواه ويصبني بالحمَّى".

وكذلك كبار الربانيين الآخرون يرون العقل السماوي المستمدَّ من "الأخرويات" وثاقاً يوثَق به الرغباتُ الجسمانية، فلا تستطيع الميولُ الجسدية أن تعبر عن نفسها إلا إذا انفلتت من هذا الوثاق. فالعقل في هذا المعنى قفل حديديٌّ لحفظ القيم الإنسانية ومفتاح سحريٌّ للسعادة البشرية. العقل لجام الرغباتِ النفسية وقفلٌ يغلق فمها، وهو أيضاً جناح ملائكيٌّ تُحلِّق به الروح إلى عالم الخلود. النفس تجرف الإنسان إلى معضلات ومشكلات مختلفة كل ساعة بأباطيلها وترهاتها. وضدُّها العقل، إذ هو قوة سماوية تبدد لعبة النفس. فإذا ارتبط بالقلب وتزود وتغذى من "وارداته"، وأدام التزودَ منه، فإنه لا يترك عدواً إلا صرعه ودحره؛ أما إذا انقطعت وشيجته عن القلب وانقلب من السماوية إلى الترابية، فإنه يصير خائناً يرشد الأعداء ويقيم في جيرة الشهوات ويدافع عن الحقد والبغض وينضم إلى القوة العمياء فيقاوم السماويةَ ويخوض في الجدلية فيكدُّ في إلباس الباطل لباس الحق ويحسب المغالطة براعة، فيجادل مخلِّفاً وراءه الاختلافَ والتفرق، ويحسب فضح الآخرين وتَرَاجُعَهم غلبةً وظفراً... فيتمادى في قتل القلب كل ساعة ويقيم على أنقاضه سرادق النفس، ويتلطخ كل يوم مراتٍ عديدةً بلوثيات تسر الشيطان وتفجر الروح بالبارود.

فالعقل الذي انفلت إلى هذا الحد وصار عنصرا للجماح، يكون -بحسب تعبير مولانا الرومي- "مصدرَ وهمٍ وظنٍّ، لابد من أن يُذبَح قرباناً أمام المصطفى ﷺ... ثم يُقالَ: حسبنا الله، ويستأنف المسير إلى الله". ويقولُ

الشاعر فضولي رحمه الله[1] بيتاً في هذا العقل المشؤوم (ترجمته):

أريد من عقلي إشارة ودلالة

وعقلي يريني ضياعاً وضلالة

ويؤكد الكاتب الهولندي أرامسوس في "مدح للجنون": أن لا نفع ولا فائدة ترجى من عقل كهذا... مستهزئاً وساخراً به.

نتذكر خلاصة حكيمة هي أنه: "إذا فسدت الأشياء الثمينة، صار ضررها أشد من الأشياء المضرة".. ونقول: إن هذا العمق العميق هو الفارق بين الإنسان وسائر الأحياء، والجوهر الناصع الذي يصعد به إلى مقام "المتلقي لخطاب الله تعالى"، والمعلم والدليل الأول له للارتقاء إلى الحياة القلبية والروحية، يجعله كالملائكة ما دام متغذياً بالسماوية وقارئاً لكتاب الكائنات ومحوِّلاً ما يطالعه إلى المعرفة. أما إذا انقطع عن الله تعالى وارتبط بالطبيعة أو النفس، فيكون حية تلسع وعقربا تلدغ في كيان الإنسان، وينقلب إلى سم يميته موتا أبديا، بدلا عن أن يكون إكسير حياته الأبدية.

---

[1] هو أبو فضلي محمد بن سليمان فضولي البغدادي البياتي التركماني. ولد في حلة أو كربلاء، من حواضر العراق وتوفي سنة ١٥٥٦ ميلادية ودفن في النجف. ولم يعرف عنه مغادرته العراق قط. جمع العلوم العقلية (كالفلك والفيزياء والجبر) والعلوم النقلية والشرعية (كالحديث والأصول والمنطق والكلام). أتقن العربية والفارسية وله ديوان في كل منهما، إلى جانب لسانه التركي. اختلف في تشيعه لنظمه قصائد رائعة في حب آل البيت وسيدنا الحسين ﷺ. لا يخفى أثر التصوف على شعره وفكره، ويقال: إن مثنويته (ليلى ومجنون) الذائعة الصيت هي في معاني التصوف. ويؤيد هذا القول رأيه في الشعر وأن الأصل فيه هو العلم، وأن الشعر بلا علم قالب أجوف وخاوٍ. وقصيدته في مدح النبي ﷺ من الروائع المشهورة على الألسن في مشرق العالم الإسلامي كله. هو من أعظم الشعراء تأثيراً في الأدب التركي باللهجة الآذرية – التركمانية (بديهة) وبالجغتائية (أيضاً). وأثره في الأخيرة ينافس أثر "علي شِير نَوائي". أما تأثيره في الشعر باللهجة العثمانية، فلا يجارَى. فقد أثر في كبار معاصريه العثمانيين أمثال خيالي ويحيا طاشليجه لي، ثم في كبار الجيل اللاحق أمثال روحي البغدادي وباقي ونائلي ونديم والشيخ غالب وكثيرون غيرهم. (المترجم).

المصادر الأساسية لميراثنا الثقافي



يشيع القول بأن "الثقافة" مجموعة نُظُم وقواعدَ تحكم التصرفاتِ الاجتماعيةَ والأخلاقية التي أنتجتها وأَصَّلتها أمة أثناء تاريخها الطويل، وجَعَلتْها بمرور الزمان بُعداً من أبعاد وجودها أو حوَّلتها إلى مكتسبات في اللاشعور... ومع أن بعض الخصوصيات الأساسية للثقافة حسب هذا التعريف يحمل سمات العالمية، لكن الواضح أن لكل مجتمع في جغرافية اجتماعية معينة، ثقافةً سائدة خاصة. وبدهي أن هذه الخصوصية الثقافية عنصر مؤثر قوي في النُّظُم الفكرية. ولذلك، يُعد الفكر المرتبط بثقافة معينة عند فرد من الأفراد، تعبيراً عن ذاته بواسطة إطار المرجعية المعنية.

وهناك عدد ليس بالقليل من الذين فسروا الثقافة -وربطوها بالفكر نوعا ما- بأنها مجموع الأحوال التي تعبِّر بها أمة من الأمم -بجميع طرائق التعبير أو معظمِها- عن قيمها الأخلاقية، وملاحظاتها المذهبية (العقدية)، وأفكارِها ورؤاها حول الوجود والكائنات والإنسان، وعن سلوكياتها الاجتماعية والسياسية وأصول تصرفاتها... وأنها المجموع العامُّ للأمور التي تُكتسب في سياق التاريخ في إطار الالتزام بالتفكير والإحساس "الذاتي"؛ من أمثال الفكر والفن والعرف والعادة والعمل. (وهناك قيود على العرف والعادة والعمل سنذكرها لاحقاً).

إن العلاقة بين (الإنسان - الكائنات - الله) -بقراءة جمعيةٍ لم يُراعَ

فيها الترتيب بين التابع والمتبوع- من أهم الأسس في نظامنا الثقافي. وجميعُ فعالياتنا الذهنية والفكرية والعملية مرتبطةٌ بهذه العلاقة. أما المنطق الأوروبي الحديث -وهو ميراثٌ يوناني تماماً-، فيَربط ملاحظاتِه كلَّها بالإنسان والأشياءِ والحوادث. ولذلك، لا يأخذ حقيقةَ الألوهية بنظر الاعتبار البتة، أو يتناولها باعتبارها موضوعاً تبعياً غير مهم؛ والحال أن (الإنسان - الكائنات)[١] -في نظامنا الفكري- مَشهرٌ وكتابٌ وبيانٌ يُعَبِّر بلغة الحوادث، وهو بهذا الاعتبار لسانٌ ومَعرِض يُعَرِّف بـ"الذات الواجب الوجود" عز وجل شأنه، ويُشهِر آثارَ صنعته، ويَهتف بإجراءاته وشؤونه. فهناك، في الفلسفة اليونانية والمنطقِ الغربيّ المعاصرِ المستمدِّ منها، عقلٌ فعال، وبجانبه "فهم" لألوهية عاطلة، وأما في ثقافتنا فـ-على النقيض من ذلك- هناك مناسبةٌ دائمة بين الصنعة والصانع، وبين الأثر وصاحبِ الأثر، وبين الخالق والمخلوق. نحن في نظامنا الفكري نَعتبِر الإنسانَ والكائنات كوسائط تَحملنا إلى أفق عرفانيّ معيَّن، وبها نتوجه إلى الصانع الجليل الأجل ونطلبه ونقصده. أما أولئك فيقفون عند النتائج العملية لـ"مفهوم" الألوهية، ويُرجعون كلَّ مسألة إلى الأشياء والحوادث. وزد على ذلك، أننا نربط المسائل بالكتاب والسنة والمصادرِ الأخرى التي يرشدنا إليها الكتاب والسنة، إلى جانب العقل الفعال... أما أولئك فيَرون العقلَ والمشاهدة سبباً وحيداً للعلم، فيُضيِّقون سبل العلم والمعرفة.

الحاصل أن الثقافة هي مجموع المفاهيم والقواعدِ والانسياقات التي تَعلَّمَها الإنسانُ وآمَنَ بها وطبقها في حياته فصارت -بعناصرها الأصلية والتبعية- بُعدا من طبعه، حتى تحولت إلى مصدر للمعلومات في

---

[١] المعني هنا مفهوم المناسبة الإنسانية – الكائناتية جمعاً من غير فصل في المفهوم، وينصرف بداهة الى المادي برمته (المترجم).

اللاشعور... فهي ظاهرة أبيستمولوحية يُدرَكُ ويُحَسُّ بوجودها وتأثيرِها بين الحين والآخر، حتى في غياب الشعور والإرادة.

فكم من معتقدات ومسَلَّمات وأعراف وعادات مندرجةٍ في الروح وغافيةٍ في اللاشعور، تُحفِّزها المقومات الداخليةُ للعقل بين فينة وأخرى، بواسطة دوافعَ وأسباب مؤثرة في هذه المكتسبات، فتنشطها وتُفعِّلها وتنشئها فتصوِّرها في أشكال؛ فأحيانا في ذات شكلها القديم وأحياناً في تَماثُلٍ قريب من شكلها القديم ولكن ربما بلون باهت. غير أن هذه المكتسبات مهما كانت مندرجة في طبع الإنسان فلا تَظهر في الحاضر مجدَّداً بعين الذات القديمة، لأن كل يوم جديد هو عالم خاص بذاته، وإذ يطلع يطلع بخصوصياته، وإذ يغيب يغيب بخصوصياته! لذلك، لا نريد أن نكرر مكتسباتنا القابعة في اللاشعور، كشيء قديم تماماً، بل بإضافة شيء من العمق إليها حسب متطلبات الأحوال والظروف. بل القول الأصوب أن نعيش تلك المكتسبات بزيادة ألوانٍ وأعماقٍ طرية، صحيحةَ النسب، ومستمدةً من الأصل.

ونلفت النظر إلى خطأ وقعنا فيه –كأمة- دائما؛ وهو أننا -بدلاً عن جعل القديم أساسا متينا ليُقام عليه الجديد، وتطويرِ القديم بمعطيات الجديد- فَصَلناهما في أكثر الأحوال إلى شريحتين ربطناهما بحقبتين منفصلتين؛ فأحيانا استعْدَينا بعضهما على بعض، وأحيانا أخرى عارضنا بينهما، فأدينا إلى حصول معضلات في الأسس؛ فإما قلنا: "الجديدُ يُشم عطره ثم يُرمَى في النفايات، والقديمُ يفوح كالمسك والعنبر كلما رججتَه يتضوع"، فأفرطنا في "وارداتِ" حقبة من الزمان... أو قلنا: "لا نفع في مكتسباتٍ عتيقة لزمان ولَّى؛ الخيرُ في العالم الزاهي للجديد"، وأهملنا

تماماً ذلك الجانبَ للزمان، فأغفلنا مفهوم "الزمان الذاتي"، وتغافَلْنا عن البعد العالمي الكوني.

والحال أننا ملزمون بإعداد البيئة الطيبة لزمانٍ ثقافي جديد يُطوِّر حياتنا الفكرية، بتفسيرِ ثقافتنا تفسيراً معمَّقا، وتقويمِها تقويما دقيقا، -ليس من أجل منطقتنا الجغرافية وحدها- بل من أجلِ تأسيسِ جسر متين ودائم بيننا وبين العالم المتحضر. بعبارة أخرى: يتحتم علينا -من أجل بناءِ فهمٍ ثقافي أمتن وأسلم وأقوم وأبقى لأمتنا- أن لا نفدي قِيَمَ ماضينا وحاضرِنا ومستقبلنا بعضَها لبعض مع مراعاة الأولوية للمستقبل، وأن نوقر ونصون الديمومة والتوسع بنفس الدرجة.. والحقيقة أن الزمان الثقافي غير مرتبط بفكرة التواجد قبلُ أو بعدُ، على خلاف مفهوم الزمان المعروف لدينا. وأرى من الأنسب أن نسميه بـ"ما فوق الزمان". بل الأحرى أن ننظر إليه مستقلا عن الزمان ومتعاليا عنه. والواقع أن ديمومة الثقافة بذاتها منوطة باستقلالها. لكن من البدهي وجودُ إطار من المرجعيات تنظِّم بناءها الذاتي والمستقل تماما، وتُشكِّل كيفية علاقتها بالجهات المختلفة. فمن هذه الوجهة وفي داخل إطار كهذا؛ يمكن أن نقول: إن الثقافة هي عبارة عن مجموع المفاهيم المختلفة وسبل التفكير المتنوعة، وأوجهِ الرؤية المتعددة، "والتصوراتِ" الفنية والقيمِ الأخلاقية المرتبطة كلٌّ منها بتفسيرٍ مختلف.

وثَمّ أسس راسخة نجد أنفسنا مُلزَمين بأن نربط كلَّ مضمونٍ ومفهوم وأسلوبٍ فكريٍ وتفسير ومقاربة، بتلك الأسس. حتى إن الثقافة بألوانها المختلفة تحوم وتدور في محيطها، وتنهل من مناهلها، وتتغذى بغذائها، وتنمو بها، ثم تتحول بفضلها إلى حال فوق الزمان والمكان.

وهذه الأسس -باختصارٍ- هي الكتاب والسنة (وسنُذكِّر بهما بإشارات

سريعة لاحقاً)، وبالإضافة إلى هذين العمادين -وفي إطار مرجعيتهما- التفسيرُ والحديث وأصول التفسير وأصول الحديث والفقه وأصول الفقه... ونخص بالذكر الفقه وأصول الفقه فهما -من حيث إنهما ثمارُ مساعٍ حثيثة وكدحٍ مضنٍ، ومن حيث إنهما من غير مثيل أو شبيه لهما في التاريخ- مَنبعان لا ينضبان ومصدران قابلان للتوسع والثراء الرحيب بحيث إن الشعوب التي تمتلك هذين المصدرين، تُعَدُّ مالكة لأهم الأشياء الحيوية. إن كل حضارة تَفخر بقيمٍ تخصها بالذات... فالفقهُ وأصول الفقه من أهم وأبرز قيم حضارتنا نحن. وأحسب أننا لو كنا نحتاج إلى أن نَصِف حضارتنا -باعتبار ماضينا- بصفة، لكان من الأنسب أن نصفها بـ"حضارةِ الفقه وأصول الفقه"... حضارة الفقه وأصول الفقه المنفتحة أبوابُها على مصاريعها للفكر والحكمة والفلسفة. ولئن تميزت حضارة اليونان والإغريق بالفلسفة، وحضارة بابل وحران بالعرفان (Gnostisizm)، وحضارة أوروبا الحاضرة بالعلم والتكنولوجيا، فإن حضارتنا الممتدةَ عبر العصور هي حضارة الفقه وأصول الفقه المتفسحةُ للجميع بتمحورها حول الفكر والعقل والمنطق والمحاكمة. إن الجهود حول أصول الفقه عندنا -كما يؤكد مفكرون كثيرون مع "سيّد بَك" والأستاذ محمد حميد الله- من أهم المجهودات غير المسبوقة لبناء وتطويرِ نظام حقوقي متكامل وعلمٍ قانوني لا يشوبه نقص، وتوسيعه لاستيعاب كل العصور. فهذا العلم بالإضافة إلى سَبْقه منفتحٌ ليكون مصدراً للحضارات والثقافات الأخرى، باعتباره مؤثراً في تشكيل العلوم.

وعلى مر الزمان امتلكت مجتمعات مختلفة نُظُما قانونية أو حقوقية، كالرومان والصينيين والهنود واليونانيين. لكن لا اليونانيون في ألواحهم،

ولا الرومانيون في قوانينِ كاسيوس، ولا العالَم المعاصر في متونه القانونية، استطاعوا أن يربطوها بأصول أو قواعد مستقرة كما في نظام الفقه الإسلامي. فلذلك لن تجد في أمة أخرى مثلَ هذا العلم المستندِ إلى القرآن والسنة واجتهاداتِ السلفِ الصالح وتحقيقاتهم.

إن الفلسفة في أطوارها المختلفة هي نتاج المنطق المتطورِ دائماً ليستجيب لحاجة تلك المراحل المختلفة. وفي حضارتنا قام "أصول الفقه" بهذا الدَّور في نظامنا الحقوقي طوال التاريخ. الفقهُ والحقوق يؤديان وظيفةَ إدارةِ المجتمعات بقواعدَ منظمة، وأصولُ الفقه يوجِّه الفقه والقانون. والذي يحدد نوع الأصول والأساليب التي تُتَّبع حسب طبيعة الموضوع أثناء هذا التوجيه هو "العقلُ السليم". ومن الواضح أن لهذه الأصول أثراً ظاهراً وصريحاً في فهم القضايا الحقوقية فهما جيدا. والحقيقة أن ما قيل عن الفقه وأصول الفقه، يقال أيضاً عن العلوم الأخرى المرتبطةِ بالقرآن الكريم والسنة النبوية.

وقد ظهرت دراسات متنوعة وطُوِّرت أنواعٌ من النُّظُم دارت حول الكتب السابقة، لكن المساعي المكثفة والتفاسير المنصبَّةَ على القرآن والسنة، تَبقى مدى الدهر من الظواهر الجديرة بالتقدير والتوقير. إن القرآن الكريم -سواء بالتفسيرات المروية عن رسول الله ﷺ أو التفسير والتأويل في ضوء قواعد اللغة العربية وأساليبها، أو أسباب النزول- لم يزل مصدراً مهما لثرائنا الفكري، حتى إن من ينظر إليه بالنظر السطحي فلا يخفى عليه كم هو مصدرُ ثراءٍ كبير.. والمعنى عينه جار على الحديث أيضاً. لكن اللازم أن تصان هذه العلوم بالعقول الوفية والمقتدِرة. وإلا، فلا منجى ولا مفر لأمتنا من حياة الشقاء في هذا الثراء، إن دام ما يراد لهذين المصدرين

النيرين الفياضَين من تكديرٍ لصفائهما أو إغفالٍ لوجودهما، نتيجةً للعداوة اللدود من الخصوم، والخذلانِ أو السكون من الأصدقاء.

ومن مناهل ميراثنا الثقافي، المصادر التبعية والفرعية الدائرة في إطارِ مرجعيةِ هذين المصدرين الأساسيين: مثل علم الكلام بموضوعاته المقبولة عند أهل السنة، في إتيانه بالبراهين العقلية والنقلية على عقيدة الإسلام، ودفعِه الشبهاتِ والتخرصات عن ديننا، وردِّه على الأفكار الفلسفية المنحرفة الضالة كالتشبيه والتجسيم، وإثباته الصفات الإلهية ووضْع إطار لفهمها، وموضوعات "الأصلح" و "الحُسن والقُبح"... ومن تلك المصارأيضا: المصلحةُ والاستحسان والعرف والعادة والعمل...

ولا يكفي لشرح كل مصدر من هذه المصادر كتابٌ. ولكن لا بأس من لفت الانتباه إلى قسم منها بنظرة كلية شمولية وبإشارات سريعة:

١- الكتاب

إن "الكتاب" المعبَّر عنه بالكلمة المقدسة: "القرآن"، هو المجلِّي للبصيرة والمعمِّق للشعور والموسِّع للفكر.. وهو المصدر الثرُّ بشكل يأخذ بالألباب، والكافي بمرونته لكل عصر بما فيه من مختلف أنواع البيان؛ من محكمه ومتشابهه ونصه وظاهره ومجمله ومفصله، وأيضاً بإيمائه وإشارته وتشبيهه وتمثيله واستعارته ومجازه وكنايته وغيرِ ذلك... لكن الاستفادة من عظيم خيره منوطة بمقدار ما تتسع له العقول المنصفة.

نعم، القرآنُ كتابٌ فوق الزمان والمكان. لكن انحراف النية والنظر أحيانا قد يسحبه من مقامه المتعالي إلى سجن الفكر البشري الضيق. فالناظرون من هذه الزاوية أو المنحرفون في أفكارهم لن يتعرفوا أبدا على أعماقه الخاصة به والتي تأخذ بالألباب. فإن الأرواح الأسيرة التي كَبَّلت

فكرَها بالأحكام المسبقة، لن تحيط علما بأسرار هذا الكتاب المعجز ببيانه، ولن تهتدي إلى أفقه الإعجازي أبداً، في أي عصر من العصور عاشوا. إنه أبداً كتابٌ ذروةٌ في العلاء يتعدى آفاق البشر، وبيانٌ لا مثيل له بتنوع تفسيراته وتأويلاته بطول موجات مختلفة، وذلك إنما ينجلي لمن يفتح صدره له بإخلاص وصدق. إنه إكرام إلهي مهم للإنسان، والتعرفُ عليه ثم اللجوءُ إليه في كل مسألةٍ حظٌ فوق الحظوط وجَدٌّ فوق الجدود.. لكن -ياترى- كم شخصا هو على دراية بهذه الحظوة؟ والحق أنْ لا حلَّ لمعضلة بشرية من غير اللجوء إلى ضيائه، وأنْ لا سعادةَ باقيةً يَحظى بها الإنسان من غير البناء على أسسِ شلّالِ بيانه الدفاق.

وكم أستاذٍ في اللسان بنى -على مر الزمان- من البيان صرحاً ساحراً، وكم مفكرٍ أقام نُظُماً فلسفية ومثالية... لكنَّ صروحَهم تهاوت، فهي خرائب.. ونُظُمَهم المثالية اندثرت، فهي ذكرى من أسطرٍ ذاوية في صفحات التاريخ. ولم يحافِظ بيانٌ على جدته إلا القرآن... وإذا كان هناك بيان حافَظَ على جدته منذ أن تجلى في أفق البشر، فذاك هو القرآن. وما من نظام يُرسِي بسفينة الإنسانية على بر السلامة إلا محتوى هذا الكتاب المبارك. في بيانه جذب ولَمَعانٌ سِحري يغدو كلُّ كلام معه لغواً ولغطاً لا معنى فيه. وصاغةُ النُّظُم والأفكار يتحولون إلى فقراء متسوِّلين إزاء محتواه الثر.

هذا الكتاب الذي يفسر حقيقة الإنسان والوجود والكائنات يمحص حقيقة الإنسان تمحيصا بالغ الدقة، ويقوِّم الأشياء والحوادث تقويما بالغ الحساسية ودقيق التوازن، حتى إن كل أحد -بتأملٍ قصيرٍ- يكاد يرى ويلمس غيرَ المتناهي وراء هذا التمحيص والتقويم. ولذلك، فإن رجال

الروح والقلب الداخلِين إلى عالم القرآن الآخذِ بالألباب، يرون كل شيء يشعرون به ويحسونه في قرارة أنفسهم كمفرداتِ فهرست، فيطالعونها مفصَّلاً في محتوى كتاب الكائنات، ويستشعرونها، ويُمضون أعمارهم كلها في عالم الإشارات والأمارات، في سعي حثيث نحو القرآن كمن يسيح في الأرض.

نعم، هذا الكتاب ينير أفق عرفاننا بحيث لا يتعرض الإنسان -حينما يسيرُ على هداه نحوَ "عرشِ كمالِ" قلبه- لوحشة الطريق، ولا احتقانِ الفكر، ولا انقباض الروح... يسير دوماً في هذا الطريق الذي يُحس إبّان السير فيه بتداخل العلم وتَمازُجه مع الإثارة والنشوة، والإيمانِ مع المشاهدة، وثقلِ الحِمل مع الاطمئنان، والالتزام بالنظام مع الإحساس بالأمن... ويتسلق السفوح فيرتقي إلى الذرى حتى يصل أصعب الشاهقات منالاً... فيبلغ آفاقاً يرى فيها وجه حظه وجده المستبشر.

هذا الكتاب -للتذكير ببعض الأمور في مقامها المناسب- يرسل إشارات ويلمح بها إلى الأعماق الداخلية للإنسان والكائنات، وإلى سعة روح بني الإنسان، وإلى أهم أبعاده الحيوية مثل الحس والشعور والإرادة والقلب، وإلى الغاية والمعنى في خِلقة هذا الموجود المتكامل (الإنسان) التي تُعدُّ ولادةً جديدة للكائنات، وإلى الفائقية في تجهيزاته، وسعة دائرة فعالياته، وعظمته الكامنة، ورغباته وآماله وهيجان عواطفه... يرسلها بحيث لا يبلغ إليها خيالُ علوم الفلسفة ولا علم الاجتماع ولا علم الأحياء ولا علم النفس ولا علم التربية..

ولا أظن أن من يَعرف هذا الكتابَ يحتاج إلى مصدرٍ غيرِه في المواضيع الأساسية المتعلقة بالإنسان - والكون - والله... إلا في تفصيلِ مجمَلاته

وتدقيقِها. وإن تفصيل المجمل وتدقيقه لا بد أن يستند في إطار مرجعيته، إلى بيانٍ للنبي ﷺ أو مشاهدةٍ متينة أو محاكمةٍ سليمة أو استدلالٍ عقليٍّ قوي.. وهذا يعنى أن كل شيء يجري في فَلَكه هو.

هذا الكتاب، بنزوله على أعظم البشر بركةً وأسعدِهم طراً، في نقطةِ تحولٍ مهمةٍ لسير التاريخ، استهدَف تنظيمَ حياةِ مجتمَعٍ محظوظٍ، فردياً واجتماعياً وسياسياً وإدارياً واقتصادياً وروحياً وفكرياً... و-بالفعل- حَقق هدفَه بحَملة واحدة ونفخةٍ واحدة، وصار مصدرَ إلهام فريداً لانقلاباتٍ متشابكة حصلت في مجتمع بدوي، لكنها تُعدُّ أنموذَجاً يُقتدى به في الأمم الحضارية. وهو -لمن يلجأ إليه- لازال حتى اليوم سندا قوياً وثرياً ومقتدِراً على تحقيق الأمور التي حققها. نعم، القرآنُ لا مثيل له في ثراء وَسَعَةِ بيان العلاقة بين الإنسان والكائنات والله... ولكن مع الحفاظ على التوطّد والتناسب اللازم في المسائل التي يمحصها ويحللها. وإذا توخينا أسلوب بديع الزمان وتعبيرَه، فالقرآن:

صوتُ هذه الكائنات الشبيهةِ بمجمَّع متشابك وقصر ومَشْهر عظيم، ونَفَسُها وتفسيرُها، وأوجزُ تلخيصٍ لتفسيرِ الأوامر التكوينية وتأويلِها، ومفتاحٌ ذهبي مشحونٌ بالسر لهذا "المكان" العظيم الذي مابرحنا مشاهِدين له و"الزمانِ" الذي هو بُعدٌ نِسْبيٌّ له، وأبلغُ لسانٍ وترجمانٍ لذات الله الحق تعالى وصفاتِه وأسمائه، ومرصدٌ فريد للاطلاع على أسرار ما وراء ستار الأشياء والحوادث، ورسالةُ لطفٍ من الله ﷻ مما وراء الكون والمكانِ مدوية أصداؤها في قلوبنا وألسنتنا، ومصدرُ نورٍ لهذا العالَمِ الإسلامي الرائعِ وهواؤُه وضياؤه، والشرطُ الأساسُ الضروري للبقاء إلى الآباد، وخريطةٌ وتعريفٌ ومرشدٌ للعوالم الأخرى التي ينتظرها كل

إنسان إما بشوق وتطلع بالغ أو بترددٍ وتوجس... وهو للعالم الإنساني أجمع، كتابُ تربية ومجلةٌ معرفة وقاموسُ علوم ودائرة معارف، لا يُضِل أحداً في الطريق إلى الكمالات الإنسانية... وهو للعالم الإسلامي خاصةً مصدرُ علمٍ وعرفانٍ وحكمةٍ أنقى من كل نقيّ... غاية القول: إنه، كلياتُ قوانين نَظَّمت ووَجَّهت حياةَ المسلمين؛ الشخصيةَ والعائلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية جميعاً على مدى العصور... ودليلُ السير والسلوك بمحتوياته من الدعاء والذكر والفكر والمناجاة... وكتابٌ معجزٌ يرشد إلى أدق تفاصيل الأشياء والحوادث، يوجِز أشد الإيجاز ولكن بلا إبهام في شيء، ثرٌ أعظمَ الثراء، لكنه أجود مع المؤمنين به، كافٍ ومستوفٍ لكل زمان ومكان، لكنه فوق الزمان والمكان.

فهذا الكتاب الذي لن يَستغني عنه أحد؛ لا الملائك ولا الروحانييون ولا الجن، هو مصدر ميراثنا الثقافي الأولُ الأهم الفذ، الأوسعُ الأندى، الأعمقُ الأنقى الذي لا يهدأُ تلاطمُ موجه كالبحار ولكن من غير تكدر.

هذه الأمور التي سردناها هنا حول هذا المصدر المبارك، ليست إلا إشارات صغيرة عابرة.

٢- السنة

السنة في الاصطلاح الفقهي هي مجموع أقوالِ الرسول ﷺ وأفعالِه وما أَمَر به أو تفضل بالإشارة إليه. ومن مقتربٍ آخَر؛ هي أقوالُ حضرة روح سيد الأنام ﷺ وأفعالُه وتصرفاته، التي لم يبيِّن كونَها فرضا أو واجباً، أو التي يجوز تركها أحياناً

فالتي هي من قبيل العبادة تسمى "سنن الهدى"، والتي هي من جملة عاداته السَنِيَّة هي "السنن الزوائد". أما الأصوليون، فلهم مقترب آخر،

يتعلق بالقول والفعل والإقرار؛ فما يثبت بالقول فهو "سنة قولية"، وما يتبين بالفعل فهو "سنة فعلية"، وما سكت عنه من الوقائع التي شهدها فهو "سنة تقريرية". فالسنة بفروعها كافة، المتعلقةِ بالعمل أو الأخلاق، أو البيانات التي صدرت حول التربية والآداب، أو الدساتير الموضوعة في اتجاه تزكية النفس وتربية الروح، هي مصدر لا ينفد في كل المساحات الواسعة، يضيء عيوننا وقلوبنا... فما برح إنساننا ينهل من هذا المصدر المبارك ويستمد منه منذ عصور طويلة، حتى إن قلنا إنه أنموذج حي للسنة، فلا نجانب الصواب.

نعم، السنة سواء بفضل سعة مساحتها في التشريع أو بمرونتها القابلة لتفسيرات متنوعةٍ، لا زالت مصدراً مباركا لا نجد له نظيراً في العطاء، في أي دين آخر أو أمة أخرى؛ فهو المصدر في التفسير أو الفقه أو المسائل الاعتقادية أو الأخلاق أو الزهد والتقوى أو الإخلاص.

ونكتفي هنا بما ذكرنا، ونحيل التوسع في هذا الباب إلى المصنفات المكتوبة أو التي ستكتب عن السنة.

٣- الإجماع

للإجماع لغةً معانٍ؛ منها: الاتفاق والقصد والعزم والمواءمة. واصطلاحاً هو: اتفاق علماء الإسلام المجتهدين في العصر الواحد على مسألة دينية معينة. والإجماع بهذا المعنى ميزة خاصة بهذه الأمة. فالإجماع ليس عملا يقوم به كل أحد من الناس والعوام منهم خاصة، بل هو اتفاق "المتخصصين" القادرين على إثباتِ وتقييم مسألة معينة بالاستناد إلى الأدلة الأصلية واجتماعُهم على رأي واحد فيها. فلا يعد اتفاقُ العوام على شيء من المسائل إجماعاً، كما لا ينعقد الإجماع في

مسألةٍ تُناقض الأدلةَ الشرعية. كذلك، لا عبرة للإجماع فيما ورد فيه من الشارع نص، وفيما هو معلوم من الدين بالضرورة. ولا في مواضيعَ مثلِ حدوث الكون وعدم أزليته. ويقع خارجَ شمولية الإجماع قضايا مثل ثبوت حقيقة وجود الله ووحدانيته والنبوةِ. ولا يُتصور الإجماع في الأمور التي يتعلق فهمها ببيان الشارع كأحوال الآخرة وعلامات الساعة وأنواع النعم والعذاب في الأخرى.

ونسوق هنا من الأدلة على حجية الإجماع حديث النبي ﷺ: "لا تجتمع أمتي على ضلالة، ويد الله مع الجماعة"[1]. وهناك الكثير من الآثار الدالة على أن التأييد الإلهي يتظاهر على الجماعة خاصة.

ولا يُعتدّ في شأن الإجماع بالنظرة المختلفة لبعض الفِرق، أو التفسير المختلف للشيعة، أو حصرِ الظاهرية نفاذَه في مرحلة زمنية معينة؛ فإن هذه الخلافات لا ترقى إلى قوةٍ تنقضُ حجية هذا المصدر المهم للثقافة، ولا تمسُّ أسسه، لكن هذا لا يعني الاستخفاف بهذه المعارضات، وجوابِ الجمهور عليها. وتفصيلُ ذلك يضيق عنها هذا المقال، بل يتطلب مجلداتٍ من الكتب، وتم تناولُها ومعالجتها مرات عديدة من قِبل أهل الاختصاص.. وغاية ما أردنا هنا أن نذكرّ بأن الإجماع مصدر مهم في ميراثنا الثقافي.

٤- القياس

معنى القياس: مقايسة شيء على شيء آخر وتعليقُه على حكم أو تقويم مشترك بينهما.

---

[1] ابن ماجة، الفتن ٨؛ الترمذي، الفتن ٧؛ المسند لعبد بن حميد، ص ٣٦٧؛ الصحيح لابن حبان ١٠/٤٣٨.

وفي الاصطلاح هو إجراء حكمِ مسألةٍ أو عملٍ على شيء نظيرٍ له أو شبيه به. فيقال -في علم أصول الفقه- للأول: "المقيس عليه" أو "الأصل"، وللثاني: "المقيس" أو "الفرع"، ويقال لوجه المشابهة بين الموضوعين أو العلة المشتركة بينهما: "مناط الحكم". والقياسُ بهذا المعنى مجال واسع ومهم لانكشاف الثراء الكامن في الكتاب والسنة، باعتبارهما لا يتحددان بالزمان والمكان، نعم، القياس مصدر وافر يُراجَع دائما في إطار الكتاب والسنة لسد الحاجة المحتمل ظهورُها تبعاً للزمان والمكان... فلن تنتهي الحلول حيثما كان القياس. فهو باب مفتوح لأهل الخبرة على مصراعيه في كل زمان وأوان.

وقد يكون وجه المشابهة في المسائل المتناسبة والمتشابهة صريحاً يكتشفه ويفهمه من له أدنى ممارسة. فلذلك سماه الأصوليون: "القياس الجلي". وقد يكون وجه المشابهة بين المقيس والمقيس عليه مبهما لا يُفهم مِن أول وهلة، ويتطلب تمحيصاً وتدقيقاً، بل قد تَبرز مَناطات بديلة، فسماه الأصوليون: "القياس الخفي". فالقياس بكلا جناحيه سَعَةٌ وثراء.

ولا يحتج بالقياس في التشريع الجنائي، لأن الرجوع إليه فيه قد يؤدي إلى إحداث جرائم وعقوبات جديدة. وفي ما عدا مثل هذه الحالات الخاصة هو مصدر معرفي يحتج به ويُرجع إليه في كل زمان. وقد اتفق جمهور الفقهاء على حجيته. ونكتفي هنا أيضاً بهذا القدر عن القياس، فليراجع في المصنفات.

٥- الاستحسان

معناه عدُّ الشيء حَسنا، ويستعمل بمعنى الإعجاب بالشيء. وله عند الأصوليين تعاريف عديدة. وقد استعمله كثير منهم في موضع القياس

الخفي وفي مقابل القياس الجلي. وقد يكون الاستحسان توجهاً إلى دليلٍ أقوى مما يقتضيه القياس في مسألة معينة، أو تخصيصا للحكم الثابت بالقياس، أو استناداً إلى دليل أرجح، أو تركاً للقياس -في إطار الضوابط الشرعية العامة-، أو تركاً للعسر إلى اليسر بمعنى ترجيح الأيسر على الأعسر في حال جواز الأمرين كليهما. وكثير من الفقهاء -وعلى رأسهم الإمام أبو حنيفة- يقرون حجية الاستحسان. والفقهاءُ الذين يخالفون في حجيته، يعملون به بتحميله على مصادر شرعية أخرى وبعناوين مختلفة لمعنى واحد... فخلافهم لفظي ولا يكدر صفاءَ هذا المنهل العذب المورود. ونكتفي بهذا القدر هنا أيضاً، ونحيل تفصيل الموضوع إلى المتخصصين.

٦- المصلحة

المصلحة هي الواسطة أو الوسيلة للصلاح أو الأمر المفيد والصالح والخيِّر. والمصلحةُ باعتبارها مصدراً للاجتهاد وردت في العهود الأولى حيثما ورد القياس والرأي، حتى أقره بعض أئمة المذاهب كمصدر تبعي مستقل من مصادر الأدلة الشرعية. وحيث إن "المصلحة" -وكما يفهم من معناها- مصدرٌ يحقِّق فائدة العباد ويتحرى خيرهم وصلاحهم، فمقامها مهم في الحياة الدينية. وإن الحق تعالى أنزل الأحكام -في الواقع- لحماية الدين والنفس والمال والعقل والنسل. وبهذا يحتج لـ"المصلحة" في أصول الفقه.

ومع أن "المصلحة" لم ترق إلى مستوى الأدلة الشرعية الأخرى في الأخذ بها كدليل، لكن هناك فقهاء كثيرون وعلى رأسهم السادة المالكية أوْلوها عناية خاصة. ومع أن الإمام الشافعي لم يركز مباشرة على "المصلحة" كدليل مستقل، لكنه تناولها بطريقة أخرى في إطار القياس،

فيكون قد اعتمدها ضمنياً. أما الفقهاء الأحناف، فيتقبلونها بقبول حسن مع اختلاف في التفسير والتأويل. ورأيُ الإمام أحمد بن حنبل في هذه المسألة قريب من الإمام الشافعي، كما في كثير من المسائل.

ومع هذا الاختلاف النسبي في النظر إلى دليل "المصلحة"، فالجامع أن المذاهب كلها تقره وتعتبره دليلا تبعيا -ربما بعناوين وأسماء متعددة- إذا كانت المصلحة مصلحة مقبولة ولم تتعارض مع الأدلة الشرعية الأخرى. ولا شك في أنه مصدر مهم للثقافة من حيث المعاني التي حمّلها الشارع عليه والوظائفِ التي أناطها الفقهاء به. ومع أن هناك حاجة إلى إيضاح مفصل، فالمقام هنا لا يسع ذلك.

٧- التصوف

نحيل تعريف التصوف على الكتب والرسائل المعنية به، ونشير إلى محتواه في إيجاز:

التصوف الذي يمكن أن نسميه من الوجهة النظرية: "الطريقة"، ومن الوجهة العملية: "الدروشة"،[1] هو مصدر مهم للمعرفة والثقافة في مساحة واسعة تمتد من الحياة الروحية إلى الأخلاق وآداب المعاشرة.

للتصوف تفسيرات متنوعة؛ فمنها أنه الموت باعتبار النفس والأنانية والغرور، والحياةُ باعتبار القلب والروح... أو تسليمُ السالكِ نفسه لإرادة الحق تعالى كالميت في يد الغَاسل، مع وجود الإرادة الجزئية في إطار نِسْبِيَّتها الخاصة... أو التحاشي عن مساوئ الأخلاق التي ذمها القرآن الكريم والتحلي بمحاسن الأخلاق... أو الإحساسُ بالأقربية الإلهية في وجداننا بعنوان "القربة"، وتخطِّي "البُعد البشري" الكامن -بمقتضى

[1] تصريف من "درويش" أصلها فارسي بمعنى الطالب للباب. وهو المريد المنتسب إلى الطريقة. (المترجم).

البشرية- في قلوبنا وأروحنا... أو الاستقامةُ على خط إرشاد الكتاب والسنة واتباعُ أوامر "الرب" تعالى في حياتنا بدلاً عن اتباع الأهواء والنزوات... أو التوجهُ التام إلى "مسبِّب الأسباب" ووضعُ الأسباب خارجَ التأثير الفعلي... أو التجرد -بقدر المستطاع- من الرغبات الجسمانية والبدنية، والتحلي بالصفات المَلَكية.

فإذا قدمنا المقترب الأخلاقي، فيمكن القول: إن التصوف هو الحفاظ الدائم على طهارة القلب حيال دوافع الشيطان والنفس... وردعُ النفس عن ميولها الخاصة وتضييقُ مجالها بقدر المستطاع... ومواصلةُ السير في طرق الارتقاء نحو "الإنسانية" الحقيقية بالكد الدائم للبقاء في مستوى "الحياة القلبية والروحية"... وتكريسُ الحياة على تحقيق السعادة المادية والمعنوية للآخرين، ومع منتهى الجدية في المناسبات مع الحق تعالى... واتباعُ نهج النبوة في عدم انتظار الأجر حتى في أصدق الجهود وأخلصها وفي أعظم الأعمال وأشدها... والعزمُ على المسير أبداً في ظلال المشكاة المحمدية ﷺ في مساعي العبودية للحق تعالى... وإشهارُ عبودية صافية خالصة لا غرض فيها ولا عوض، بالتقيد الشديد في المناسبات مع الله تعالى بإدراك نوعية المناسبة بين الخالق والمخلوق، والعابدِ والمعبود، والطالبِ والمطلوب، والقاصدِ والمقصود... والقيامُ بمنتهى التحمل والصبر الدؤوب حيال المعاصي... وأداءُ العبادات والطاعات في لذة ونشوة كأنها الغاية والهدف من الحياة... واستقبالُ البلايا والمصائب بالابتسام مع انشراح الصدر لقهره ولطفه تعالى في نفس المستوى... وربط كل أنواع السعي والهمة باستحسان الحق تعالى وليس بتقويمات البشر... والصبر على تباطؤ الزمن صبر الدجاجة الحضون.

فالتصوف بالمعاني الآنفةِ موضعُ تناوُلِه الأساسُ هو الكتب والرسائل المؤلَّفة حول "التلال الزمردية للقلب"... وهو حوض فريدٌ واسعٌ للعلم والعرفان، مسنود بالبيان والبرهان والعرفان، يحتضن الحياةَ كلها ويغذيها ويثريها... فليس لمنهل التصوف نظير في العمق بين "التصورات الروحية" في الشرق، أو "التيارات الفلسفية" في الغرب.

٨- علم الكلام

الكلام، معناه في اللغة: القول، والمحادثة، واللغة، والقرآن الكريم، والأوامر والنواهي الإلهية. ومعناه المصطلح عليه هو مجموع المعارف التي يُستهدف بها الدفاعُ عن منظومة المعتقدات الإسلامية بالأدلة العقلية والنقلية، والحفاظُ على استقامة فكر المؤمنين، وردُّ الشبهات والشكوك التي تثار أو يحتمل إثارتها ضد الدين، وحراسةُ "العقائد الإسلامية الحقة" في إطار السُّنة السَّنِية إزاء بعض التيارات الفلسفية الخاطئة.

والكلام -من مقترب آخر- هو مجموع الدساتير والقوانين الحاوية على نظرياتٍ علمية ومعرفية، والتي تَربِط بين أصول الدين وبين الكتاب والسنة وآراء السلف الصالح في ضوئهما. وقد جمع كثير من العلماء والمفكرين وفلاسفة الإسلام هذه الدساتير الكلامية في مصنفات كثيرة، وجرى تدريسها في "المدارس الدينية".

وقد حرص قسم من المفكرين والعلماء على البقاء في إطار الكتاب والسنة ولم يسوقوا رأيا منهم في هذه المسائل، في حين أن البعض الآخر لم ير بأساً في مد البيان بالبرهان وإثرائه بالعرفان، وتوسيعِه بالمحصلات الصوفية والفلسفية، بل رأوا أن الاشتغال بها على هذا الوجه خدمة للدين. صحيح أن التوسع على هذا النحو قد أَدخل إلى النظام الفكري الإسلامي

أفكارا ضالة من رواسب الميراث القديم، لكن الواقع أيضاً أنه فَتَحَ أمام المسلمين آفاقاً عظيمة وواسعة.

ولسنا بصدد الجدال حول فوائدِ علم الكلام أو أضراره، بل غاية ما نريده هنا هو الاكتفاء بالتذكير بأنه مصدر رحب ومعطاء في ميراث ثقافتنا. ولا نريد أن نخوض في أمور تفتح الباب لنقاشات جديدة.

٩-١٠-١١: العرف، العادة، العمل

العرف: عادةٌ وحال وسلوك تلقاها الناس بالقبول الحَسَن وحظيت بالتوقير العام ولم تخالف العقلَ والطبعَ السليم والدينَ، وإن لم تكن قانونا. وعرفه الفقهاء الأحناف من وجه آخر بأنه مجموع الأمور التي يستحسنها العقل والشرع، ولا يستنكرها الفكر السليم.

وهناك فروق بينة بين العادة والعمل وبين العرف؛ فالعرف أو المعروف يطلق على مجموع العادات الحسنة... والحال أن العادة والعمل قد لا يكونان مستحسَنين أحيانا. وقد يظهر ذلك في أوصاف فارقة تُقيَّد بها العادة أو العمل، مثل "عادة حسنة"، أو "عادة قبيحة"، وأيضا "عمل صالح، أو عمل فاسد"... ولا نجد أوصافاً مثلها تجري على العرف.. كذا، العرف، منه ما هو قوليٌّ ومنه ما هو عملي. أما العادة والعمل فينحصران بالأفعال والأعمال. وكذلك، للعادة والعمل جهة تتعلق "بالعقل العاطل" وتستند إلى التقليد وقبول القديم. وقد ذم القرآن الكريم في مواضع عديدة هذا الفهم وعاب على الكفار التقليدَ والاتباع الأعمى بقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾(الزخرف:٢٣)، لكنه مدح العرفَ وحض عليه باسم "المعروف"، أو وصى به على أقل تقدير.

ولم نقصد هنا الإشارةَ إلى العرف والعادة والعمل باعتبار مصدريتها في التشريع واستنادِ قسم من الأحكام إليها، بل باعتبار أن العرف مطلقا، والعادةَ والعمل مقيَّدَين بشرط عدم المخالفة لروح الدين، مَصادرُ مهمةٌ في ميراثنا الثقافي.

وكل من هذه الموضوعات واسعة تستوعب رسائل أو بحوثا طويلة. وهو ما لا نطيقه، ولا يسع له المقام هنا.

وكلُّ قصدِنا في ما كتبناه هنا بإشارات سريعة وإيجاز شديد إلى درجة الاكتفاء بعنوان الموضوع وتعريفِه أحيانا، هو التذكير بمصادرِ ثقافتنا الموروثة والبناء الداخلي لهذه المصادر في إطار المقالة الضيق. وأردنا هنا -في الوقت نفسه- أن نذكِّر بخصوصيةٍ ذاتية فينا بالتنبيه على الوحدة العضوية بين المصادر المتنوعة لثقافتنا الموروثة والتي تبدو وكأنها منفصلة عن بعضها البعض. وقد حرصنا أثناء سردنا لهذه المواضيع على عدم الخوض في فانتازيات، وابتعدنا عن عثرات التصنع وما يشبهه من الأمور، وصَرَفْنا جل قصدنا إلى التركيز على البعد الأبستمولوجي (Epistemology)، ومن ثم حاولنا التذكير بالمناسبات بين المجالات المتنوعة لميراثنا الثقافي والفكري. وبناء على ضرورة التذكير بكل هذه المواضيع، فقد حصرنا مساحة كل موضوع، وأطللنا عليه بنظرةٍ كلية (holistic)، وتَرَكْنَا شرْحَ تفاصيله لفراسة المتخصصين. وإننا نربط انصراف التفكير في المستقبل إلى التفصيل في هذه المواضيع بما إذا وافى العمر، ونكتفي بالإشارة إلى الأبحر بقطرات.

روح الإسلام



نجزم أنه إن كان هناك جو يسمح لبني الإنسان أن يتنفسوا منتعشين فما هو إلا جو الإسلام. فلم تزد النُّظُم المفروضة على الإنسانية جمعاء إبان القرن أو القرنين الأخيرين إلا اضطرابا وشقاء. وأول الداء أنها جميعاً كانت غريبة عن روح الإنسان غربة بعيدة. وربما ائتلف الإنسان مع بعضها ائتلافاً مؤقتا، لكن الرفض وعُسْرَ القبول الداخليَين لم يسكنا أبداً. وكان ذلك يولّد في كثير من الناس شكوكاً سارية في البواطن حيال كل الأنماط والنُّظُم الفكرية، فكان من الطبيعي أن يكون هذا النوعُ من انعدام الثقة والشك والتوجس سبباً لأزمات جديدة. لذلك صار كل نداءٍ جديد وكأنه سبب لأزمة جديدة ويستتبع رفضاً جديداً. ولا عجب في ذلك، لأن هذه النظم المفروضة على الإنسانية كانت تستند على افتراضات تنطوي على ثغرات واسعة وكثيرةٍ في العلاقة بين الحياة والكون والخالق. ومن جانب آخر، إنَّ نَقْص العلمِ بماهية الإنسان، بل الجهل بها، وكذا إقصاء الحياة القلبية والروحية للإنسان إقصاءً كليا، هما من النواقص المهولة التي لا يملأ شيءٌ الثغراتِ الحاصلةَ من جرائهما في هذه الأنظمة.

ولم يتيسر لأي نظامٍ وَضْعُ توازنٍ بالغ الدقةِ في تصور العلاقة بين (الإنسان - الكائنات - الله) من غير تركِ فراغاتٍ إلا للإسلام. فإن التشكُّلاتِ المعنويةَ أو المنظوماتِ الماديةَ قبله، أو النُّظُمَ والتيارات التي

وَعدت بالخلاص والأمل بعده، لم تُشبِع حاجاتِ الإنسانية، بل قَصُرَتْ عن الآمال التي وَعدت بها. و"الغلطُ" العظيم اليوم هو الانصراف إلى إشباع الرغبات الجسمانية في حين أن لَهَفَ الإنسانية أو حاجتها تَرجع إلى الجوع القلبي والروحي. إن الكد في إشباع الجوع واللهف المعنويَين بتسمين الأبدان لا يختلف عن إرواء الظمآن بماء البحر!. ومنذ سنين وسنين تعيش الإنسانية جمعاء، وعالَمُنا خاصة، في هذه الحلقة المفرغة... فكلُّ حملة وهمَّة لإشباع رغبات الإنسان البدنية، أبعدَتْه عن الروح مسافة أخرى، وكلُّ انسياق منه نحو الابتعاد، وَلَّدت فيه لونا جديدا من الهذيان!. وكلَّما طال توجُّعُ الإنسان في قبضة حاجاته الجسمانية جراءَ خواءِ حياتِه القلبيةِ والروحية في هذه المرحلة، ازداد وقاحةً باعتبار البدن، فنَصب مطالبَه النفسانية حاكما وحيداً على القيم الإنسانية جمعاء. والحال أن الابتعاد عن روح الإسلام هو السبب الأساس الكامن لمعاناة الإنسانية جمعاء من جوعٍ وعطشٍ حقيقيَين.

وإذ نقول "روح الإسلام"، لا نعني حاله الذي يبدو في واقعنا الحاضر ومن زاوية نظرنا ووِجهةِ تقويمنا له، باهتا وذاويا وفاقدا بَريقَ جاذبيته السماوية. بل بألوانه ورقوشه البراقة، وكما كانت -ولا زالت- أرواحٌ طاهرةٌ تستشعره فتتذوقه، وكما أحسَّه إنسانُ عصرِ السعادة[١] وعاشه. هذا الروح لا يزال كالبحر الذي لا تسكن أمواجه، طاهراً أبداً، ندياً، عميقاً لا يتكدر قط بالأوساخ الفكرية لأي زمانٍ أو مكانٍ. لكنَّ الوصولَ إليه وتمامَ الاستفادة منه يتطلب تثبيتا للنية وتسديدا لزاوية النظر، وعلوا في الهمة وثباتا في المثابرة، وصدقا في التوجه وثقة بالأصل الذي ينتمي إليه.

[١] عصر السعادة: هو الفترة الزمنية التي عاشها الرسول ﷺ.

ومهما كان الروح هذا كاملاً وربانيا وفعَّالا، فلن يستفيد منه منتسبوه وممثلوه استفادة تامة، مع عظم ثرائه وسعته، إلا بنية سليمة متمادية، ونظرٍ وتقويم صائب، وعزم ثابت على الكشف والاجتهاد، واعتقاد واطمئنان إلى إن كل مطلوب ومنشود هو فيه. وبغير ذلكم يصعب عليهم التغلب على الجوع والفقر وشتى الاحتياجات والعلل، حتى ولو قضوا عمراً في الالتصاق بهذه الخزينة السماوية... لأن العالَم الذي لم يزل يُمَدُّ بغذاء القرآن والسنة لن يطمئن بشيء غيرهما. وأنا شخصيا أومِن بأن كثيراً من معضلات العصر المستعصية ستنحل، وكثيراً من أمواج الأزمات والدواهي المتلاطمة ستتكسر أو تتلاشى أضرارها في أقل تقدير، ذلك في حال التمسك بالقرآن والسنة وإدراك مراميهما بالدرجة التي كان عليها المخاطَبون بهما في العصور الأولى.

والحقيقة أن الإسلام في عالمنا، كان -وما زال- مصدرَ غذائنا الأصل كحليب أمهاتنا، وكان له الدور الأساس في توجيه مشاعرنا وأفكارنا وتقويماتنا، وكان رفيقَنا في بيوتنا، وهواءَنا الذي نتنفسه في حياتنا أبداً، ولم نشعر قط بغربةٍ أو وحشة حياله. وبالمقابل، فكم طَرقتْ الأيديولوجياتُ والمبادئُ الغريبةُ المَنشَأِ أبوابَنا وهزت نعراتُها أزِقَّتَنا، لكنها لم تَلِج دواخلَنا، ولم تمتزج بأرواحنا، ولم تَكُنْ لنا أو نكن لها البتة؛ بل أثارت حفيظتنا من أول وهلة، لغرابة صورها ووجوهها، وأثارت شكوكنا فيها، وتقززت بيئتُنا الفكريةُ منها، فلم تجد لها محلاً في جسم أمتنا إلا بمقدار الضعف الذي أصاب جهازنا المناعي.

لقد كان الإسلام -وما يزال- يحتضن حياتَنا وحاجاتِنا وهياجَ مشاعرنا، بحيث إننا وجدناه قريباً منا في وطننا وجغرافيتنا ومُدُنِنا وبيوتنا إلى درجةِ

أن كثيرا من حركاتنا وتصرفاتنا وفعالياتنا كاد يصطبغ بشيء كثير من ألوانه؛ فصبغته في سلوكياتنا وأعضائنا، ومَدُّه وجَزْرُهُ في أذهاننا، وصوتُه ونَفَسه في قلوبنا، وآثارُه على وجوهنا، وثَفِناتُه في رُكبنا وكعوبنا، وفواصلُه المُريحة لنا إبان تَعَبِنَا، وإلهاماتُه الداعية إلى التفكر إبان راحتنا، وتصرفاتُه في أرواحنا، ومشاركته لنا في أموالنا، وكونُه صاحبَ القول الفصل في حياتنا الفردية والعائلية، وحضُّه الصادقُ لنا على التحابب والتعانق فيما بيننا، ووعوده بالخلود في انبعاث آمالنا وأمانينا، وحلوله المتوازنة التي ينشرح لها القلب في مسائل الحق والعدالة والمساواة... كل هذا ربَطَنَا به من أعماقنا، بل جَعَلَنا مُدمِنين عليه، حتى إنه لو تخلى عنا يوما -لا سمح الله- فأظن أننا سنهلك هماً وغماً وكمدا.

لقد استغلت نُظُمٌ معلومة قِيَماً مثلَ الحق والعدالة والمساواة والأمن العالمي كوسيلة للوصول إلى أهداف معينة، أو لتحقيق بعض المبادئ والتعاليم. أما الإسلام، فقد تَطلَّع إلى هذه القيم العالمية في نقطة الالتقاء بين سعادة الناس ورضا الحق تعالى، فحَقَّق إرادةَ الله تعالى ومطالبَ البشر في آن واحد. وهو يطالب المسلمين بأن يتمسكوا هم أيضا بهذه النقطة. وبناء على هذا فالمسلمون إذا رعوا "الحق" و"العدالة" و"المساواة" بدرجةِ أهمية الموضوع، ولم يستخدموا هذه الأفكار السامية كمطايا لتلبية رغباتهم الجسمانية والنفسانية، وأداموها مشدودةَ الوثاق بالحق تعالى، فليس ببعيد أن يصلوا -إن لم يكن في العاجل ففي الآجل- إلى مقام يُغبَطون عليه.. هذا المقام هو مقام فيه يحبون الله، ويحبهم الله، ويغبطهم البشر. إن الدافع الأول في حيازة هذا المقام هو قوة الإسلام التي لا تُقهَر، ونمطُ حياةِ المسلمين المغبوطة.

إن الإسلام لا يحتاج إلى دعايات كحاجة الأيديولوجيات والمبادئ المستوردة من الخارج؛ فمرجعيته هو ذاته وسلوكياتُ ممثليه الأوفياء. إنه يحث دائما على الوقوف بجانب الحق والنهوضِ به، ويَعُدُّ توقير الحق واحترامَه أكبر العبادات. يقول "محمد عاكف" في بيت له (ترجمته):

"الحق مِن أظهرِ أسماء الخالق الحسنى والتي ما لها عد...

فما أعظمه شرفاً أن يَنهضَ العبدُ بالحق وعنه يذودَ".

فقد قال هذه الفكرةَ اللطيفة في إطار تلك النكتة الفريدة المذكورة آنفاً، ونحن نعدُّها صوتاً ونفساً لحقيقةٍ لن نتخلى عنها أبداً.

الإسلام يتحرك أبداً وفاقاً لقاعدةِ "القوةُ في الحق"، ولا يستسلم أبدا لتسلط القوة الظالمةِ أو الجامحة. فهو يقف منتصباً ويمشي رجولةً، لا يُشجِّع الظلم، ولا يخضع للظالم، فيقول كما قال "الشاعر باقي" (مترجماً):

"لن يشوب وجوهَنا للأرذال تذللٌ...

لِدنيا دنيئةٍ...

وبالله اعتصامنا وعليه التوكل"...

ثم يمضي إلى غايته.

إن التوازن بين الحق والقوةِ موضوعٌ مهم يتطلب اهتماما خاصا وشرحا وبسطا أوسع. ولكنا سنكتفي الآن بالإشارة إليه، ونؤخر تفصيله إلى وقت آخَر.

إن الإسلام يَعتبر العدلَ والاستقامة -في أوسع أُطُرهما- نمطَ حياةٍ للفرد والعائلة والمجتمع.

نعم، إن الفرد الذي رَبَطَ حياتَه بالإسلام، يفكر في استقامةٍ ويعيش في استقامة، ويسعى للبقاء في إطار الحق دائماً، ويتخذ موقفه ضد الظلم

والحيدِ عن الحق، بدءاً من نفسه، ويسعي جاهدا للحفاظ على حقوق الآخرين مثلما يسعى للحفاظ على حقوق نفسه، بل يرعاهم أكثر بدقة متناهية. فيعيش حياة موزونة وكأنها مشدودة إلى ميزان.

إن موضوع العدل والاستقامة أيضا من المواضيع التي يجب أن تُتَنَاوَل وتُحلَّلَ بإسهاب، ولكن إطار هذه المقالة لا يتسع لذلك.

والإسلام يعُدُّ المساواة مَطلبا للحق تعالى ولازماً من لوازم توقير الإنسان، ويَعُدُّ الإخلالَ بها أو إبطالها جرماً عظيماً بحق الإنسانية. فهو يتخذ موقفا واضحا ضد التمييز بسبب اللون أو العِرق أو الإقليم أو الطبقة الاجتماعية، ولا يَفْتُرُ في الكفاح الفكري ضد هذا الفهم المنحرف في كل مجال. والإسلام يهتم اهتماما بالغا بمراعاة فوارق الاستعداداتِ والمهارات ويشجِّع على تنميتها، ويَرعى تكافؤَ الفرص والاستفادةَ المتساوية من الإمكانات. فهو يرفض الكيانات القائمة على أساس الأصل والأرومة، ويُبطل -إبطالاً باتا- الحاكميةَ لفئة معينة كنوع من الأوليغارشية[1] (حكم الأقلية) ولو في أي وحدة من وحدات الحياة. إنه يفسح السبيل للمواهب الفردية ويحفز النجاح، ويَعُدُّ ذلك من ضروراتِ ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾(الزخرف:٣٢) ولكنه يواصل الكفاح ضد الأفكار المونارشية.[2]

الإسلام يحتضن كل فرد وفئة بنفس المستوى من الدفء والحنان. ويأخذ بعين الاعتبار حاجاتِ الجميع وطلباتِهم في خط سوي واحد، وينادي بصوت جهوري أنْ ليس إنسانٌ فوق إنسان، ويؤكد بلا كلل على

[1] الأوليغارشية أو حكم القلة: هي شكل من أشكال الحكم بحيث تكون السلطة السياسية محصورة بيد فئة صغيرة من المجتمع تتميز بالمال أو النسب أو السلطة العسكرية.

[2] هي سلطة الأقلية الواحدية، كما هي في الأشكال المَلكية الوراثية وسلطة الحزب الواحد أو الطبقة الواحدة، أو الأشكال المؤسسة على قرابة الدم والتي هي فوق سلطة العائلة الوراثية كالعشيرة والقبيلة.

المساواة وتكافؤ الفرص معاً. ويحمل حملةً لا هوادة فيها على إخماد الاستعدادات في دياجير الإهمال، أو تكبيل القابليات وشلّها في قيود الميلاد غير النخبوي. ويقف منتصباً حيال الصعود والرقي من غير حركيةٍ داخلية للفرد أو جهدٍ صادق منه، ويعلن على الملأِ أنَّ هذه الحال غير أخلاقية، ويُرجِع هذه السلوكيات اللاأخلاقية إلى بؤس الروح وانحطاطه.

والإسلام يسعى إلى انتزاع البؤس والانحطاط والذلة من الأرواح، بإزالة الأسباب والدوافع المادية، وبتحفيز قوة الإرادة الفردية بمشاعر الإيمان والمعرفة والإحسان. نعم، إن صيانة الروح من كل أنواع الدناءة والبؤس والانحطاط، إنما يتأتى باللجوء إلى الدرع السابغ المكوَّن من الإيمان القوي والمعرفةِ الواسعة والمراقبة الدائمة. وإن بلوغ الروح بهذه التجهيزات إلى الإشباع والاطمئنان يَفتح عين الإنسان على أمور حياتية فائقة الأهمية وفوق أمور البدن والجسمانية بأبعاد شاسعة. وعلى الضد، فالمحرومون من التجهز بهذا الجهاز يتعسر -أشد العسر- صونُهم للقيم الإنسانية وصمودهم أمداً طويلاً. فبؤسُ الروح وانحطاطُه يبعِد الفرد عن ذاتيته، فيكون عرضة للانجراف إلى هنا وهناك، والانصبابِ في هذا القالب أو ذاك، وينجرُّ إلى انفصام لا مفر معه من الوقوع في خدمة أبواب الأسياد، والاسترقاقِ لهم عاجلاً أو آجلاً.

ونحن نؤمن بأنا إذا تَفَهَّمنا الحركيةَ التي أوجدتها -أو توجدها- العقيدةُ الإسلامية في القلوب المؤمنة، فسنفهم الأسباب والدوافع الحقيقيةَ للهبوط والصعود أو السقوط والارتقاء على مستوى الفرد أو المجتمع، بل وسندرك -من جديد- الأسسَ المهمة التي نجمع بها شملنا ونرجع بها إلى وعينا ونلحق بالقافلة التي تأخَّرنا عنها. وأنموذجُنا الذي نَحتذِي به في هذه

القضية هي أصولنا الذهبية التي حَملتْ الراياتِ في مراحل الارتقاء كافة، وفي المقدمة رجال عصر السعادة (النبوية). فإذا استَقْوَينا -في خط فهمهم ذاك- بماضينا التليد كمصدر سرعةٍ منطلقة "عن قوة الطرد المركزي"، وتَمَسَّكْنا بجذورنا المعنوية الذاتية أشد التمسك، "وتوكَّلنا على الله، وتشبثنا بالسعي والعمل، واستسلمنا للحكمة الإلهية" (كما قال عاكف) -ولا بد من ذلك-، فحينئذٍ لا شك ولا ريب في أن القمم التي تبدو وكأنها عصية على العبور ستتمهد، وستنبسط السهول بلا عوائق.

إن مجتمع عصر السعادة والمهندسين العظام لتاريخ أمتنا، هم الذين مثلوا الإسلام حق التمثيل، سواء في حياة "الفكر والحركية"، أو في عالم الوجدان. فقد نشأوا وتربوا في ظل القرآن والإقليم الفياض للإسلام، وعاشوا أعمارهم في أفقٍ صعبِ المنال يَفصل بين الفناء والخلود.

إن تحول هذا المجتمع الذي كان قبل الإسلام صلبا للغاية، بل وحشيا ومتعصبا لعاداته ومعانِدا أشد العناد ومتهاويا بالأخلاق السيئة والعادات الفاسدة... إن تحول هؤلاء بحملة واحدة إلى جماعة أنموذجية؛ بعقلها وقلبها وروحها ونَفْسها ليس إلا معجزة باهرة للإسلام. فهؤلاء أنصَتوا للقرآن وتربوا بغذاء القرآن وعشقوا صاحب القرآن ﷺ، فإذا بهم يجدون أنفسهم في صعيد البناء والإعمار والإحياء بعوالمهم الشعورية والفكرية والحسية... لقد تبدلوا من أخمص القدمين إلى ذروة الرأس بحماسِ انبعاثٍ جديد، واجتَنَبوا الأخلاق السيئة والعاداتِ القاتلة، وحارَبوا -بلا هوادةٍ- جميع الرغباتِ الجسمانيةَ غيرَ المشروعة بمخالفتهم الدائبة للنفس، وكممثلين فضلاء لنظامٍ فاضل عَقَدوا العزمَ على "إحياء الآخرين"، ففَضَّلوا "إحياء غيرهم" علَى حياة أنفسم، وكرسوا حياتهم

لإسعاد الآخرين، وظلوا يقظين وحذرين دائما حيالَ أيِّ انزلاق، بملاحظة احتمال الضعف البشري. وفي حال تعثُّرهم بالمعاصي توجَّهوا إلى الحق تعالى بالتوبة والإنابة والأوبة بقلوبٍ خالصة أشد الخلوص، وتحروا على الدوام عن سبل الارتقاء العمودي، فعاشوا مبرمَجين على التحليق في الشواهق. لم يستسلموا قط بل صمدوا شامخين حيال أي انسحاق ينشأ عن قلتهم، أو وحشةٍ تنبع من الغربة والوحدة، أو تعرُّضِهم -بين حين وآخر- لأنواع الاضطهاد والتخويف والغبن والظلم والحرمان. وإلى جانب هذا المستوى من المقاومة الصامدة تَصرَّف كل واحد منهم وكأنه "فدائيُّ المحبة"؛ فاحتضنوا كل أحد وفتحوا لهم صدورهم واحترموا أفكار الآخرين وسعوا من أجل تحقيق المتطلبات اللازمة للارتقاء إلى مستوى "الإنسان الكامل". صنعوا عالماً جديداً كل الجدة بالمعارف المنسابة إلى أرواحهم من القرآن والسنة، وحققوا على أرض الواقع قيمَهم الإنسانية الكامنة فصاروا قدوة للآتين من بعدهم.

أولئك هم جذورنا الذين توجهوا إلى الخالق ووجدوا قبلتهم الحقيقية؛ فبالعبودية للحق انعتقوا من العبودية للهوى، والعبوديةِ للقوة، والعبوديةِ للشهوة، والعبوديةِ للشهرة وغيرها من أنواع العبوديات... وتجردوا من السفالات التي تُلقي بالإنسان في أحضان البؤس. نحن كنا أولئك، ونحن اليوم "تمثُّلُهم" في الحاضر، وهم أصولنا، وسيكون الآتون من بعدنا هم فروعنا.

نحن أبناء الإسلام؛ أَنْصَتْنا إليه في تنهيدة الأمهات في بيوتنا، واستمعناه في صرير المهاد، ورضعناه من أثداء أمهاتنا، وتنفسناه في هوائنا. كان الإسلام أبداً في شغاف قلوبنا، ولم يقف غريباً عنا بتاتا.

نظامنا الفكري من وجهة أخرى



إن العقل والقلب والفكر وأحاسيس الإنسان وكذا الوحي بكل ثمراتها، وأمور أخرى غيرها... لها جميعا في نظامنا الفكري أهميةٌ بالغة وكأنها وجوه متنوعة لشيء واحد. ونستطيع القول دائما بأن هذا النظام أوسع وأرحب من غيره من حيث سعة المساحة التي استقر عليها.

لأن الإسلام رعى دائماً هذا الانفتاح والسعة في رسائله وتبليغاته إلى الإنسانية. فإنه إذ أقام مناسباته مع المخاطَبين والمنتسبين إليه، اتخذ -في إطار مرجعية العقل- سبيلَ حوارٍ فكريِّ البعد، متلون بالمشاعر، مستند إلى الوحي، ورحيب بالإلهام، وبنى أحكامَه على أسس تربط بين الإنسان والوجود والخالق، متينةٍ وملائمةٍ للمحكمات القرآنية ومعقولةٍ ومنطقيةٍ.

إن هذه المناسبة التي أسسها الإسلام على ضوء القرآن لهي الأشد قوة، والأفضل توافقاً مع الحس الإنساني والأقربُ إلى محاكمته الفكرية، حتى إننا لا نجد في نظام قبله ولا بعده مثيلاً له في رعاية التوازن بين العقل والقلب والروح.

نعم، إن الإسلام هو النظام الأمثل والأنسب مع سجية الإنسان وطبيعته؛ سواءٌ من وجهة عالمه الداخلي الضيق أو من وجهة علاقته بالعالم الكبير الشامل، ولا يوجد مثيل ولا شبيه له في الاستجابة لحاجات الإنسان، ولن يوجد!. وهذا الحال طبيعي للغاية، لأن مصدره الأول هو الوحي الصافي

النقي، وتفسيره الأول هي السنة؛ فكما القرآن معجز، كذلك نظامه المنبثق والمكوَّن من خطاباته وتعاليمه معجز.. وكما أن القرآن لا مثيل ولا شبيه له، فلا مثيل أو نظير للإسلام الذي يعد من آثاره.

في العالم النوراني للقرآن، يتغير الوجود والأشياء والطبيعة فجاءةً، وتتحول هذه الأمور وتأخذ صورا مختلفة، ويبلغ الإنسان وأحاسيسُه المادية والمعنوية إلى أعماق غير معهودة، ويسمو العقل -بفضل ذلك البيان المعجز- إلى رؤية الأشياء على حقيقتها، ويتمكن القلب في جوه النيِّر من التفسح تماماً فينمو ويتطور، والروح إنما يحلّق بأجنحة وَارِدَاتِه، فيعلو إلى "عرش كماله" (كمال الروح).. يعلو إلى أن يربط كلَّ شيء بـ"سلطنة القلوب". هذا ما حصل أمس، وهذا ما يحصل اليوم، وهذا ما سيحصل غداً. ويكفي لتحقيق ذلك أن يستشعر المؤمنون القرآنَ ويتشربوه بعواطفهم وحسهم وشعورهم وإدراكهم... فيستشعروه غضا طريا صافيا نورانيا يؤجج مشاعر مخاطبيه كما كان في عهد نزوله. والواقع أن الذين لديهم استعدادٌ وقوةُ إحساسٍ ظلوا يجدون في القرآن نفحاتِ العشق والإثارة والشوق والاشتياق، وأن من أنصتوا إليه بأُذُن القلب انتفضوا دائماً بنداء "الانبعاث بعد الموت" المسموعِ منه عاليا.

نعم، إن القرآن قد جاء بمفهوم مختلف لـ"الجهاد" من حيث كنهه ونكتته؛ جهادِ تحفيزِ الناس ليتعرفوا على أنفسهم وذواتهم.. وجهادِ إنشاء العلاقة مع الوجود كله.. وجهاد التمرد على الجسمانية والنفسانية.. وجهاد أن ينتصر المؤمن على نفسه ويفتحَ قلعةَ ذاتِه من الداخل.. وجهاد الاستعدادِ المستمر واتخاذِ الموقف الواضح ضد كل العواطف والغرائز التي تهبط بالإنسان من أمثال: العداوةِ والحقد والكراهية والشهوة والضغن

والحرص والحسد.. وجهادِ أن يربط كلٌّ أحد نفسَه بفكر سام وهدف عال.. وجهادِ تخطِّي كل المخاوف والتطلعات.. وجهادِ اعتبار الدنيا غرفةَ انتظارٍ للآخرة وإحياء الأخرويات وإعمار ما هنا كسبيل إلى ما هناك إلى غير ذلك من أنواع الجهاد الكثيرة.

لقد ظل القرآن -قرابة ربع قرن- يقدم للناس معظم رسائل الجهاد من هذا القبيل، حتى نما بتبليغاته الباعثة على الحياة، فصار ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾(إبراهيم:٢٤) فانتشر وحوَّل مساحات واسعة إلى جناتٍ... نعم، كانت كل آية في عهد النزول كأنها صوت شلالٍ هادر، وماء كوثر عذب متدفق كفواراتٍ دائمة الانبجاس، وبالأحرى، كالفواكه في تباشيرها الأولى القادمة من عالم الألوهية. فكان المشتاقون الطافحون رغبةً يجْنُون هذه الفواكه فور ظهورها بمنتهى الحماس، ويقدمونها لتقدير القلوب والأرواح ويتتابع التقديم والتقدير كرة بعد كرة بلا فتور، ويقعد ويقوم أولئك المحظوظون كل يوم على هذه المائدة السماوية الآخذة بالألباب. فبفضل هذه الخطوة، كان أولئك المخاطبون المتدفقون حيويةً، يعيشون -بزخاتِ غيث الوحي الهاطل كل يوم على آفاقهم- "انبعاثاتٍ بعد الموت" متشابكةً ومتداخلةً كأنهم سمعوا صوت الصُّورِ من اللانهاية، فيغدو كلٌ منهم "خضراً"، فيَنفخ روح الحياة في كل من يمر به... وكانوا يتسلقون ذرى حظوظهم السعيدة "بانبعاثاتٍ" تترى، في حيوية عظيمة دائمة، واشتياق طافح لا يستكين، ورغبات جياشة. الله تعالى يناديهم إلى الانبعاث في العواطف والفكر والروح والقلب بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٤)، وهم بدورهم يردون على هذا النداء من دون تردد فيقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي

لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾(آل عمران:١٩٣) ويهرولون لتلبية هذه الدعوة الإلهية.

إن سر حيويتهم الدائمة فيهم كامن في الجو الذي كانوا يعيشونه؛ فأولئك كانوا يستمعون إلى القرآن بقلوبهم ومن غير حكم مسبق، ويؤمنون به بإخلاص تام، ويتوجهون إلى الله في نور هذا الكتاب الجليل، ويحبونه من أعماق قلوبهم.. وكانوا لا يتوقفون عند حدود الحب، بل كانوا يسعون -بكل شوق عميق- في سبيل تحبيبه إلى كل الناس وجعله مقبولا لديهم. يعتنون أشد الاعتناء لئلا تتلطخ مشاعرهم وأفكارهم الإسلامية بألوان نزواتهم، ويسعون إلى الترنم بالإسلام وتمثله بذات لونه ونقوشه وبهائه، فلذلك كانوا يتلقون من المخاطَبين "الجواب الصواب".

ففي هذا الجو المضيء النيّر كان الإسلام والقرآنُ يُفهَمان على حقيقتهما؛ فيَصِل إليه الجميع بلا عنت ولا رهق ولا عائق، ويفهمونه، ويرون فيه بعين القلب عظمةَ الحق تعالى، ويقيِّمون كل شي تقييما صحيحا بعقولهم ومنطقهم ومحاكمتهم التي لم تفسد بالدرن والحكم المسبق. ولم يكونوا يَجمُدون عند العلم المجرد مطلقا، بل يُردِفون العمل بالعلم من فورهم، ويضعون "التمثل" قبل العلم، ويُحوِّلون المعلومات وما حصَّلوه من معارف إلى قوة محرِّكة، فيحوِّلون علومهم النظرية إلى واقع عملي بيسر وسهولة. فهؤلاء أدركوا في وجدانهم الرحيب الغاية من خلق الإنسان وخلق الوجود، فتذوَّقوا في التوجه إلى الله ومعيتِه تعالى ما يجده غيرهم في المادة والحظوظ الجسمانية والرغبات النفسانية، وتخلصوا من كل ضيق يتعلق بالجسمانية وانفسحوا كل يوم في إقليم القلب الواسع الرحب إلى عمق جديد.

لقد تكررت الحياة -ولو بفواصل زمنية- في ظل تفسيرٍ قرآنيٍّ سليم، وتصوُّرٍ إسلاميٍّ مستقيم، وبالأحرى في نظامِ حياةٍ نابع من التمثل بالإسلام، ذي الأفق السماوي المذهل للعقل، بحيث لم يبلغ الخيالُ شأوَه حتى في تصورات المدن الفاضلة المثالية. ومَن يدري لعل تلك الحياة القرآنية ستتكرر مرات عديدة فيما يأتي من الزمان!؟ فما من عائق يحُول دون الحياة الروحانية بهذه الدرجة مهما تغير الزمان وتحولت العصور.

وإن مثل هذه الحظوة يمكن أن تتحقق في الحاضر أيضاً، إذا تشبَّع المسلمون -في إطارِ ما أشرنا إليه آنفاً- بروح كفاحٍ مكين، ولم ينقادوا للفتور مهما كانت الظروف، وتصرفوا دائما بوعيٍ وانتباه، وتعالوا على النفس والجسمانية فأداموا حياتهم حسب أفق القلب والروح، وظلوا يقظِين ومنتبهين حيالَ أيِّ مساوئ قد تصدر منهم بمقتصى طبائعهم وماهيتهم البشرية، ولم يتركوا مجالا لظهور أي فكرٍ سلبي في عوالمهم الداخلية.

وإن من أهم جوانب العمق في التصور الإسلامي هو دعوته إلى إعمار الحياة الدنيا التي قد تبدو مستحقرة لدى البعض، وذلك بربط كل شيء برضا الحق تعالى، وإلى جعْلِ الدنيا مكانا مغبوطا ومحبوبا بترتيبها وتجهيزها على اعتبار أنها غرفةُ انتظارٍ ومَمَرٌّ إلى الآخرة... فيمكن في إطار هذه الفكرة النظرُ إلى الدنيا على أنها مزرعةٌ ومَعْبَرٌ وميناءٌ ومنطلَق للوصول إلى الآخرة.

نعم، إن الإسلام إذ يحاور مخاطبيه، يَأخذ بنظر الاعتبار كلَّ مشاعرهم الظاهرة والباطنة، وكلَّ أعماقهم من أمثال الفكر والحس والشعور والمنطق والإدراك... إنه يَعتبر الإنسانَ كلاً جامعاً مع لطائفه وأحاسيسه، ويخاطبه في هذا الإطار، فيستجيب لرغباته ويسد احتياجاته الطبيعية والبشرية،

ويمهِّد له البيئةَ الصالحة لانفساحه بيسر في كل زمان وفي كل مكان.

ومن خصوصيات نظام الفكر الإسلامي اعتمادُه على مرجعية الكتاب والسنة أكثر من سائر مصادر العلم والمعرفة. فهو بهذا الوجه يتميز عن التنظيمات الدينية والتيارات الفلسفية كلها. فالإسلام منذ ظهوره، باعَدَ بينه وبين الميراث القديم والتنظيماتِ المتنوعة التي تظهر بصورة الدين، وأراد أن يبقى بكيانه وذاتيته... ومع أنه وقَّرَ ما هو غير محرَّف ومبدَّلٍ منها وسماها "شَرْع مَنْ قَبْلَنَا"، لكنه بقي في الأصل مستَمِدّاً من المصادر الأساسية التي نعتبرها "المنهل العذب المورود".

والحق أن الإسلام لم يكن -في أية حال- بحاجة إلى الميراث القديم أو الأحلامِ والفانتازيات الجديدة. وكيف يحتاج إليها وكان سنده القرآن؟ القرآنُ "المتضمِّنُ -إجمالاً- كلَّ الكتب التي جاء بها الأنبياء في مختلف العصور، وكلَّ رسائل الأولياء بأنواع مشاربهم، وكل آثار الأصفياء بمسالكهم المتشعبة.... اللامعُ من كل جهاتِه، من فوقه وتحته، وأمامه ووورائه، ويمينه وشماله... المنغلقُ تجاه كل الأوهام والشبهات... كتابٌ نقطةُ استنادِه الوحيُ السماوي والكلامُ الأزلي باليقين... وهدفه وغايته السعادة الأبدية بالمشاهدة... وباطنه صريحُ الهداية الخالصة... وأعلاه أنوار الإيمان... وأسفله الدليل والبرهان، بعلم اليقين... ويمينه تسليم القلب والوجدان، بالتجربة... وشماله تسخير العقل والإذعان، بعين اليقين... وثمرته رحمة الرحمان ودار الجنان"[١]. لذلك لم يجد الإسلامُ المتغذي من هذا الكتاب حاجةً أبداً لا إلى تخيلات المثاليين ولا إلى محصلاتِ منطق الواقعيين، ولا أصولِ وطرق التجريبيين أو

[١] من الكلمات (الكلمة الخامسة والعشرون)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ص: ٤١٩، دار النيل ط١، ٢٠٠٨، القاهرة. بتصرف يسير.

غيرهم، ولم يَرجع إليها ولم يَعتبرها مصادرَ موثوقا بها.

الإسلام يختلف عن النُّظُم السماوية وغير السماوية كافة، بأسلوبه الخاص ومناهجه، وما اقترحه وقدَّمه من حلول للمعضلات البشرية. وهو من كل وجهٍ أنموذجٌ لـ"الكمال" بكل معنى الكلمة. فهو يضع الإنسان في إطار واسع؛ آخذاً بنظر الاعتبار خصوصياتِه الأساسية بتمامها، ومَلَكاتِه الذهنيةَ والفكرية والروحية بمجموعها، ثم يشحنه بطاقات متنوعة... فلا يحصر توجهَه في العقل والفكر، ولا يقوِّمه كوجود عقلي ومنطقي بحت، ولا يُهمل أحاسيسه، ولا يغض البصر عن آليات وجدانه كما يفعل قسم من المدارس الفلسفية. بل الإسلام ينظر إلى الإنسان بعين الخالق تعالى، فيضعه في قالب متين بكله الذي لا يقبل التجزؤَ والانقسام، ويستجيب لمطالبِ أحاسيسه الداخلية والخارجية، ويُعِدُّه بعناصرِ وجوده المادية والمعنوية كلِّها ليكون جاهزاً للسعادة الدنيوية والأخروية وأهلاً لدخول الجنة.

أما تحقيق هذه الأمور من البداية إلى النهاية، فنحيله إلى الأقلام المتخصصة للإسهاب فيها تمحيصاً وتحرياً.

الوقفة النبوية...
بين يدي الله، وحيال الأحداث



إن من نذر نفسه للحق تعالى واستمد العون من الله ﷻ، يمضي في طريق وظائفه ومسؤولياته من دون أن ينظرَ إلى الوراء. لأنه يعرف القوة الذي استند إليها، ويعرفُ مالكه الذي يعمل هو له وهو مطمئن لصواب هدفه والطريقِ التي يسلكها وأنه في رعايةٍ من لم يتخل عنه -ولو لحظة واحدة- في هذه الطريق ولن يتخلى عنه. فهو -لذلك- لن يقع في تشرذُم فكريٍّ أو حسي أبداً ولن يكابد تشوشا أو تردداً. بل ينكبُّ على أداء ما كُلِّف به في شعور وحساسية مرهفة، ثم ينتظر النتيجة من الله تعالى في اطمئنان مكين... فيهتمُّ اهتماماً بالغا بترك التدخل في شأن الربوبية ويحصُرُ حركاتِه وفعالياتِه في ابتغاء مرضاة الحق سبحانه. فيعتبر رضاه جل وعلا ركنا أساسيا وضروريا... ولذلك تراه موصَد الأبواب -ما استطاع- حيال كل الأمور التي ليس فيها رضا الله تعالى، وساعياً إلى تجنُّب رغبات النفس ومطالبِها. فإذا توعرت الطرق يوماً وتشابكت السبلُ، واحلولكت الآفاقُ، ودوَّت أصداءُ الاضطرابِ والقلق، فلن يتشكى عن الطريق التي يسلكها ولن يرتبك أو يتقهقر، بل يستعينُ بالله ويتشبثُ بالسعي والعمل ويستسلمُ للحكمة الإلهية.. ويفعل كما فعل سيدنا نوح عليه السلام حيث رفع يديه ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾(القمر:١٠)، ثم يلتجئ بتمام الإخلاص والصدق إلى حفظه تعالى

ورعايته ويترقب منه ما يمُنُّ عليه من لحظة الفرَج ونقطةِ الخروج.

وكما أن من العبادة أن يكون الإنسان على طريق الحق جل شأنه، ويُعرِّفَ الناس بالحق سبحانه ويذكِّرهم به، ويقومَ بإرشادِ مَن في الطريق إلى آداب الطريق... فكذلك من العبادة توقُّع كلِّ شيء من الله تعالى، والانتظارُ في الأمور التي تتطلب الانتظار مع الصبر على تباطؤِ الزمان بشكل يستنفد الصبر ويسلب العقل.. فالمرء قد يحظى بالتوفيق في أولِ حَملة أو حركة أو قيام وشبوب، فيجدُ ما يبتغي؛ لكن قد يجول ويصول كجواد أصيل، فلا يحصل على شيء في الظاهر، لكنه يفوز في النهاية بصبره وإقدامه ونيته.

وأحيانا تَقطع الحوادثُ الدنيوية والدنيويون الطريقَ أمام الإنسان، وأحيانا تشتدُّ وطْأَةُ الأحداث المنهمرة فلا يُطاق التصدي لها... فتتعاقب السنوات وتمضى وكأنها "محرَّمٌ" كلها، وتؤدي الطرق إلى "كربلاء" فتنسدُّ وتقف هناك!. لكن القلوب التي تتلقى أوامر الحق تعالى -رغم ذلك كله- لا تهتز ولا تترنح ولا تتذبذب حيالها؛ فيرون كل حادثة "معاملةً" مرتبطة بإرادة الله المتعالية، ويحتسبون المصائبَ امتحانا، ويستقبلون الامتحانات في توكل وتسليم، ويُعلِّمون قُطَّاعَ الطرق -الذين لا يرعون ذمة ولا تقاليد- دروساً في الإنسانية، ويقوِّمون كل حركاتهم وتصرفاتهم في إطار دقة الامتثال للأوامر الآتية من العوالم الماورائية؛ فعينٌ منهم تَرْقُب سلوكياتِ أنفسهم، وعينٌ أخرى ترقُبُ انفراجَ ذلك الباب المتعالي، ويندفعون -بلا تشتيت لهمتهم- نحو هدفهم الذي هو أسمى الأهداف —جَعَلَنا اللهُ فداءً لذلك الهدف السامي الذي هو مرضاته تعالى-، ويتحرزون من التلوث بالتوجه نحو الأغيار ولو بخيالهم.

إن رجلا بهذه الأوصاف من أهل الوفاء والصدق، له همٌّ وحيد بدرجة العشق، هو أن يجد اللهَ كلُّ أحدٍ، ويتوجهَ إليه، ويتخلصَ بالعبودية لله وحده من شتى العبوديات... إنه يطوفُ في الدروب والأسواق، لا يهدأ ولا يسكن... صوتُه ونَفَسه ترجمانٌ لقلبه، فينادي -نداءً لا ينقطع- بأسلوب مفتوح لقبولِ كلِّ وجدان لم يفسد، فيئن وينادي: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(الأعراف:٥٩) هذا التوجع هو شيء من نواح النبي نوحٍ ؏... ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾(الأعراف:٦٥) وهذا شيء من صراخ النبي هود ؏... ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الشعراء:١٠٧-١٠٩) وهذه التعبيرات الصادقة الخالصة هو البيان المشترك لدعوة أولئك الأنبياء أجمعين... يقول ذلك ويُسمِع خفقاتِ قلبِه أبداً، أو يُهرَع لعون الذين يهتفون بتلك النغمات فينادي: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۝ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنْقِذُونِ ۝ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ۝ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾(يس:٢٠-٢٥) فيأمر اللهُ تعالى أن يدخل الجنة (وفُسّر بأنه قتل فدخل الجنة شهيداً) ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾(يس:٢٠-٢٧) فبهذه الهمهمة والتمتمة يُعلِن عن موقفه تجاه الله وتجاه قومه، (وتَرْوِي كُتُبُ المناقب أن هذه الصرخات القلبية الموازية لأنفاس ملائكة السماء هي للبطل الشجاع حبيب النجار).

وهناك رجل مؤمنٌ من آلِ فرعون مجهولُ الاسم. وهذا البطل الهزبرُ

الذي يخفق فؤادي كلما سمعتُ صوته الهادر، يبدأ كلامه بقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾(غافر:٢٨) ويعني بـ﴿رَجُلاً﴾ موسى ﷺ.. فيدلي بنصائحَ وبياناتٍ بليغة ومؤثرة في الأحاسيس والأفكار الإنسانية كنفخ الصُورِ، فتملأ الصدورَ خشيةً وتُرعِش وتُرعِد أرواحاً، وتَشرح وتريح أرواحاً، ثم يصرخ -في جُرأةٍ- بما ينبغي أن يقال، ويختمُ كلامه بقوله: ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(غافر:٤٣-٤٤).

لقد ظل رجال العزم والإرادة هؤلاء صامدين وثابتين حيال تلك الجموع التي تردَّت وهبطت إلى منتهى الطيش والصلف والهوان والغرور والأنانية والحقد والكره والغضب... تلك الجموع التي اعتَبرت مروءتَهم وشجاعتهم هذه ضلالةً وسفاهة، وخوَّفتهم بالطرد والتهجير من مساكنهم وديارهم، أو هدَّدت أتباعهم بقطع أرجلهم وأيديهم، أو استخفت بهم واحتقرتهم، أو أساءت الظن بمواقفهم النبوية بأن بعض آلهتم اعتراهم بسوء، أو أوعدت هؤلاء المرشدين بالرجم، أو هوَّنت من شأنهم دائماً بقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾(إبراهيم:١٠).

ولكن هؤلاء ردوا عليهم في صوت جهوري: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ﴾(يونس:٧١) هذه الوقفة، وهذا الصوت الهادر، لنبي الطوفان ﷺ... ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا

بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾(الأعراف:٨٩) وهذا التحدي من خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام... ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(هود:٥٤-٥٦) وهذه البيانات تُظهر مواقف النبي هود عليه السلام... ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(هود:٨٨) وهذا تحذير بليغ من النبي شعيب عليه السلام. أما ردهم على قولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾(إبراهيم:١٠)، فكان: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(إبراهيم:١١-١٢) وهذه وقفة من وقفات أولى العزم للأنبياء نوح وهود وصالح وغيرهم من الأنبياء العظام عليهم السلام... فحينما وصل الأمر إلى حد لا يطاق، توجهوا إلى الله تعالى بكل كيانهم، وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(الممتحنة:٤-٥) وهذه باقةُ رسائلَ حول التوكل من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى السائرين في الطريق.

والملحوظ أن أبطالَ القلوبِ هؤلاء، الذين تمتعو بإرادة صلبةٍ ومواقفَ حكيمةٍ، حافَظوا جميعاً على مقصودٍ بعينه وساروا على خط واحد والتزموا قِيَما بعينها. فإنَّ ما كان ينعكس على أحاسيسهم وأفكارهم وسلوكياتهم هي أمور بعينها، ووحدةُ القضية والدعوة تَظهر جليا في

رسالاتهم وتبليغاتهم. وإن تمثيلهم للمهمةِ نفسِها لَجَلِيٌّ وواضح مهما اختلفت بلادهم وأزمانهم. وإن أبرز خصائصهم أنهم في كل أفعالهم لم يطلبوا إلا مرضاة الله تعالى، ولم يستعينوا في جهادهم إلا بقدرته وعنايته، ولم يلتجئوا إلا إلى حفظه وكلاءته، ولم يتحركوا إلا باسمه.

أما الوظيفة الأصلية لهؤلاء القُدسِيّين، فهي إنقاذ البشر من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان، وتحفيزُ الأرواح لتصغي القلوبُ إلى الحق تعالى، وكشفُ ما أمام ستار الأشياء وما وراءها وإراءتُها على حقيقتها حتى تزول الشبهات والشكوك في الأذهان، ونشرُ الأنوار على وجه الوجود ليُقرَأ ككتابٍ وليُطَّلَع عليه كمَشهر ومَعرض وليفسَّر كلوحة فنية بارعة ثم يترجمَ حسب أفق إدراك العصر، وجَعْلُ هذه المسيرة الفانية مَدْرَجاً إلى العوالم الباقية وجِسراً إليها ومزرعة لها وسُوقا لشرائها.

ففي معرض البيان لطَرَف من هذه الأمور يقول الله تعالى في القرآن لسيد السادات ﷺ: ﴿الٓر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(إبراهيم:١) ويُعرِّفنا بإطار من الأُطُر لرسالة النبوة ودورها. وليس سيدنا ﷺ وحيداً في هذا الأمر؛ فهو وظيفة كل الأنبياء من لدن أبينا آدم إلى سيدنا موسى، ومنه إلى سيدنا عيسى عليهم السلام. وانظر كيف يَربط القرآنُ الكريم الأمرَ في السورة نفسها بالنبي موسى عليه السلام أيضاً قائلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾(إبراهيم:٥).

ومع أن ممثلي هذه الرسالة السامية -التي تتطلب شعوراً بالغا بالمسؤولية وإرادةً مكينة وشخصيةً متينة-... مع أن هؤلاء بشر من أمثالنا... لكنهم بشر يختلفون ويتميزون عن غيرهم في قوة عزمهم وأيمانهم وحِدّة

استقامتهم، وعلو أمانتهم، وغاية شعورهم بوظيفتهم، وشدة حرصهم على رضا الحق تعالى، وثبات مَواقفهم وإرادَتِهم حيال المعاصي أبداً، وولعهم بدعوة الناس إلى الصراط المستقيم وكأنها غريزة فيهم؛ فلا يقر قرارهم ولا يعرفون سكونا، إلا "الإرشاد"... "الإرشاد"! فيؤدون وظائفهم في اشتياق غامر، لا يعرفون كللاً أو مللاً، وإذ يوفون بوظائفهم بحساسية مرهفة، لا يتدخلون في شأن الربوبية، فلا ينشغلون بحساب النتائج قط، ولا يرجون إلا عناية الرب جل وعلا. يُرجعون الهداية والضلالة إلى الله تعالى -مع قبولِ وجود أثرٍ للإرادة في مستوى "الشرط العادي"-، ويعترفون برجوع الأمر إليه كله، ويخضعون لحكمه وقضائه بألف نَفْس، ولا بنَفْس واحدة، وكما يرعون الأوامر الشرعية والتنزيلية أدقَّ رعايةٍ، كذلك يتحرون الحِفاظ على الأوامر التكوينية بأعظم العناية. وإن لهم لوقفات وطيدة ومكينة حيال القرآن والكائنات، وأمام مخاطَبِيهم وربِّهم... وهذه هي وقفة "أولي العزم" والمصطفَيْنَ.

وإن همم هؤلاء المصطفَين لعالية علواً بحيث لا هم يكتفون بما يحرِزون، ولا ييأسون أو يرتبكون إذا لم يحصلوا على ما يريدون. يعرفون أن التوفيق من الله، ويُرجعون إخفاقاتهم إلى أنفسهم. يقفون منتصبين في ثبات ويأبون أن ينهاروا. فإن حصلتْ لهم رجَّة من حيث لا يشعرون، استعادوا الثبات من فورهم ثم مضوا لسبيلهم. لا يفرحون بما ربحوا من حظوظ الدنيا فلا ينشدِهون بها، ولا يغتمون أو يتكدرون لفرصة أضاعوها.. فيعرفون أن الحظوظ كلها من الحق سبحانه، فتصيبُهم رعشة ورجفة خشيةَ أن يتعرضوا للابتلاء من وجه، ومن وجهة أخرى تَرى ظهورَهم منحنية خشوعا ومهابة منه تعالى، لعلمهم أن كل الألطاف والإحسانات منه

تعالى... فللوقفة السليمة السديدة لهؤلاء المصطفَين الأخيار، لن يتخلى الله عنهم، بل يؤيدهم بنصره في الدنيا ويشرفهم بوراثة الأرض، ويورثهم "جنة الفردوس" في الآخرة. واقرأ إن شئت شاهداً: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥) والمعنى أن الأرض كلها ستصطبغ بصبغتهم... ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(المؤمنون:١٠-١١)

إن المقومات الداخلية لهذه الهامات السامقة وأطرَ رسالاتهم تستدعي مقالة أخرى مسهبة ومستقلة تُشْبعها شرحاً وتفصيلاً، وقد نعود إليها.

ما يتجلى لنا في وجه النبوة



كما شاء الله تعالى أن تكون الكائنات والأشياء مَعلما من معالم معرفتِه والعلمِ به، كذلك أراد أن يُعَلِّم عباده بلسان الوحي: مطالعةَ الأوامر التكوينية والتنزيلية متداخلةً ومتمازجةً، وتعزيزَ المعاني المنسابة من العين إلى القلب بالنفحات القادمة عن طريق الأُذُن والتي تغشى الروح، وإظهارَ مفهوم الألوهية باعتبار الذات والصفات والأسماء "من حيث هو هو"، وبالتالي إشعارَ العباد مسؤولياتِهم حيال ذلك، وكيفيةَ نهوضهم بهذه المسؤوليات والتكاليف، مع ملاحظة آدابِ وأركانِ الطريق التي يمشون أو سيمشون فيها، وما يترتب على الغاية التي سيَبلُغونها. وكما أن معرفة أمور الغيب المطلقِ معرفةً سليمة وصحيحةً تقتضي الوحيَ، كذلك الوحيُ يقتضي النبوةَ بالضرورة. فبناءً على هذه الضرورة، شَرّفَ الله تعالى كل مرحلة زمنية، و-باعتبار بعض المراحل الزمنية- كل قارة، بوجود نبي من الأنبياء. وبعبارة بديع الزمان النورسي رحمه الله: "إن القدرة الأزلية التي لم تَدَعِ النمل بلا أمير، ولا النحلَ بلا يعسوب، لم تَدَعِ البشريةَ في أي زمان بلا نبي".

خلق الله تعالى هذه الكائنات بعلمه وإرادته، وألبسها لباسَ الوجود الخارجي، وجَهَّزَ كلَّ مخلوقٍ -حي أو ميت، كثيفٍ أو لطيفٍ، أرضيٍّ أو سماوي- بأنواع الحِكَم والمصالح ورَبَطَه بغايات معينة ووجَّهه إلى

أهداف معينة. وإنه تعالى من جانب آخر وفي طولِ موجةٍ تجلٍّ آخرَ لكي يُعْلِم عن ذاته بذاته، ولينبئ -في هذا الصدد- كلَّ أحد بوجوده، وليُشْعِر ذوي الشعور من الموجودات خاصة بغاية خلقهم، ولأي شيء ولأي مكان هم مرشَّحون، وما هي مسؤولياتهم وتكاليفهم... لهذا كله، أَرسَل إلى الأقوام رسلاً مجهَّزين بتجهيزات خاصة لبيان أسرار الألوهية ونظام العبودية... وكما أراد أن يُعْلِمنا بوجوده بواسطة ألوانِ مخلوقاته ورقوشها وأدائها وتناغمها ومعناها ومحتواها، فكذلك أراد بواسطة هؤلاء المختارين المصطفَين أن يُشعِر أرواحَنا في بيانه التنزيلي من وراء سِتار التنزلات، بأسرار الربوبية وغايةِ الخلق، ونتيجةِ الفطرة، ومَوقعِ الإنسان على وجه الأرض، وأحوال المعاد... وذلك حسب مدارك البشر، ودرجةِ حسهم وشعورهم، مع رعاية التناسب المحكم بين ذاته وصفاته وأسمائه.

إن الحق تعالى -وله حِكَم كثيرة في كل شأن، ودائرةُ ربوبيته تحتوي على حِكَم ومصالحَ لا تحصى- لم يخاطِب الجميعَ مباشرةً في أوامره التنزيلية والتشريعية، ولم يكلِّمهم كلَّهم عيانا بيانا، بل اصطفى -حصراً- لمثل هذا الأمر المهمِّ غايةَ الأهمية والخاصِّ جدَّ الخصوصية بعضَ ذوي السجايا الممتازةِ المجهزين بجهاز خاص والعائشين في مقام القلب والروح، فكلَّمهم. وبواسطة ذوي الاستعدادات السامقة هؤلاء، والفطراتِ الباهرة، والسجايا السامية، بَلّغَ وجدانَ البشرية غايةَ الخلق، وحكمةَ الوجود، ومعنًى ومحتوَى الدنيا وما فيها، وكنهَ "العوالم الأخروية"، وسبلَ الجنة، التي تُوصِل الإنسانَ إلى الأبدية في ذلك العالم. وإذ نبههم إلى ذلك؛ فأحيانا ارتعشت القلوب وارتعدت منها، وأحيانا استشرفت العالمَ الآخر وفاضت شوقا إليه. وأعلمهم الحق أيضا أن الدنيا مِن مشارقها إلى

مغاربها مَشْهَرٌ برّاقٌ لعرض تجليات جماله، وأنها موضعُ حصادِ الزروع لحساب الأبديات... فبكل ذلك أنقَذَ الإنسانَ من وحشة الوحدة، وغيابِ الغاية، والانفلاتِ من الوظيفة، وضياعِ الهدف، وعَلَّمَه بأن هذه الدنيا حجرةُ انتظار "للآخرة"، وفرَّح الأرواحَ الملائمة والمستعدة فبشَّرهم بأمرٍ فوقَ الوجود واستشعارِ الوجود، وهو الأبدية ورؤية جماله تعالى.

ولقد حقق الله سبحانه هذه الغايات والأهدافَ السامية جميعاً بهؤلاء الأخيار المصطفَين الذين سماهم "الأنبياء"، وجعلَهم ألسِنةَ الوجود والأشياء، ومترجميه ومفسريه، وهُداةً راشدين للوصول إلى العبادة والاستقامة والإخلاص والدار الآخرة. فهؤلاء الفطرات الساميةُ، ساحوا في ساحات وظائفهم، وأعلنوا الحق، وأسمعوا تبليغاته للبشر، فأرشدوا الناس الذين في مجال مسؤولياتهم.

إن الأنبياء أجمعين -مع تفاوت درجاتهم وتفاضُلهم فيما بينهم- كلٌّ منهم هو مثال الفطرة الطاهرة، وأنموذجُ الأخلاق العالية، وصرحُ العفة والطهارة، وبَطَل الأمانة، ومثال الوفاء والصدق. فكل منهم إنسانٌ قدوةٌ يشارُ إليه بالبنان في كل عصر وزمان، بشخصيته السامقة، وسلوكه الجاد، وأحواله الموحية بالثقة، واستقامته التي لا تحيد، وصدقِه الثابت في كل الأحوال، ووفائه الذي يعدل وفاء الملائكة، وصبره الراسخ كالجبال، وشعوره العميق كلَّ العمق بالعبودية. هؤلاء هم بمثابة الناطقين باسم عالَم الربوبية، والمرايا العاكسةِ للأوامر والأسرار الربانية في ستار التنزلات الإلهية...

وذلك بصورهم ومظاهرهم المتكاملة من غير أدنى نقص، وبِسِيَرهم المذكِّرة بالحق تعالى لكل ذي عين، وبمجرى حياتهم المنفتحةِ للخوارق دائماً، وبجاهزياتهم واستعداداتهم الراقية القادرة على حل المعضلات التي

تُواجههم بحَملة واحدة، سواء الفردية منها أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية، وبتأثيرهم الخارق على محيطهم، وببيانهم الفصيح الباهر، وبمقاييسهم المتناسبة والمتوازنة فيما بينها حول حقائق الإنسان والكائنات والألوهية، وبما يتمتعون به من الحاهزية الراقية التي تفوق المكتسبات البشرية والتي تؤهلهم لإشباع جميع اللطائف الإنسانية؛ القلبيةِ والروحية والذهنية والفكرية والحسية، وبسلوكياتهم المبصرة والمتوازنة في رعاية المعادلة العامة، والنابعة عن فهمهم الراسخ للانسجام الداخلي والخارجي لعموم الكائنات والوجود.

نعم، إنَّ كل نبي هو مرشدٌ أمينٌ في الطرق الموفية بالإنسان إلى سعادة الدنيا والآخرة، وناصحٌ أمين لتحفيز القلوب إلى المحاسن الإلهية، ومرشدٌ كاملٌ في النفوذ إلى أرواح المخاطَبين، وذو خبرة ومهارة عالية في نحت أفكار وأحاسيسِ الذين يتناولهم وتشكيلِها وصَقْلِها، ثم ربطِها بالغاية والهدف من خلقهم، وهو مربٍّ كاملٌ في انتزاع الخصال السيئة والعادات الفاسدة والطباع الملوثة، وإحلالِ القيم الإنسانية الرفيعة محلها... وهو مُخَلِّصٌ عَزومٌ غايةَ العزمِ وصَدوقٌ غايةَ الصدق، قويُّ الإيمان، متين الثقة بالله، مطمئن إلى حقانية الرسالة التي يبلِّغها، يتكلم دائما مطمئناً من غير تذبذب وترددٍ، لا يصيبه وجل ولا يبالي حيال أعظم الدواهي، ولكنه -في الوقت نفسه- يتحرك بدراية وفطنة. إنه مُخلِّص عظيم لا يخدع ولا يُضِلَّ من تبعه قط، ولا يندم من تبعه على اتِّباعه البتة. ذلك بأن الأنبياء هم أغنى الأمناء على أسلم خزائن العلوم اللاهوتية النقية الندية التي تفوق أشواطا وأشواطاً ما نلناه، أو سنناله، عن طريق مشاعرنا وفكرنا ومنطقنا ومحاكمتنا العقلية، وآمَنُ المرشدين في طريق الإيمان والمعرفة والمحبة

والعشق والشوق والذوق الروحاني، وأَوْثَقُ الهُداة الموفين الْمُبلغِين إلى الحق تعالى. فالمتيقِّظون للحق تعالى إنما تيقظوا بندائهم، والمترنّمون بالمعرفة إنما انحلت عقد ألسنتهم بسقيا كوثرهم، والمتحرون عن رضا الحق تعالى إنما وجدوا ما يتحرون عنه في جوهم وفضائهم، والتواقون إلى أسرار كتاب الكائنات إنما قرؤوا طلاسم هذا الكتاب قراءة صحيحة بأبجدياتهم ومعطياتهم.

الأنبياء هم أرباب السمو والارتقاء المادي والمعنوي، وروادُ طريقِ الكمالات العقلية والروحية، وأساتذة كل النُّظم والترتيبات: الدينيةِ، وكذا الدنيوية، ومهندسوها. فبفضلهم ارتقى الإنسانُ من مستوى الحياة البيولوجية، فبلَغَ مرتبةَ "أَحْسَن تَقْوِيم" التي تُعَدُّ تعبيرا آخر عن "الإنسان الحقيقي"، وبواسطتهم اكتَشَف ذاتَه، وفَهِم موقعَه بين الموجودات، وبالاقتداء بهم أَحسَّ بالعمق الموجود في مستوى حياة ذوي الهمم العالية، من أمثال الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين، وتذَوَّق طعمَها... وأيضاً، بتعليمهم وإرشادهم وإشعارهم رأى الإنسانُ الوجهَ الحقيقيَّ للدنيا، فاعتبرها مختبراً، أو دارَ كيمياء، أو صيدليةً، أو قصرا منيفا، أو مَشْهَرا عظيما. وبتعبير الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي إن الله تعالى إذْ أمر الناسَ باتِّباع الأنبياء، أراد أن يشرِّفهم بالتعرف على أعماقهم المعنوية لتنفسح طريقُ الاستفادة من هذا المصدر الفياض... وزد عليه، أنه أَطْلَعَ الإنسانَ على وسائل الارتقاء المادي في المستويات المختلفة لتجليات المعجزات التي هي أمارات صدق الأنبياء وعلاماتُه، أو -في الأقل- أَرسَلَ إشعاراتٍ بشأن هذا الموضوع، حَرَّكَ بها أنظمةَ الاستقبال في الأرواح الحساسة والمستطلِعةِ، وفَتَحَ أبوابَ التقدم التكنولوجي في

خيالها، وهيأ لها الأرضية لإثارة العصف الذهني فيما بينها.

نعم، كلُّ معجزة هي إشارة وإشعارٌ وتذكيرٌ وتداعٍ باعتبار الأوامر التكوينية، ودعوةٌ إلى تفحُّصِ خصائصِ هؤلاء المصطَفَين في مختلِف المجالات.. كالسفينة المعجزة المصنوعة في الترسانة النبوية لنوح عليه السلام... وقميصِ إبراهيم عليه السلام المَخِيط في مَعملِ "حسبي الله"، المقاوِمِ للنار، والمذكِّرِ "بالأمْيَنت"[1] المتحمّل لأعلى درجات الحرارة، بل بما هو أشد مقاومة منه... وساعةِ يوسف عليه السلام المجهولةِ الكُنهِ التي منَّ بها الله عليه بشكل معجز جراءَ بحثه عن جدول الأوقات والذي احتاج إليه إلى درجة قريبة من حد الاضطرار... وعصا موسى عليه السلام التي تُذَكِّرُ بمضخات الماء والآبارِ الإرتوازية... وتليينِ الحديد لداود عليه السلام بتذويبه وتشكيله وتفريغه في القوالب الذي يصوِّر في الأذهان صناعةَ الصلب والحديد... وجَلْبِ سليمان عليه السلام لعرش بلقيس برسمه وشكله وصورته، وربما بكل زينته المحيطة به، هذا الذي يجلب معه خيال التلفزيون والإنترنت وما هو أبعد منهما، وأيضاً، قطْعُ هذا النبي الجليل مسافة شهرين في يوم واحد المحفِّز لتكنولوجيا الطائرات الحديثة، وكذلك إجراءاته عليه السلام في عالمِ ما وراءَ المادة والفيرياء بتسخير الجن والعفاريت والشياطين له، التي تشير إلى المداخلة في العوالم الميتافيزيقية والتي تضع الحدود النهائية للباحثين في حقل عالم الأرواح. وكذلك تَحَاوُره بـ"منطق الحيوانات" الدال على فن ألسنة الطير والنمل والحيوانات الأخرى وتعلُّمِ شفرات التفاهم بينها، بل حثه على ذلك... ومعجزات عيسى عليه السلام التي تتعدى خيال الإنسان إلى مسافات أبعد مما تَوصَّل إليه الطب الحديث وعلمُ الجينات في يومنا هذا بإضفاء الحياة على ما ليس له روح، وإبرائِه للأكمه والأبرص، وإحيائه

[1] حرير صخري تصنع منه الأردية لعمال إطفاء الحريق.

الأموات، بإذن الله تعالى... وأخيرا مئات المعجزات لمفخرة الإنسانية ﷺ التي تَعْدِل جميع تلك المعجزات.

النبي، هو قابليةٌ واستعدادٌ وجاهزيةٌ متعاليةٌ ربانيةٌ، لأخذِ وفهمِ العلم الذي هو من جملة العلم الضروري باعتبار وروده من الله تعالى، وذلك باستلامه وفهمه كما هو، ثم نَقْلِه إلى الآخرين من غير أن يَخلط به أدنى شيء يخالف جوهرَه ولبَّه وذاتَه. فكما أن عملية الحياة والتكاثر بالسَوْق الإلهي[1] في الإنسان العادي والموجودات الأخرى مهمة وضرورية، -وهذا تشبيه من الأدنى- فكذلك تَجري وظائفُ ومسؤولياتُ الأرواح التي حظيت بالنبوة، في إطارٍ طبيعي أشبهَ بتلك المنوَّه عنها. (إضافةً إلى أهميةِ وقيمة مشاهدتهم ومراقبتهم، وقيامهم بالتشخيص والتثبيت، واجتهادهم حسب الحاجة، وذلك بوجدانهم الذي هو عبارة عن مزيج من اللطيفة الربانية والحس والشعور والإرادة). فإنهم يتلقَّوْن الأوامر من الحق تعالى بجهازهم الداخلي كطرف من طبيعتهم، ويبلِّغونها كضرورة لفطرتهم... يبلِّغونها ولا يفتُرون، ولا يميلون إلى راحة، بل يتحركون دائماً كما أُمِروا. وإذ يتحركون، لا يقعون في انتظارِ مأمولٍ، فكأنهم يلبون أية حاجة من حاجاتهم الفطرية.

يفسر الجمهور الأعظم الخدمةَ والفعالية التي يوفيها الأنبياءُ العظامُ والمرتبطةَ بالاصطفاء الإلهي والتوظيف الرباني والمقترنَةَ بجهازهم الداخلي، بأنها من نوع الأفعال الضرورية لوجدانهم الطاهر. فالنبوة بناءً على هذا التفسير عطيةٌ وموهبةٌ إلهيةٌ منحها الله تعالى للأرواح التي هي كالرشحة في استعدادها لعرضها ما ينعكس عليها من غير خلل وعطل، كما وَهَب لهم الفطرةَ السليمة والطبيعةَ المستقيمةَ، إلى جانب "الوجدان"

[1] السَّوق الإلهي: الدفع الإلهي بالدوافع المغروزة في كنه الحياة والموجودات. (المترجم)

المتوجهِ بكل ركن من أركانه -باعتبار الجهاز الداخلي- إلى غاية وجوده -ويمكن أن نسميه الوجدان المنفتح تمام الانفتاح-... والنبيُّ ممثِّلٌ خاص لهذه الموهبة والعطية المقدسة.

ولذلك قيل إن النبوة هي فهمُ ما لا يُفهم بالإدراك البشري والعلمُ به، ونقلُه إلى المخاطَبين الآخرين من غير خلل أو انكسار. وعُدَّ النبيُّ -من هذه الوجهة- نقطةَ اتحاد المبدإ والمنتهى. فالله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(البقرة:٢٦٩).. ومعناه أنه تعالى رفع الأنبياءَ إلى درجاتٍ ومناصبَ رفيعة، ثم أشعر وجدانَ الآخرين "بأسرار الألوهية" و"أسرار الربوبية" بواسطة هؤلاء المصطفَين، فنوّر عقولهم.

وإنه إكرام من الله تعالى يَعدل نعمةَ خَلْقِنا وحظوتِنا بالوجود -بل هو فوق تلك- مَنَّ به علينا -نحن الذين يمكن أن نتعثر فتنقطع بنا السبل، أو نحتار فنضيع- أن أرسَلَ إلى الإنسانية هذه الشخصياتِ الساميةَ المصونةَ المعصومة. نَعَمْ، الوجودُ نعمة، وإيضاحُ الكائنات والحوادثِ كلها -بعد الوجود- وتفسيرُها ومن ثم إظهارُ أعماقِها الأخروية والإلهية بواسطة الرسل، إنما هو لطفٌ وأكرامٌ آخر. وإن الطبيعة غير الملوَّثة لكل إنسان نقيٍ، وكلَّ وجدان مبصرٍ، يمكن أن يَبْلُغ -ولو بدرجات مختلفة- بالاستفادة من هذه الإيضاحات والتفاسير أعلى مواقع يغبطها الروحانيون، وقد بَلَغها مَن بَلَغَ.... وعلى الضد، فالذين تخبطوا في كماشة الكبر والظلم والانحراف والتقليد الأعمى كما أنهم لم يحسوا ولم يُقدِّروا حظوة الوجود، كذلك فَاتَهُمْ إدراكُ هذه النعمة الثانية، و-بإرادتهم في مستوى الشرط العادي- تعثروا بعماهم وصَمَمِهم وبَكَمِهم، قائلين: ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾(الفرقان:٧)، فعصوا وتمردوا وأظلمت آفاقهم تماماً.

إن إرسال الأنبياء وتعيين المرسلين لهو من الأمور العالية الخاصة بالله تعالى. وبناءً على ذلك فكل عمل وإجراء له علاقة به تعالى، لابد أن يناط بعقليةِ إبراهيم حقي القائل (ترجمته):

"في كل شي له حكمة،

فلن يفعل الله عبثا"،

ثم يتحرى عما ينطوي عليه من الحِكَم بقدر أفق إدراك العقل.

وقد نستنبط حِكَماً ومصالح مهمة من إرسال الأنبياء مِن بشرٍ مثلنا، وإحساسِهم بما نحس به في أبعادهم الحياتية، وتلذُّذِهم بما يطيب لنا أيضاً، وتذوُّقِهم عينَ ما يؤلمنا وما يلذُّ لنا، وإحساسِهم في أرواحهم بمثل احتياجاتنا وبما نَعدُّه ضرورة، وتحمُّلِهم المسؤولياتِ والتكاليفَ من أمثال ما تُحَمَّل على أممهم ومخاطبيهم... فنقول: إنما حصل ذلك ليسهُل تقليدُهم، بل الأحرى اتِّباعُهم... وباختصار: ليمثلوا الجانب الأرضي لرسائل الحق تعالى ضمن سماويتها. لكننا نقول معها: "اللهُ وحده عليم ببواطن الأمور"، ونجدد استسلامنا لحقيقةِ: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾(الأنعام:١٤٩)، ونعتبر أنَّ أعظم الحكمة هو السكوت أمام "العليم الحكيم"، ونرجح رَبْط ألسنتِنا بقلوبنا والاستغراقَ في مراقبة التمكين.[١]

لكن ينبغي ألا يغيب عنا -مع كل هذه الخصوصيات لسادتنا الأنبياء والمرسلين الكرام- أنهم بشر من أمثالنا. نعم، إنهم بشر مثلُنا... بشرٌ، أهمُّ خصالهم الإيمانُ والعبوديةُ، ووظيفتُهم التي اصطفاهم الله من أجلها هي تبليغ الإيمان والعبادةِ للآخرين، ورَفْعُ العوائق بينهم وبين الحق تعالى. وليس من وظائفهم تحويل الجبال والأحجار إلى ذهب، أو تبديلُ

---

[١] المقصود من التمكين: الحذر والاحتياط والتثبت (المترجم)

مجرى الأنهار، أو تحويلُ الصحارى القاحلة إلى جنان خضراء، أو إنزالُ الطعام من السماء... صحيح أن القرآن بعينه يورِد كثيراً من أمثال هذه المعجزات الكونية الحاصلة بيد هؤلاء الأنبياء ويربطها بالنبوة؛ لكن كل هذه المعجزات؛ هي من جهةٍ ألطافٌ ربانية خاصةٌ وأجرةٌ عاجلة لهؤلاء الكمَّل مقابلَ عبوديتهم الخالصة وشعورِهم بالمسؤولية ومَواقفِهم بين يدي الحق تعالى... ومن جانب آخر هي توجهات خاصة والتفاتات ربانية حصلت بالمشيئة والإرادة الإلهية لبعث الاطمئنان في نفوس أممهم.

إن تحويل الحجر والتراب إلى ذهب وتبر، والفحمِ إلى ألماس على يد الأنبياء، وإحياءَ الموتى بأنفاسهم، مقترناً بدعوة النبوة، هو تجلٍّ للألطاف الإلهية في طريق القبول بنبوتهم، ونسيمُ إحسانٍ لسَوق آمالهم إلى اليقين. هذا، وليست هذه المعجزات بأعجب من أن يَجعل الحقُّ تعالى -بعناية خاصةٍ منه- الأرواحَ المنكِرة يشعرون في وجدانهم بحقيقة الإيمان، ويُلَيّنَ الطبائع المنغلقة على الكفر، ويجعلَهم يَشعرون بالله، ويَنفخَ الحياةَ في تلك القلوب الميتة... بعبارة أخرى: هذه المعجزات التي حصلت بخلق الله تعالى هي وقائعُ ثانويةٌ وتبعية لا تُعدُّ في محور الفَلَك الأصلي للنبوة، بل هي تأييدٌ وتسليةٌ للأنبياء، ووسيلةُ إذعانٍ وتسليمٍ للمخاطَبين.

وأرى من المفيد تكرار التذكير بأن الوظائف الأصلية للأنبياء هي: تصفية الإنسان من الأخلاق الذميمة والخصال الفاسدة التي تُعيق وصولَه إلى الله تعالى وتؤدي إلى ابتعاده عنه؛ مثل الكبر والظلم والانحراف وتقليدِ الآباء والخضوعِ لمؤثرات النفس والجسمانية، وتحفيزُ الأخلاق الحسنة والخصالِ الحميدة في البشر؛ مثل التواضع والوقوف عند الحد، والتفكيرِ المستقيم، والتزامِ الحق، والتوجهِ إلى الحياة القلبية والروحية،

وتذكيرُهم بمواقعهم ومسؤولياتهم، وتعليمُهم التوقيرَ في علاقتهم مع الخالق والشفقةَ بالمخلوقات، ولفتُ أنظار قلوبهم إلى محاسن اللانهاية، لأنهم خُلقوا للأبد ولن يُروِي غليلَهم شيءٌ إلا الأبدية، وحجزُهم عن الزلل بتلقينهم التمييزَ بين الأمور التي تهم البشرية جمعاء، مثل الصواب والغلط، والمفيد والمضر، والحَسَن والقبيح، والحق والباطل، والباقي والفاني، وتفهيمُهم إياها بصورةٍ تَفْقَهُها العقول المتحررة عن الأحكام المسبقة ويَقْبَلُها الوجدان السليم، وتثبيتُ الهداية والضلالة ووضعُهما في الأطر التي وضعها الحق تعالى، وإشعارُ الأرواح بالمحاسن اللانهائية للوصول إلى الحق تعالى وبالقبائح الرهيبة للانحراف والتيه، وتعليمُهم عقيدة الألوهية والربوبية كما يريدها الله تعالى وليس كما يصوِّره الهوى والرَّغَبَات النفسانية، وإرشادُهم إلى ربط كل شيء برضا الحق تعالى، وهدايتُهم إلى الطرق الموصلة إلى ذلك الأفق، وإخبارُهم بعقاب المنكِرين وبثواب جنان النعيم للمؤمنين في الأخرى... وأمثالُها من الوظائف إجمالاً. وإنَّ توقُّع شيء من الأنبياء خارج وظائفهم جهلٌ بالنبوة واستهجانٌ صريح بالأنبياء. وجوابُ القرآن واضح عن كلّ طلبٍ توقُّع خارجَ وظائفهم: ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾(الأنعام:٥٠).

نعم، إن الأنبياء إنما يتبعون وحي الله تعالى ويَسْعَون بغاية همتهم إلى الهتاف به وتفسيرِه وتمثُّلِه. فما يعلمونه ويقولونه ويعملونه وكل ما يريدون تنفيذه وتحقيقَه هو عبارة عن تبليغ وتمثُّلِ الرسالة التي حمَّلهم الله العليم الحكيم إياها بأسلوب خاص. وبعبارة أخرى، هم حيالَ الرسالة الإلهية بمثابة موظفِ توزيعٍ وتقسيمٍ وتبليغٍ على مَورد الوحي الذي هو "المنهل العذب

الموررود". ولئن فَسَّروا أو اجتهدوا في مواضعَ وفقاً لمُحْكَمات الوحي، فقد سعوا إلى التعبير عن كل شيء حسب منهج العلم الإلهي المحيط ودائرته، وراعَوا المرادَ الإلهي والمرضياتِ الإلهية في كل حركاتهم.

الأنبياء يواصلون حياتهم في ظلال الوحي، ولا يبتغون في أي من أعمالهم إلا رضا الحق تعالى، ويسيرون في السبيل التي أرشد إليها الهادي سبحانه، ويفوِّضون نتائج حركاتهم وفعالياتهم كلها إلى الله ﷻ، ويؤجلون الحصول على ثمار سعيهم وهمتهم إلى آخر محطة في الآخرة. الأنبياء ومن اتبعوهم بإخلاص، لا ينجرفون بحب الدنيا والرغبةِ في المناصب البتة، ويَنوطون كل حركاتهم وتصرفاتهم بمشاعر التقوى، ويَعُدُّون بصيرة الخضوع للوحي عينَ الهداية، ويسيرون في هذا الصراط السوي الوضاء بكامل مَلَكاتهم العقلية والروحية والقلبية والحسية، ويرون السير في هذا السبيل ضماناً للخلاص والتخليص، ويربطون حياتهم كلها بهذه الرؤية وهذا الفهم.

وإن عقل الإنسان ومنطقه ومحاكمته -ويمكن اعتبار كل ذلك شيئاً واحداً- كلما تقبَّل النبوةَ وما يرتجى منها، واستطاع أن يستفيد من هذا النبع الفياض استفادة تامة، فإنه من جانبٍ، سَلَكَ -وسيسلك- الطريقَ الموفي إلى الثغر الحدودي لمساحة ذاته، ومن جانب آخر نجا -وسينجو- من أن يكون وسيلة لإضلال الآخرين.

والأهمُّ قبل كل شيء في مثل هذا السلوك، التسليمُ للقدرة المطلقة والعلم المحيط الذي يتحكم في كل الوجود والأشياء. ولكُم أن تسمُّوا هذا إخضاعَ ثمرات العقل والمنطق، ومختلفِ المناهجِ والبحوث والتجاربِ المختلفة المستحصلة عن طريق العقل والمنطق، لتمحيص الوحي، من أجل ترقية الأرضيات إلى سماويات، وإضفاءِ روح الجوهر على الأعراض.

والحقيقة أن الذي خلق العقل هو الله تعالى، والذي هدى العقل إلى طريق التعمق بواسطة الوحي هو الله أيضا. فلقد فتح الله تعالى عيون بني الإنسان بالعقل، وضَمِنَ للعقل سلامة النظر والتفكيرِ بالوحي، فمهَّد له مجالا واسعا للمحاكمة، وببيانه المحيط أقام على البشر الحجةَ المُلزِمة. بعبارة أخرى: جعل الله تعالى مؤسسة الوحي -التي تضم الكل معاً- بمثابة مختبرٍ لتوحيد السبل المختلفة في شتى المجالات للعقل والمحاكمة التي لا تفتأ تعرض أحوالاً مبعثرة ومنقطعة عن بعضها، ولتمحيص مستحصلات القياس التي استحصلت، ولتمحيص المقاييس أيضاً.

فبناءً على ما سردناه من مجموع الملاحظات هذه، نؤمن بعدم احتمال السير في أمان، ولا العيشِ بلا غلط وهدر في هذه الطرق المختلطة المشتبكة، من غير الاتباع للأنبياء العظام -على نبينا وعليهم الصلاة والتسليمات- الذين كل واحدٍ منهم في عصره أمينٌ وخبير وعليم بالخصوصيات المتنوعة للطرق التي يسلكها. وكذلك نؤمن بأن الوحي إكسيرٌ يحمي عقل الإنسان من شتى أنواع الهذيان، وبأن الأنبياء أطباء حاذقون يستعملون هذا الإكسير حيثما ينبغي. نعم، إن هؤلاء المصطفَين هم مرشدون وضّاؤون يصونون عقل الإنسان من الانحرافات المختلفة، ويفتحون أمامه آفاقا لاهوتية مما وراء العالم المادي تعدو أهداف العالم المادي. وإنَّ يد العقل والمنطق والمحاكمة التي تبايع هؤلاء المرشدين، تَضْمَنُ في الوقت عينِه الاستفادةَ القُصوَى من طاقاتها. فنحن المؤمنين بالنبوة والوحي، نحترم محصولات العقل والمنطق والملكات العقلية، لكننا نؤمن أيمانا جازماً بأنها لا تملأ ما يتركه الوحي من فراغ قطعاً إذا ما أُهمل، ولا تحل -أبداً- محل مبلِّغِي الوحيِ الصادقين والكاملين.

اللّه، الكون، الإنسان.. والنبوة



إن قراءة الوجود والأحداث قراءةً جيدة وتفسيرَها تفسيرًا صائبًا، وكذلك الحفاظ على الموازنة بين الإنسان والكون وحقيقةِ الألوهية، لهي من أهم جوانب الأعماق النبوية ومن أرقى مميزاتها.. فإن الإدراك العميق للوجود كـ"كلٍّ"، والفهمَ التام لتجلي الأشياء -التي بعضها نماذج للبعض الآخر- في صورتها العمومية، ولقوانين الوحدة التي هي ذاتُ صفةٍ كونية ومحيطةٌ بالموجودات... كلُّ ذلك إنما تَيسَّرَ للأنبياء وحدهم، وعلى رأسهم حضرة روح سيد الأنام -عليه أكمل التحايا- وهذا أبهر معجزاتهم قاطبة.

وإذ لا زالت البشرية تتهجى في أيامنا هذه حروفَ الحقائق المتعلقة بالإنسان والكائنات وما وراء الطبيعة مع توسعها العلمي وتقدمها التكنولوجي، فإن الأنبياء وقفوا مليا -وبجد- على هذه الحقائق منذ آلاف السنين، وقالوا بالتمام لأممهم ما ينبغي أن يقال في شأن الرجوع بالأشياء لصاحبها؛ فبعضهم أجمل وبعضهم فصَّل، وذلك بجَهازهم الخارق للعادة، ومكانتهم الخاصة عند الحق تعالى، والتبليغاتِ المتوالية من "الماورائيات".

ولم يبلُغ الأنبياء هذه الحقائقَ بطرق البحث العلمية الشائعة في العصر الحالي ولا بالمناهج التجريبية؛ بل بَلَغوا هذا العلم والمعرفة بفضل سعة

قلوبهم وعلاقتهم الخاصة بالله تعالى، إلى جانب كمال عقلهم وحسهم وشعورهم وإدراكهم، كمالاً يتعدى حدود التصور الإنساني؛ فرأوا أن الوجود كله في تصرفِ قدرةٍ قاهرةٍ، وأطلوا على وحدة العلم والإرادة المهيمنةِ في كل مكان وكل شيء، وقرؤوا وفسروا الشهود والمعالم والإشاراتِ المناديةَ بالواحد الأحد في سيماء كل الأشياء والأحداث، ثم أعلنوا أنهم دعاة التوحيد في المشاعر والفكر والاعتقاد.

ومن العسير أشد العسر، الادعاءُ بأن العلم قد أتى بشيء يُذْكَرُ حتى الآن في العلاقة بين حقيقة الإنسان والكائنات والألوهية؛ تلك الحقيقة التي أخبر بها الأنبياء منذ مئات القرون. فالعلم لا يزال يحبو في كثير من المواضيع، ويصحح غدًا ما يعدّه صوابًا اليومَ، ويسعى إلى تقويم الغلط المجزوم به بالخطأ المحتمل، بل يراجع نفسه بنفسه باستمرار، ويصون مسلَّماتِه النسبيةَ بفرضيات مختلفة، ولا يستطيع أن يتجاوز حدود تحليل الجزئيات مهما حاول ذلك. فنستطيع أن نقول: إن العلم لم يضع حتى اليوم حكما ثابتًا في هذه الموضوعات التي تطرّقنا إليها بحيث لم يضطر إلى تبديله لاحقا... فلم يوفَّق العلم في التعبير عن الحقيقة المطلقة البتة، وإن ما بلغه لا يزيد على أنه زادٌ وذخيرة للمسافرين وقرضٌ حَسَنٌ للباحثين.

وأنبّه هنا إلى أني لا أقصد بما قلته التهوينَ من شأن العلم وثمراته، أو الانتقاصَ من أهمية المباحث العلمية؛ بل نعتقد أن العلم وثمراته منظومةُ قيم هامة جدًّا وتستحق التوقير والتقدير. فالمقصود هو التذكير إلى مصدرٍ للعلم لا يُلتفت إليه اليوم، مع أنه أصح المصادر في التعبير عن حقيقة الإنسان والوجود والخلق، وأكملُها وأشملها، مع تنزهه عن الخطأ في ما يقوله ويرشد إليه... ألا وهو مصدر "النبوة" التي احتفظت

بنداوتها أبدًا، باستثناء التحريف الحاصل في بعض الكتب السابقة... إن العلوم المعاصرة اليوم قد تكتشف -من منظور كلي وبتقويم شمولي- أمورًا مهمة تتعلق بالنظام والانسجام والحركة في الوجود والحوادث، ونحن نستقبل ذلك بالتقدير والتوقير؛ لكنَّ جمعًا من المجهَّزين بجَهاز خاص، قد أعلنوا في أقدم العصور وبواكير الزمان -ولو بشكل إجمالي- هذه المعلوماتِ والتفسيرات التي توصَّل إليها العصرُ باستخدامِ أعظم التكنولوجيات. فإذا كان هناك قسم من الجهات العلمية لم يلتفتوا إليها أو لم يوقروها التوقير اللائق، فإننا نرفع عند ذاك أصواتنا -في حدود أدبنا- فوق أصواتهم، ونجهر بأعلى صوتنا بما نراه حقًّا.

فكم من حقيقةٍ أظهرها العلم الحديث، قد بلَّغها الأنبياء منذ القدم في صور متنوعة وإنْ في فذْلكات مجملة، بنظر كلّي، واستنادًا إلى لدنّياتهم الرحيبة المنفتحة للوحي وإلى أعماق الفطانة المتميزة. فأينما وقعت البحوث المنجَزة بالمختبرات الحديثة والتكنولوجيات المتقدمة من الحقائق التي أعلنوها وحيثما وقفت منها، فإن ملايين البشر لا زالوا يقوِّمون الأمور بموازينِ تبليغاتهم وتفسيراتهم، ويَسيرون على خطاهم. وفي الطرف الآخر، فإن أحدث الفرضيات المطروحة باسم العلم والفلسفة، تتغير كل يوم بنظريات جديدة مختلفة. ويعني هذا أن رجال العلم الحاليين يناقشون زملاء أمْسهم ويضعون ما توصلوا إليه على المحك. وبدهي أن نظرياتٍ بدت ثابتةً ومتينة، تترك مواقعها إبان هذه المناقشة والمساءلة لتحل محلها آراء جديدة مختلفة، فتَرحل مُسلّماتٌ كانت تصان في حدقات العيون باسم العلم، متهاويةً واحدة بعد أخرى، لتحل محلها مسلماتٌ أخرى تحط واحدة بعد أخرى! أما الحقائق التي

بلَّغها الأنبياء، فما فتئت تحتفظ بجدارتها -ما خلا تفسيراتٍ تعيسة لمنتسبين ضيّقِي الإدراك- باعتبارها أسسًا ثابتة لا زالت تُرجَع إليها أبدًا، وذلك بأنها تستند إلى تبليغاتٍ ورسالات أتت من لدن ذات أجلِّ الأجلاّء وأعظمِ العظماء -سبحانه- الذي نظم الوجودَ كله كمَشهر وكَتَبَه ككتاب وزيَّنَه كقصر منيف.

لذلك، لابد في الإدلاء بالمعلومات في حق الإنسان والوجود والخالقِ، مِن تَرْكِ المجال لهؤلاء المجهَّزين بجهاز خاص (عليهم أفضل الصلاة والتسليمات)، والمرتبطين بروابط خاصة مع صاحب القدرة المطلقة، كما أنه ينبغي أن لا يقوم غيرهم بإبداء البيانات حول ماهيةِ ومعنَى ما وراء ستار الوجود وما أمامه.

وبدهي أن من أهم وظائف هؤلاء تعيينَ وتثبيتَ المناسبات والتوافقِ والانسجام بين الكائنات والأحداث وبين حياة الإنسان وسلوكياته، وكذلك، إثبات الذات الأحدية ذي القوة، القيومِ على هذا التوافق المنسجم، وتعيينَ مسؤوليات الإنسان تجاهه. فإنهم هم الذين استطاعوا أن يجيبوا -على أصدق وجه وبأسلوب مقْنع- على الأسئلة حول الوجود وبخاصة الإنسان: من أين جاء، وإلى أين راح ويروح، ولِـمَ جاء ولِمَ راح؟

ولذلك، لا مناص لنا من اللجوء إلى تبليغات رسل الحق تعالى وحدهم لا غيرهم، لبيان أصح المعلومات وأصوبِها في قضية الغاية والحكمةِ من وجودنا في الأرض، وقواعدِ المسير التي ينبغي أن نلتزم بها في الطريق ومنتهى هذا الطريق. فإذا استطعنا ذلك فسنفهم -تماما- القصدَ والغاية من حركة الكائنات في دائرتها الوسيعة الرحيبة، وسندرك جيدًا ما وراء ستار الوجود وما ينطوي عليه، والمجيءَ والرواح المتعاقبَين

في الأرض والمذهلَين للعقول، فنَصِلُ إلى الاطمئنان والراحة والسلامة في المشاعر والأفكار... اطمئنانٍ وراحةٍ وسلامة نابعة من العلم والتقويم لظاهر الوجود وباطنه، ولما أمامه ووراءه، ومِن إدراكِ موقعنا ومكانتنا على الأرض باعتبارنا جزءًا مهمًّا من الكائنات، حتى نتوافق مع الانسجام العام السائد في الأشياء والحوادث، ومِن توجهِنا إلى الذات العلية الذي أَعد الأسبابَ والوسائل لسعادتنا الدنيوية والأخروية، ومن اعتصامِنا به، ومن إيماننا بتحقق رغبات الأبدية التي تحِنُّ إليها جوانحنا، وبالتالي توقينا الدائم من الانكسار والخذلان.

إن سبل اكتساب العلم ووسائلَه الموهوبةَ للإنسان معينة ومنحصرة. وجليٌّ أن العلوم المكتسبة بهذه الوسائل المحدودةِ، محصورةٌ بطبعها وستبقى محصورة. وأرى أننا سنعجز بهذا القدر من العلوم والمعارف عن فهم الانسجام العام وجوهر النظام الموزون السائد في الأرض، بَلْهَ العجز عن إدراك غاية خلقنا وحكمةِ وجودنا في الدنيا وأصلِ النكتة في مناسباتنا مع الكائنات. والحالُ أن الإنسان يحمل على أكتافه مسؤوليةَ تنظيم حياته وفاقًا لسنن "نظام الكون" المهيمنةِ على الوجود كله، وطبقا لغاياتٍ عُلْويةٍ بموجب موقعه بين الخلق، كما هو مُلزَم بتنظيم حياته وفقًا لما يقتضيه موقعه ومكانته في الوجود. فما لم يُسلِّمْ هذا الإنسانُ زمامَ أمره إلى دليلٍ هادٍ، عارفٍ بيوم هذا السفر المجهول وغدِه، وبمقدمته ومؤخرته، فإنه سيقع لا محالة في أخطاء كثيرة وضنك شديد في مسيرة حياته في طريق الصعود والهبوط والمنعطفات والمتاهات ذاتِ مجاهيلَ وأهوال كثيرة، بل قد لا يبلغ -البتة- الغايةَ المقصودة من خلقه.

فنحن الذين نعجز عن التنبؤ الجازم بما يلاقينا من الفجاءات المحتملة

إبان سيرنا في طريق الحياة، ستخور قوانا وتنقطع بنا السبل، ولا ننجو من التيه والضلال، وسنغلط في قراءة كتاب الوجود، ولا نطَّلع على معرض الكائنات بنظر يرجع بالبركة، ولن نفهم معنًى قَصْرِ الدنيا المنيف وفحواه وأسرارَ بواطنه، ما لم نطع المرشدين والرسل الذين أرسلهم خالقنا الرحمن الرحيم الذي جاء بنا من "عوالم أخرى" ليحط بنا هنا في هذا العالم، ثم يسوقَنا من هنا إلى ديار أخرى. بل زد عليه أننا سنُنيط الأشياء والأحداث -وكل منها من خوارق القدرة- وتظاهراتِ الحوادث وتحولاتِها المختلفة بقوانين الطبيعة، فتتراءى لنا عندئذٍ تلك الخوارقُ البديعة أمورًا عادية ويَدْلَهِمُّ الظلام في آفاقنا.

إن رسل الحق الهداةَ، والمحظوظين المقتدِين بهم، هم الذين قرؤوا الوجود والحوادث قراءة صحيحة دومًا، وسبروا أغوار الجوهر مخترقين الشكلَ والصورةَ، ونَفَذوا إلى لب الأشياء وشاهَدوا المعنى في المادة، فاطَّلعوا على بواطنِ كلِّ شيء مع ظواهرها. وبتعبير آخر: إنهم -في تفسيرهم للوجود- ركزوا على المحتوى باستمرار، واستلهموا إشاراتٍ من أشعة التجليات المختلفةِ الموجاتِ والتي تُبدي المؤثِّرَ في كل أثر. ولأنهم مضوا في سبيل سياحتهم وتفكرِهم الروحي مشدودين إلى الخالق الجليل، فقد طوروا أجزاء العلم التي حصلوا عليها، فحوَّلوها إلى المعرفة الإلهية، وخاضوا في مناسباتٍ وروابطَ قلبية قوية مع المعروف -سبحانه- وفاقًا لأفق العرفان الذي بَلَغوه، فبلغوا "أُنسا" وافيا بكل شيء في أجواءٍ كالجِنان، فتوجهوا إليه تعالى وهم في شبوبِ مشاعرَ كأنهم تحت شلَّالِ محبةٍ عميقة وذوقٍ روحانيٍّ، في كل آن ولحظة.

فالسعداء هؤلاء، لهم نظر خاص إلى الوجود وما وراء الوجود؛ فهم

يطَّلعون على كل شيء بأنوار البصيرة، ويقوِّمون الأشياء والأحداث في الدائرة التي وضَعَتْها فيها قدرة الخالق تعالى، ويتناولون كل شيء بحقيقته في نفس الأمر (بحقيقة جوهره)، وإذ يفسرون الوجود بفهم شموليٍّ ينتظم كلَّه وجزءَه، يعتنون بتوازنِ كل الأشياء فيما بينها وتناسُبِها، وبروابطها بالخالق تعالى، فلا يقعون أبدًا في تناقض داخلي. ولذلك، هؤلاء وحدهم أفلحوا مدى الدهر في النظر الصائب والفكر الصائب والتعبير الصائب، بشأن حقيقة الإنسان والكائنات والألوهية؛ فهم وحدهم استطاعوا أن يبينوا التوحيد بجميع ضرورياته ولوازمه، وهم وحدهم استطاعوا أن يبينوا الموازنات السليمة بين الأسماء الإلهية والصفات السبحانية والشؤونات الذاتية مع الذات الإلهية... وكذا هم وحدهم عبروا تعبيرًا صائبًا عن خصوصياتِ دائرةِ الألوهية ودائرة الربوبية باعتبارها تجلياتٍ مختلفةً لنبع واحد.

ولولا أَنْ تجلت الإرادة الإلهية بالإحسان في إرسال الرسل، لعجزتْ أخصبُ الأدمغة -على توالي العصور والدهور ومع أعظم الهمة والجهد- عن تحصيل مثل هذه الحقائق قطعًا وبتاتا، بل عجزُها ظاهر للعيان بواقع الحال!

وإني لا أجزم منذ الآن، بما قد يطرأ من التغيرات على التفسيرات الحالية للجهات العلمية جراء التوسع في وجهات النظر، نتيجةً للتطورات العلمية في المستقبل، لكن الظاهر عيانًا هو أن دوام الحال -كما هو الآن- محال! ويا ليت أن البشرية التي عاشت في حيرة وغفلة هائلةٍ حتى اليوم، التفتت هنيهة إلى التبليغات الإلهية وتفسيراتِ الأنبياء في شؤونٍ تتجاوزُ إدراكَ البشر مثلِ حقيقة الوجود وما وراء الوجود، وتخلصت مما تتخبط فيه من الجو الخانق الذي تثيره المعلومات المضللة، وحلَّقت في

سماء الإلهامات النبوية... فلعل الإنسان عند ذاك كان سينجح في النظر نظرًا أصفى إلى حقيقة الوجود، ويدرِكُ موقعه ومسؤولياتِه في الكون، ويَفهم ما وراء ستار الأشياء والحوادث، ويعي مناسباتِ الأشياء فيما بينها، والتناسبَ السائد والانسجامَ العام في الأوامر التكوينية... فلعله بذاك كان سيعيش وتيرة الدخول إلى المناسبات مع خالقه تعالى من جهة، ويمتنع عن مخالفة النظام السائد في الكون برمته فلا يتصادم مع الوجود من جهة أخرى. لكن بني الإنسان -وبخاصة الأنفس العاصية في عصرنا هذا- لم يحققوا هذا التوجه السائد، بل عَقُّوا الله وعَصَوْه، وبَقُوا متناقضين مع الأشياء والحوادث، فلم ينجوا من العذاب البتة، وما كان لهم أن ينجوا. فكيف، ووسائط العلم الممنوحةُ لهم محدودة، وإمكاناتُهم في حل المشكلات التي تواجههم يسيرة؟ فليس لهم أن يكتشفوا بما يملكونه من الوسائط والإمكانات التي هي أسباب العلم إلا النزرَ اليسير من الوجود، مع التعرض للغلط والتصحيح المستمرَّين، وهو ما حصل.

وكان ينبغي للإنسان أن ينظر إلى تمام الكائنات المحيطة به، والعالمِ الذي يعيش فيه، والنظامِ الموزون، وانسجامِ الأشياء عمومًا فيما بينها... ينظر إليها حسب سعة الكائنات وتداخلِ الأحداث، ثم حسب رحابِ رغباته وطلباته وآماله، وليس بقدر ضِيق أُفقه وانحصارِ علمه وتبدُّل أفكاره... حتى لا يخيب رجاؤه في الحياة التي يعيشها، وفي الطريق الذي يسير عليها، وفي آماله التي يترقبها بطبيعته في نهاية الدرب. لكنه خاب وخسر مرات ومرات، ولا زال..! ولن ينجو من الخيبة والخسران ما دام غيرَ مبالٍ بطريق سيره وبمصيره.

فإن الإنسان القادم من عالم الأرواح إلى الدنيا، والذي سيرحل منها

إلى البرزخ، ومن البرزخ إلى الأبدية، لهو بحاجة إلى معرفةٍ فوق المعرفة الإنسانية، بل فوق الزمان والمكان، حتى يديمَ السير بأمان وثقة من غير ضياع وتلكؤ وشَدَهٍ وقلق، في هذا الطريق الطويل ذي الخصال الخاصة بها في كل مرحلة. والحال أنه في الغالب مسكين عاجز أشدَّ العجزِ، وجاهلٌ بما قد يلاقيه بعد خطوتين، حتى في هذه الدنيا التي يَزعم أنه يعرفها معرفة مكينة! إذن لا يمكنه البتة أن يبلغ إلى ما يتمنى في هذا الطريق الذي يتطلب برنامجًا وخطة وطيدة. فالمسير طويل طويل، والمحطات كثيرة كثيرة، والطريق وعرة، والجبال شاهقة والمهاوي سحيقة. فهل من حاجة إلى بيانٍ للاستدلال على ضرورةِ وجودِ هداةٍ عارفين بآداب الطريق وأركانِه في هذا المسير الشاق إلى المنزل الحق؟

وقد حمل الأنبياءُ كلهم رسالةَ الهداية هذه على مر الزمان، فنشروا الأنوار في طريقِ سيرِ الإنسانية، وكشفوا الغطاء عن أنظار السائرين في الدرب، وأضاؤوا آفاق أَتْباعهم في حقيقةِ "الله والكائنات والأشياء"، فأنقذوهم من حزن الوحدة وقلق جهل المصير.

لقد خَطَّتْ كلُّ حركةٍ نبويةٍ طريقًا مشتركًا في القضايا الأساسية منذ الإنسان الأول الذي هو النبي الأول: فنَبَّهت -بلا فتور- إلى الأساسيات، كالتوحيد والبعث والنشور والنبوة والعبودية والعدل... وأدامت الإرشادَ والتنبيه وأنواع التحذير بشأن المسائل التبعية حسب الزمان والشروط العامة ودرجةِ النضج الإنساني، ولفَتَتْ -دائما- أنظارَ أَتْباعها إلى الأهداف السامية أبدًا. فخطُّ الاستقامة في الحياة الدينية واحد من حيث الأساسيات. أما في التفرعات، فثم شيء من الاختلاف الذي هو في ذاته ضروري ولازم.

والقرآن هو النداء الأخير والرسالة الأخيرة للإنسانية التي بلغت أشُدَّها. هذه الرسالة الإلهية الأخيرة أكدت على الأساسيات المحكَمة الثابتة بعينها في الأديان كلها، ووَعدت باستيعابِ متطلباتِ الأزمنة والأمكنة كافة فخَتَمت كتابَ الدين. فعلى الإنسانية من بعدُ أن تَستمر في المسيرة على نورِ هذه الرسالة الأخيرة، وأن تَستخدم طاقةَ التطوير والتغييرِ مربوطةً بنظامها، وأن تحقِّق كدح الوصول إلى الحقيقة المطلقة تحت وصايتها.

نعم، إن العصور الآتية هي عصور القرآن، والسلطنة القابلة هي سلطنة "مفخرة الإنسانية" ﷺ. الآذانُ تستمع إلى رسالته، والمشاعل التي تبث النور في الدرب هي مشاعله. نعم، الأمر الفيصل الآن، هو لهذا الموحد الأكبر الذي يُرجع كلَّ شيء إلى التوحيد الخالص.

... وخاتم المُنْبِئين عن الغيب



القول الفصل الأخير حول حقيقة "الله والكون والإنسان" هو لِحضرة محمد ﷺ الذي هو شجرة الوجود، والعلةُ الغائية لكتاب الكائنات، وأقوى صوت للدعوة إلى الحق سبحانه... إنه هو المخبِر الأخير عن "الغيب" وعن "غيب الغيب"، وهو المفسر السديد للأشياء والأحداث، وهو المبيّن للعلاقة بين الإنسان والخالق من غير أدنى لبس، وهو الموضح عيانا وجهاراً مقتضياتِ هذه المناسبات. هو المرشد إلى القرب الرباني؛ وهو الأول والأقرب إلى الحق جل وعلا من جهة، والأخيرُ والأعظمُ أمانةً من وجهة أخرى.

الملائكة انتظرته، والأنبياء بشروا به، والأولياء ثمراته التي تَقتبس منه النورَ. مشكاة النبوة اتقدت به بدايةً، وبه أيضاً ظهرت زبدة معناها ومحتواها في أبهى صورة وأنْورِها. نورُه الأول سَبَّاق الأنوار، وطوفانُ ضوئه الأخير هو ظهوره في العالم الخارجي. ومن جهة أخرى، هو فهرست الآفاق والأنفس، ولبُّ الوجود وعصارتُه، وأضوأُ ثمارِ شجرةِ الخلق من حيث الغاية، وسيد الإنس والجن أجمعين باسم الخالق الجليل.

هو فوق الوصف أبداً من حيث جوهره وموقعه، لا نظير له باعتبار ذاته، فريد الكون والزمان بأعماقه الأخروية، وبرهانٌ ظاهرٌ بالرسالة التي يحملها. شُهرتُه تمتد إلى ما قبل آدم النبي عليه السلام، وضياؤه لهجت به الألسن

من قبل وجوده، وقدومُه -وقدمه تاج رؤوسنا- إحسان للإنسانية جمعاء. وُجُوده أصفى لؤلؤة في صَدَفة الوجود، ورسالته أشمل الرسالات. عِلمه زبدة العلوم كلها، وعرفانه منبعٌ نقيٌّ وصافٍ يجمع حوله أضوأ الوجوه، وأُفقُه كمرصد تُهرَع إليه الأرواح الصافية المتطلعة إلى اللانهاية. العيون حظيت بقراءة الأشياء على وجهها الحقيقي بفضل النور الذي نشره في الأرجاء. والآذان استمعت في ترانيم أقواله إلى أنغامٍ روحانيةٍ من جواهر الكلمات لم تسمعها من قبل. وكم سرٍ ظهر عيانا بيانا، وكم فكرٍ كدِرٍ صفا إلى الصفوة في أجوائه. من رآه واستمع إليه زال عن روحه الصدأ، وانقشع عن عينه الضباب. وما إن أخبر عن أولِ كلِ أول، وآخرِ كلِّ آخر حتى عُرف كلُّ مجهول عجزت عن إدراكه عقولُ البشر، وتحلى غيرُ المعلوم بلباس العلم والمعنى، وأصبح الوجود كلُّه قصيدةً شعرية تُنشَد على كل لسان، ونغما أبديا يُفَسِّر غاية الخلق ومقصده.

العلوم ما هي إلا قطرة من بحر علمه، والحكمة برمتها رشحة نزرة من شلال معارفه. الأزمنة كلها لا تعدل لحظة من لحظات عمره. كرةُ الأرض التي لا تزن جناح بعوضة في الكائنات هي عالم يَعدل الوجودَ بسر كونها مسقطَ رأسه. هو المقدَّم في التعيُّن والبرنامجِ القدري، وهو صاحب القول الفصل الأخير في قضية النبوة، وهو الشارح الحقيقي للظاهر، وهو الناطق بأسرار الباطن. هو سلطانُ عرشِ النبوة بخَلقه خلقا ملائماً لتلقِّي الحقائق العلمية والعقلية من روح القدس، وبشعوره الرحيب، وبإدراكه الرفيع، وبقلبه المنفسح لما وراء الملكوت، وبسر استعداده للاطلاع على ما وراء الوراء. وهو أفصح ترجمان لعالم الرسالة الإلهية مبلِّغا ما تلقاه إلى الأرواح والعقول من غير عارض أو خلل، كجهازِ استقبالٍ نورانيٍ منفتح على الماورائيات.

وهو -مع أن له خصوصياتٍ ذاتيةً سامية- يخبرنا بمقتضى نبوته عن الحق تعالى، ويُعَرّفنا به، بذاته وأسمائه وصفاته، ويُحفّز فينا الشعور بالمسؤولية أمام الحق تعالى. ومن هذه الجهة هو معرِّف ومعلمٌ أكبرُ يُبَيّن ما لا يَبِين ويُشعر أرواحَنا بما لا يُدرَك. أما من جهة تبليغ الأحكام الدينية وتعليم القيم الإنسانية وتمثيل الأسس الأخلاقية، فهو مُشَرِّع موظَّف وواضع للقوانين وقولٌ شارحٌ لحقيقة الحقائق.

إن النبوة والرسالة -وتحت وصايتهما الولاية- كما أنها متفتحة على الظاهر، كذلك هي "مُفَتَّحة الأبواب" على الباطن. وإن عقول هؤلاء أيضاً قد اصطبغت بصبغة هذا المنصب الإلهي... لكنها تقف من ورائهم بخطوات، تنتظر الأوامر منهم. إنَّ عقلاً مدرِكاً لحدوده -مثل عقولهم- داخلاً في وصاية النبوة، يتنور بـ"الروح الأعظم" ويصير بُعداً مهما من أبعاد حقيقة الإنسان. وبمرور الزمان يبدأ باستشعار الباطن مع الظاهر، والآخرِ مع الأول.

وإن للوجود ظاهراً وباطناً؛ الظاهرُ يُرَى بالعين ويُدرَك بالحواسّ، ويُقَوَّم بالعقل والمحاكمة العقلية. أما الباطن فلا تُفتح أبوابُه إلا من قِبل الله لمن خُلِق بجهاز يستشعره، فيتم الإحساس به صوتاً ونَفَساً ولوناً ونقشاً مختلفا عن الظاهر. فالأنبياء يستمعون إلى هذا الصوت والنَفَس بموجاتٍ مختلفة الأطوال مدى الحياة، ويتصرفون أبداً بمقتضاه.

وإن حضرة سيد الأنام -عليه أكمل التحايا- رمزٌ وصوتٌ للفائقية المطلقة من حيث جهازه الخاص المتناسب مع حاله الخاص. فالله يُسمِعه ما لا يُسمَع، ويريه ما لا يُرَى، ويُقدمه على الروحانيين بإكساب روحه ماهيةً فوق الزمان والمكان أحياناً، فيتقدم على الملائكة، أكرمِ عباد الحق

تعالى، فيصل إلى "قاب قوسين أو أدنى". وله مكانة وقَدْرٌ متمادٍ ووطيد عند الخلق كدرجته عند الحق تعالى؛ فإنه ما حاد عن الاستقامة قيد شعرة في عمره كله، ووَثِق به الجميعُ من صديق أو عدو، وبلَّغ المخاطبين بما أُوحي إليه من الحق تعالى في بهائه الرباني، ولم يُذكَر إلا بالعصمة، ولم يُعرف إلا بالصون الإلهي، وقرأ -دائما- الطبيعةَ وما وراء الطبيعة قراءةً سديدة، وفسرهما تفسيراً صحيحا بروحه النيرة وبفطنته النافذة المتفتحة على عوالم المادة وما وراء المادة؛ ولذلك هُرع إليه من غير توان صاحبُ كلِّ وجدان نظيفٍ متنزهٍ عن أي حكمٍ مسبقٍ، وخضعت له أعصى النفوس تمرداً، واستسلمت له أذكى الأدمغة قاطبةً؛ إذ قَرأت في رسالته غايةَ خلق العقل. وبفضله انسلخ الإنسان من الحيوانية والجسمانية وتوجَّه تلقاء أفقٍ في مرتبةِ حياة القلب والروح. هو -باعتبار أفق الوجود- المفتاحُ السري للباب الموصِلِ إلى الوجود الخارجي، وهو -باعتبارِ تحقيق الهدف من خلق الوجود- الهادي إلى الصراط المستقيم الموفي إلى الحق تعالى، ونبع شفاعة السعادة الأبدية.

كل الأنبياء الذين مضوا من قبله قد قالوا ما قاله... والأولياء والأصفياءُ مِن بعده كلهم أجمعون -وأحوالهم الخارقة شاهدة على دعواهم- صدَّقوه وشهدوا على صدقه، وأقروا واعترفوا بأن حظوتهم هي منه. فإنه قد قال: "الله" ولَفَتَ الأنظارَ إلى التوحيد. وإن أصوات الأنبياء والمرسلين وأنفاسَهم، ومشاهداتِ الأولياء والأصفياء وكشوفاتِهم طراً، تؤيده وتسنده.

وكان صرحاً للإيمان؛ يعيش ما يقوله بمعيارٍ أدقَّ من شعرة شطرت أربعين مرة، ويزن تصرفاتِه بموازين الآخرة الدقيقة، ويحيا حياتَه في عمق كأنه يرى الله، وفي عمقِ رؤيةِ الله له. هو الأرهف حساسيةً في تصرفاته،

والأعظمُ جدّاً في المسؤولية، ويسعى حثيثا في أثر حسن العاقبة ولا يحيد طرفة عين عن الهدف، بل يهرع أبداً إلى النقطة التي اختير لها... وإذ يهرع إليها، يمد للجميع خطوط المعاني حُزماً حُزماً من الروابط بينه وبين الله تعالى.

وهو الذي شرح معنى الوجود فربطه بصاحبه الحقيقي، وبيَّن الحكمة المكنونة في لب الأشياء والأحداث، وذكَّرَنا مرارا بأننا لسنا وحيدين هنا، فشرح صدورنا بإشعار أرواحنا بأننا تحت الرعاية الربانية، وأزال الوحشة من نفوسنا وسما بأرواحنا إلى العلياء بنفحات أُنسه، وسقانا مشاعر السكون والاطمئنان التي نَشعر بها في ربوعنا وبين أهلينا. فإن كنا نحس بأن كل شيء في محله في هذا المأوى الدافئ، وإن كانت قلوبنا تخفق بعشق الحقيقة، وإن كنا نُطلِق أنظارنا في آفاق الكون الشاسعة مفكّرِين متأمِّلين.. فهذا كله بفضل النور الذي أوقده في عقولنا. وكلُّ ما نعرفه عن الإنسان والوجود والكائنات برمتها، فهو تفصيل لمجمَل ما أودعه في نفوسنا، ونموٌّ لبذور الحقائق التي بثها في أرواحنا.

هو باني الإنسانية من جديدٍ، ولا يزال، وسيبقى بانياً، في أمسِها ويومِها وغدها. وكما بدَّل في عصره بحملة واحدة، وبنفخة واحدة، مفاهيمَ ضالةً، وسلوكياتٍ غير إنسانية، وانحرافاتِ سوءِ الأخلاق والأمزجة المغروسة في الطبائع من آلاف السنين، فسيُسمِع صوتَه -يقيناً وحقاً- للجموع المنفلتة، المنفرِط عِقدُها اليوم، ويضبطهم بضوابطه إن عاجلاً أو آجلاً، ويُظهر قوة رسالته... وسمِّه -إن شئت- تجديد القراءة السديدة والتفسير الصائب في حقيقة (الإنسان والكون والألوهية) مرة أخرى، واتخاذ الإنسان موقفا يناسب دوره اللائق به في الوجود.

لقد أُرسل حضرة سيد الأنام (عليه ألفُ ألفِ صلاة وسلام) برسالة تتعلق بكل أحد وكل شيء. وكان يوفي وظيفتَه حقَّها ويؤديها بعمق فتمتلئ بحبه الأفئدةُ وتنجذب إليه القلوبُ. فهو يُشعُّ تكامُلاً شاسعاً في خلقته، وصدقا منقطعَ النظير في تصرفاته، وربانيةً تتجاوز جوانبه المادية دائماً في سلوكياته. وهو -فوق هذه الجماليات الظاهرية الباهرة- صاحبُ أخلاقٍ رفيعةٍ لم يطلها أحد، سمَّاها القرآن الكريم بـ"الخلُق العظيم".. حتى إن مَن يدخل رحابه لمرة واحدة من غير أحكام مسبقة، لا بد أن يدخل تحت تأثيره ويتعلقَ به إلى الأبد. وعنده -مع هذه المحاسن والمعالي- بيانٌ يأخذ بالألباب؛ فإذا تكلم أبكمَ أمهرَ حُذَّاق اللسان، فيغوصون في مراقبة السكوت، وينجرفون في تيارِ جذبات أقواله.

وإليك شيئاً من تفصيل ما قلناه آنفا: لقد وهبه الله تعالى السعة في خلقته الداخلية والخارجية، فهو مَهيب في تواضعه، جذاب في شخصيته؛ حتى إن دَخَلَتْ إلى حضرته أشدُّ النفوس كبراً وغروراً، ارتعشتْ من هيبته، وتصرفتْ بغير ما نَوَتْ وتصورت؛ وإن رسل كسرى المتكبرين ذهلوا وأُلجموا حيال صرح المهابة هذا. ومع هذه الهيبة وهذا الجدِّ والوقار، كان فيه لينٌ عجيب يجذب إليه النفوس، حتى لَيُحِسُّ من يَعرفه عن قرب بأنه أقرب إليه من الولد والأم والأب وكلِّ حبيب، بل يكاد "يدمِن" عليه فلا يود أن يغادر مجلسه أبداً. أحوالُه وتصرفاتُه كلُّها تبث ثقة عميقة في القلوب، وأقوالُه وأفعاله وملامحه تدل على حضوره الدائم أمام الله تعالى. يبث الأمان دوماً، وينشر الاطمئنان في الجميع حُزَماً ورُزَماً.

فقد عُرف بالأمين أولاً وآخراً؛ فالأمن يُشعُّ من نظره، وكلامُه يدور بلا توان حول الأمن، وفي حضوره تُسمع نغماتُ الأمن. وكانت تصرفاته

وعقله وروحه وعواطفه ومنطقه في توازن وانسجام تام. وإن ذكاءه المتقد، وفراسته السديدة، وثباته الذي لا يعرف التردد، وعزمه وإقدامه، وإستراتيجيته المحيرة للعقول مع تجنبه الكذب والخداع، وصبره وثباته حيال أشد الأهوال، وتبسمه في وجه المصائب، وقراءته للملمَّات قراءةً صائبة، واستخلاصه منها عبراً ملء الكتب، وحِلمُه الوطيد، ووقارُه الراسخ حيال الأحوال الموجِبة لأشدِّ العنف والغضب والحدَّة، لهي نبذة يسيرة من خصاله وأخلاقه التي تُبرز شخصيته المتميزة بين البشرية، وتُفصح عن مقامه ومكانته ووقفته الفريدة التي تناسب هذه المكانة السامية. فله المواقف البطولية التي تتبدل بها الهزيمة إلى الظفر، والفرُّ إلى الكر، فترفل رايات النجاح الإستراتيجي في خِضَمِّ المعارك ودخان الحروب.

كان بين أهله ربَّ عائلة لا نظير له ولا شبيه، وبين أصحابه معلِّماً ومرشداً كاملاً يدلف إلى شغاف قلوبهم بلينه الأخوي، وهادياً سديد الرأي لا يخذل من اتبعه، وخطيباً سيداً على الكلام، ذا قلب رباني، وحكيما أستاذاً في استخدام العقل، ورئيسَ دولةٍ لم يُعرف مثله، وقائدا عظيما يحوِّل الهزائم إلى انتصارات بحَملة واحدة. فأنواع الكمالات كلها كانت تَبلغ فيه الذروةَ العُليا، لكنه كان يتصرف أبداً بين الناس كفرد من الناس، ويَعُدُّ نفسَه واحداً منهم، فيؤذيه -مِن كثرة تواضعه- أن يُسنِد الناسُ إليه -أدبا منهم- مقاماتٍ رفيعةً هو حقيق بها أصلا، فيحذِّر أصحابَه بين فينة وأخرى من ذلك تحذيراً شديداً قد يصل إلى حد التوبيخ أحيانا.

كان بمثابة "علة غائية" للوجود، لكنه ما كان يوليه اهتماماً بقدر جناح بعوضة. رَفع السلاطينَ إلى العروش وألبسهم التيجان، لكنه عاش زاهداً أشد الزهد، فكأنه صائم عن الدنيا؛ فأشبع ولم يأكل، وألبس ولم يلبس،

وهتف بالشكر مئات المرات حيال قطرة من نعمة، مسشعرا فضل الله عليه وإحسانه على الدوام. فهو يسابق الملائكة في مضمار المعرفة الربانية والمحبة والخشية. أجل، كان في الدنيا، لكنه لم يكن دنيويا، بل كان في طريق العقبى... بل لم يكن مرتبطاً حتى بالعقبى أوّلا وبالذات، ذلك لأن قلبه كان معلقا بربه، وعينه في آثاره وفي أسمائه الحسنى التي تضفي على آثاره ألواناً وصورا ومحاسن شتى. كان ينظر إلى الدنيا وكأنها خليج للعقبى، ويراها وكأنها مزرعة يُزرَع فيها ويُحصَد، ويحيل الحاصل إلى الآخرة. وكان يَهُبُّ ويروح ويغدو كالرياح التي تحمل البذور يمينا وشمالاً لتُودِعها أمانةً للفلْق والنماء، فكان يعتني بالفقراء ويرعاهم، ويُطعم الجياع، وكثيراً ما يبيت هو جائعاً خاوي البطن. إنه سلطانُ عالَمي الدنيا والآخرة، لكنه إذ ارتحل إلى ربه، لم يورث أهله قصراً ولا عقاراً ولا مالاً ولا ريشاً. فقد عاش عيشة تليق به، وقوّم الدنيا تقويما يناسب شخصيته، ورحل منها رحلة توافق مكانته وعظمته. ومعلوم أنه لم يكن تاركاً للدنيا تماما، كما أنه لم يكن جامعا لها ومشغولا بها قط. فإنه كان يهتم بالدنيا بقدر حجمها وفنائها، ويهتم بالآخرة وما وراء الآخرة بحسب خلودها وسرمديتها، فيتخذ موقفه منهما بناء على هذا التصور.

ومع مهابته الرائعة المحيرة للعقول الحاصلة من علوِّ الأصالة وسموِّ النجابة وصِلتِه الوثيقة بالحق تعالى، كان متواضعاً أشد التواضع وكأنه يجمع بين الأضداد، حتى إن من لا يعرف خصاله وسجاياه المذكورة آنفاً، كان يحسبه من آحاد الناس. كان لا يُعير اهتماما بتعظيم أصحابه وتوقيرهم له، فيَقعد معهم ويأكل ويشرب، ويستر عنهم فوارقه وخصوصياته السامية التي تفرَّد بها عنهم أشدَّ السترِ حتى لا يُشعرَهم بالتمايز، ويريحُ مَنْ حوله

أحياناً بمُلَحٍ من ألوان التجليات الجمالية من العبرة والحكمة والمزاح أحيانا لكي لا يثقل عليهم ما في طبعه من المهابة والعظمة والمخافة؛ فهو يزين عِزّتَهُ بالتواضع، ويلطِّف مهابته بالشفقة، ويقدم لونه الناسوتي[1] ليزيد حلاوة إلى شهد مقامه وحلو طعمه.

كان حليما ومأمونا ورزينا، ليِّنا أعظم اللِّين حتى في الأحيان التي تُستَفز فيها وتثار مشاعرُ الحقد والكره والغضب، فيخفِّفُ شدة الطيش وحِدَّةَ الغيظ، ويسكِّن بنظرة واحدة عداوةَ ألدِّ أعدائه؛ وكان كلما أريد سحبه إلى موقف الخصم قفز إلى موقع الحَكَم. كان عفوّاً وسمحاً ما لم تُنتهك حرمة لله تعالى أو يهضمْ حقٌ عام. وفي السيرة النبوية مئات الأمثلة والشواهد على عفوه وصفحه وسماحته.

وما كان له نظير في الوفاء بالوعد؛ فلم يخلف وعداً قط ولو مرة واحدة، ولم يرجع عن قول ألبتة، ولم يقل شيئاً ثم خالفه، أو نَطَق بشيء خلاف الواقع حتى وإن كان إيماء، سواء قبل البعثة أو بعد نيله شرف النبوة. فسيرتُه صرح للأمانة والصدق والوفاء، وحزمُه ضدَّ من يخون العهد والميثاق معلومٌ ومشهور.

كان سلطانَ عالم البيان، ولقد بلغ جوهرُ القول قيمتَه الحقيقية على لسانه. لم يمسك بيده قلما ولا قرطاسا، ولم تطالع عيناه كتابا، ولم يجلس في حلقة درس، ولم يحتج قط إلى أن يقول لأحد: "أستاذ"؛ بل كان أستاذ الكل في الكل، وما من شيء يستطيع أن يمس أستاذيتَه الكليةَ. وفي هذا صيانة من الله لأوامره الإلهية أولاً، وصيانةٌ لِمَلَكات النبي الفطريةِ ثانيا وتاليا، من التأثيرات والتصورات الخارجية، حتى لا تُكَدِّر المكتسباتُ

---

[1] الناسوت: الطبيعة البشرية.

الذهنية والمعلوماتُ الأَجنبية تفسيرَ الأوامر الإلهية، ولا تتلوَّن بلون غيرِ لونها، أو تصبَّ في قالب غير قالبها. فكان أميا بهذا المعنى -ونفوسنا فداء لذاك الأمي-، ولكن له أقوال وأحكام وقررات في شتى الشؤون من أمور الدنيا والعقبى -باعتباره أستاذ الكل- حيَّرت وأدهشت الكلَّ؛ بدءًا مِن المتبحرِين في العلوم وامتدادا إلى فحول العباقرة، وإلى العقول الضليعة في الفلسفة، وإلى النفوس الصافية والأرواح المستنيرة. والتاريخُ يشهد أن أحداً لم ينل من رصانة بيانه، أو يقدحْ في حكم له، أو يتجاسرْ على أن ينتقص من إجراء له.

كان خزينة للمعرفة وحوضا للعلم نقيا متلألئا، لم يعترض أحد على إِخباره عن الأحداث الغابرة، ولا إخبارِه عن شؤون الديانات والمذاهب والثقافات والتقاليد والأعراف العائدة إلى أمم بائدة في التاريخ، وما كان لأحد أن يعترض، لأنه رسول الله، ومصدرُ علمه السديد الذي يصب في ذلك الحوض وتلك الخزينةِ هو الله تعالى. فكان في البيان سلطانَ البيان وصاحب القول الفصل، وكان في المنطق صرحَ محاكمةٍ، وفي الفكر بحراً محيطاً كفؤا لضخامة مهمته ورحابة رسالته العالمية. إن عباراتِه من السلاسة والانسياب، وبيانَه من الوضوح والفصاحة، وأسلوبَه من الغزارة والتلون والبهاء، بحيث يستطيع أن يعبِّر عن حقائقَ ملء الأرض في جملة أو جملتين، ويضمِّنَ شؤونا تَسَعُ المجلدات في كلمات، وينطق بجواهر -وأيما جواهر- ليودعها عند أساطين التفسير والتأويل. وفي حديثه: "أعطيتُ جوامع الكلم"[1] إشارة منه إلى هذه الرحاب الفسيحة.

وكان الناس يُمطرونه بوابلِ أسئلتهم في كل شأن من كل جهة، فيردُّ

[1] البخاري، الجهاد ١٢٢؛ مسلم، المساجد ٦.

عليهم من فوره بغير أدنى تلكؤ. كلامُه سهل يفهمه السواد الأعظم، ويعبر عن مقصوده بعيداً عن التشوش أو التشويش في إيجاز صاف وسيّال. وحين يتكلم يراعي مستوى المخاطبين لكي يفيدهم، من عالم وجاهل، وذكي وغبي، وقليلِ خبرة وخبير، وشاب وكهل، ورجل وامرأة، فيَبعث الاطمئنان في قلوبهم.

وإن أقواله وخطبه كثيرة، حيث خاض في شؤون مختلفة، وحلَّل موضوعاتٍ متنوعةً، لكنه لم يجانب الحقيقة والواقع في أي من أقواله وأفكاره. فلم يستطع أحد أن يلحظ على بياناته وأقواله ما يخالف الواقع، حتى إن ألد خصومه الذين يترقبون زَلة منه ليوقعوا به، لم يجرؤوا على إسناد الكذب إليه، بل عجزوا عن ذلك.

والحق أن من صان لسانه وكل تصرفاته عن مخالفة الواقع صوناً أدق من الشعرة، من طفولته إلى شبابه، ثم إلى سن تَشَرُّفِه بالنبوة في الأربعين، لا يُتصور أن يقوم بادعاء النبوة زوراً. وإنَّ تصوُّراً كهذا شيءٌ يتجاوز الإثم إلى تعصب كُفريٍّ أعمى، واستهانةٍ بالعقل والمنطق. هذا، وإن تبليغاته وموضوعاتِ أحكامه رحيبةٌ وَسِعَت الماضيَ والحاضر والمستقبل، ومحتوياتها متنوعة تتعدى عقول البشر: فهو يتكلم في العقائد، ويضع الأحكام في العبادات، ويتحدث في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والإدارية، وينفّذ ما يقول، ويَجني ثمراتِ ما ينفذ، ويتخذ من التاريخ شاهدا على صواب الأسس التي وضعها فيودع هذه الشهادة أمانة في الضمائر المنصفة البعيدة عن الأحكام المسبقة، وبعد ذلك يوقّع عليه بختم التصديق آلافُ المفسرين والمفكرين والخبراء المتفننين في فنون كثيرة، ومئاتُ الفلاسفة، على ما قال، وعلى الأسس الاجتماعية

والاقتصادية والنُّظُم العسكرية والإدارية، والقواعدِ التربوية التي وضعها. وزد عليهم جميعاً أن ملايين الأولياء والأصفياء يؤيدونه تصديقاً في كل حكم وفي كل بيان لهم، ويهتفون بأنهم بلغوا المراتب والمقامات بهدايته. لذلك فإن من يقول له: "لا"، فهو إما مخبول لا يدري ما يقول، وإما بائس بسوء الحظ مغسول الدماغ. فما شهد الماضي والحاضر أحدا مثله استطاع أن يقول شيئاً أو يضعَ أحكاما ثابتة في مسائلَ كثيرةٍ مختلفة، ولا سيما في موضوعاتٍ تتطلب حنكة واختصاصا ومهارة، فيدومَ طرياً ونديّاً أبداً مع الدهر. وكما نبَّه بديع الزمان النورسي رحمه الله: "إن الإنسان قد يستطيع أن يقول شيئاً ذا بال في بضعة فنون أو علوم، لكن حضرة ذاته ﷺ أدلى بدلوه في شؤون دقيقة تتعلق بالوجود والأحداث كلها، وقال أقوالا نافذةً في كل زمان ومكان، وبأسلوب بديع في المهارة والحكمة، وباطمئنان من غير تردد وتلكّؤ، لا يملك حياله مَن رآه وعرفه، ومن سمعه فأنصت إليه من غير حكم مسبق إلا أن يقول: "آمنتُ وصدّقتُ".

كان صرحاً للإيمان والحركية

ليس في البشرية مَن قَرَن بين الإيمان والحركية قراناً لازماً متوازنا، فريدا من نوعه إلا حضرة النبي محمد (عليه أكمل التحايا). فقد ارتبط وتعلق بالله بإيمان غامر، وآمن -بكل كيانه- بأنه رسول الله، وسلَّم له تسليما مطلقاً، وعَمِل -في كل وقت- بشعور عميق بالمسؤولية، ولم ينزغه نزغ من التردد والتلكؤ في اعتقاده أو دعوته أو استقامة سبيله أو توفيق الله له. وتلقاه الناس بالقبول كصرحٍ للصدق والأمان. فمن سعد بمعرفته صدَّقه واطمأن إليه واعتمد عليه، واحتَسَب الإيمانَ به والاعتمادَ عليه واتِّباعَه حَظوة حباه الله بها.

وكانت الثقة العالية به، واللاهوتيةُ والرصانةُ في الأسس العمومية التي بشر بها، والاستقامةُ والجدُّ في حياته السَّنِيَّة، مدخراتٍ وكنوزاً فريدة فيه، جَعلت الآلافَ ومئاتِ الألوف يُهرعون إليه سراعاً من غير توان، لا يأبهون بعاداتهم وتقاليدهم وموروثاتهم الراسخة في دمهم ولحمهم. وكان هذا حدثاً نادراً لا مثيل له في التاريخ، مؤيّداً أنه رسول الحق تعالى. فينبغي أن يَنظر علماءُ النفس والتربية ملياً في أسس هذا الانقلاب العالمي الشامل الذي حققه حضرةُ الذات النبوية، وأن يتفحصوا علومه ومكتسباتِه وأفكارَه تارة أخرى، وقد عجزوا في عصرنا هذا الوافرِ بأجهزة التربية ووسائله، عن نزعِ بضعِ عادات عن بضعة أطفال!

ولقد نشأ في بيئة يتهالك الناس فيها على المناصب والمواقع، ويتحركون دائماً بحس التوحش، ويتفاخرون بالنهب والسلب، ويلهثون وراء الشهرة، ويتخذون عيش المتعة والثراء غاية وحيدة للحياة... بيئةٍ مستعدة للاعتداء والظلم والتعصب والأنانية والحسد والفحشاء؛ بيئةٍ لا يُسمع فيها إلا نعرات الظالمين وعويل المظلومين وأنين الضعفاء ودوي القوة العمياء، كما عبر محمد عاكف (في أبيات ترجمتها):

كانت الأرض كلها في ذلك الزمان،
في بلايا أشد من بلايا حاضرِ الأيام
والبَشَرُ أوحش من الضباع طبعاً
فمَن لا ناب له، يفترسه إخوانه من الأنام
والفوضى في آفاق الدنيا،
والنزاع سارٍ كالوباء،
و-كما اليوم في الشرق- ناخر في العظام

الظالمون زمر وزمر، والمتمتمون بغريزة الثأر أفواج وأفواج، وكان هناك ركام من البشر مصابون بِحُمَّى الهيمنة على الآخرين، وآخرون يظنون الانسحاقَ تحت حكم الظالمين طاعةً وانقياداً... وكذا هناك متسلطون وحكام وقحون يمثلون القوة العمياء، وجموعٌ من الناس فاقدون للشعور يُستَغَلون كالعبيد، ومنهم منفلتون من ضوابط الأخلاق، ومهدِّدون للفضائل والقيم الإنسانية العالمية، وعابثون، ولاهون، ومغبونون غرباء أُجبِروا على أداء العبودية لله في قيود القواعد التي وضعها العِباد... وغيرهم كثير وكثير... هكذا كان المشهد العام على وجه الأرض. فمِن هذه الجموع البشرية المتخلخلة التي كل جانب منها ينطوي على ثغرة من تلك التي سردناها، استطاع هو أن يبني مجتمعاً ممتازاً ومثاليا وخارقا هو أكمل ما عرفه التاريخ كله.

فبالأسس التي أتى بها كان يسيرُ في طريقٍ فسيحةٍ في لاهوتيتها وقربها من الله تعالى، متطابقة مع النُّظم الكونية العامة تطابقاً تاماً ودقيقا، موصِلة سالكَها إلى الأهداف الدنيوية والأخروية... فتنفست البشرية في أجوائه العجيبة هواءَ الانسجام مع قوانين الطبيعة ممتزجةً بالدين والتقوى والمسائل الماورائية. فليس في رسالته أو في تمثيله للرسالة تصادُمٌ مع الأشياء والأحداث، وليس فيها إهمال الإنسان باعتباراته الجسمانية والروحانية بحال من الأحوال.

وكان ينشئ من أجزاء متفرقة من أبناءِ فلسفات وثقافات شتى مجتمعاً منظَّماً كالبينان المرصوص، يباري الملائكة... ويرغم أنف الإفراط، ويلجم التفريط، في جموع بشرية غريبة عن بعضها، وسهلة الانجرار إلى كل الانحرافات، وكان يشير إلى العقبى حينما يتكلم عن الدنيا، وينبه إلى الروح حينما يومئ إلى البدن، ويقدر كل شيء بقدره.

وكانت تبليغاته تستوعب أموراً كثيرة، من العقائد إلى العبادات، ثم إلى المعاملات، ثم -في إطار الأسس العامة طبعا- إلى الاقتصاد والإدارة والحقوق والعلاقات الدولية وقواعد الحرب والسلم وأسس التربية والتعليم وأصول تزكية النفس ونُظُم تصفية الروح. فكان يبين أسس هذه الأمور كلها بلسان يفهمه السواد الأعظم، ويبرهن عملياً بنفسه على إمكان تطبيقها بيسر، فيكون نموذجا مثاليا لها.

ومِن بعده، تأسست عشرات الدول وحُكمت مئات الشعوب وفاقاً لهذه المبادئ، وبزغت شموسٌ وأقمار في سماء الإنسانية من ملايين الأرواح المنوَّرة والأدمغة المفكرة ورجال "الحركية" الفياضين والفقهاء الأعلام والعلماء المتبحرين، على الرغم من الخصومة اللدودة من الأطراف المعادية وحقدهم وبغضهم وغيظهم وتخريبهم وعدوانهم. فمِن ساعةِ تشريفِه بالنبوة، وَجَد نفسَه حيال جبهة واسعة وعنيدة من أقرب الأعداء إلى أبعد الخصوم، طافحةٍ بالحقد والكره والعداوة. لكنه لم يهتز ولم ييأس ولم يأبه لشيء، بل بقي -من جانبٍ- مُعلِّماً وملقنا لرسالته ليقيم المجتمع العملي، و-من جانب آخر- استطاع أن يظل مقاوماً صامداً في وجه أنواع الخصوم من الركام البشري الذين لا إيمان لهم ولا أمان معهم. وفي هذا الخضم، لم يخَفْ ولم يخشَ ولم يهلع ولم يجزع ولم يتردد طرفة عين، وكذلك لم يقع في الاختبار والتراجع وإعادة التجربة، والغلط والتصحيح، ومسايرةِ الباطل وانتظار الفرص.

ولم يقع في خشية ردود الأفعال حينما واجه العالم كله بتفسير جديد للوجود، ونادى بصوت حديد -وأرواحنا فداءٌ لهذا الصوت- معلناً الحقَّ في وجه الأنظمة الدينية وغير الدينية، واتهم أموراً كثيرة في الاقتصاد

والسياسة والجيش والثقافة، وعالج مثل هذه الأمور أنى وجب ذلك. وإذ لم يهتز ولم يتردد قط، لم يدع عذراً لمن خلفه للاهتزاز والتردد. فوقف صامداً في التبليغ والرسالة، وصار مَعينَ أمان واطمئنان للجميع. ونفخ أنفاس اليقينَ دائماً في وعده وبشارته ونذيره، وهمس بأسرار الانتظار والترقُّب النشط في أذن الذين تآكل صبرهم لاستبطائهم العاقبة التي يرونها بعيدة، فأنشأ أبطالَ صبرٍ يُعجزون الصبرَ! وكذلك أنشأ من أرواح مشلولة وإرادات ضاوية وجِبِلاَّتٍ عجولة أبطالَ عزيمةٍ تتحزم بعزم النبوة، بعدما دخلت في فضائه النبوي.

لم ينحن، ولم يُدارِ أبداً في تبليغه للرسالة إبان عهد الإرشاد الرائق في مكة أو حيال التضييق والحرب والقتال الذي بادر به الطرف المعادي. ولما ضعضع وحده القيمَ الكذابة للإرث الغابر والنظام المتعفن القديم وجعلها قاعاً صفصفاً، لقي معارضة رهيبة، وتعرض لأنواع الخطر والتهديد. فلم يعُقْه ذلك كلُّه عن مواصلة المسير في الدرب.. ولما انسل مهاجراً من مكة إلى المدينة من بين أعتى القتلة المتَطَبِّعِين بفكر الشقاء، أو حاصره الأعداء في غار "ثور"، وحينما قطعوا عليه الطريق الطويل مرات إبان رحلته، أو واجهوه بالحرب في "بدر"، أو حينما تصدى للذين عزموا على شرب الدم في "أحد"، أو تعرض إلى حصار التنكيل في "الخندق"، أو استَقبل وابل السهام بصدره في "حنين"... في كل هذه المواقف، كافَحَ بصدقٍ وبسالة وصار قدوة في الثبات والصمود لكل من قد يهتز، وبإرادته الصلدة رَفَعَ إلى العلياء إرادةَ الخائرين، وبدَّل رياح الهزائم الحاصلةِ بزَلَّات الآخرين إلى نسائمِ الظَّفَر، وأرَغَم أنف كل الاحتمالات القاتلة حينما حوَّل رثاء النحيب المشعِر بالهزيمة هنا أو هنالك، إلى أناشيدِ الفلاح وأكاليل النصر.

لقد كان شجاعاً لا يضاهَى، ولكن كان مدبِّراً كيساً بقدر شجاعته. فنراه في بعض المواقف لا يأبه بحياته، وفي مواقف أخرى يحيِّر العقولَ بما اتخذه من تدابير الحيطة والحذر. لم يكن يأبه بالموت، بل كان ينتظره في كل آن. والحقيقة أن نظرته إلى العمر -حسب فهمه للحياة- هو موضوع تبعيٌّ مدَّخَر لخدمة الدعوة. والحياة إنما تجدُر بالعيش "لإعلاء كلمة الله" ولخدمة الحق تعالى، وإلا فلا معنى للحياة على وجه الحقيقة. فهذه الحياة عنده جسرُ عبورٍ إلى العوالم الأبدية وينبغي أن تقوَّم باعتبارها سبيلاً وممرا إلى الأرباح.

ولقد عاش عمرَه كلَّه ملتزماً بهذه النظرة. فقام وقعد بشعور "الإحياء"، واكتفى بفرح الآخرين وسعادتهم، وبذل للآخرين كل شي حصل عليه، فأسعدهم وقنع بالكفاف... فأكل وشرب ولبس يسيراً. فحياته كلُّها تُشعِر المتأملَ بخط عجزه وفقره إلى الله واحتياجه إليه، ولم يتبدل حاله في عمره كله. كان عنده الإحياء أحلى من أن يَحيَى، والإطعامُ ألذُّ من أن يَطْعَم، والإسعادُ أولى من أن يَسعد. فكان ينفق كلَّ ما يجد على المحتاجين، ويَمدُّ يد العون لكل فقير ومسكين، ويقضي دين المَدين، ويتمادى في البذل فيذيب الصدأ عن أصدأ القلوب، فيبدل هذه الدهاليز المظلمة إلى "بيوت لله" تنشر الأنوار.

ولما رحل فريد الكون والزمان، هذا الذي جعل حياته السَّنِيَّة أعظم بركةً من حياة ملايينِ الناس، رحل إلى الآخرة ودرعه المباركة مرهونة عند رجل من أهل الدنيا على دراهم معدودة.

والحاصل أن من ينظر إليه بنظر الإنصاف، ويطّلع عليه بالبصيرة، يظن أنه كائن فوق البشر؛ بإيمانه ومعرفته وصبره وحلمه ووفائه وزهده وشجاعته

وكرمه واستقامته وتواضعه ومهابته وحديثه وصحبته وحركاته وسكناته وبأحواله كلها، الفردية والعائلية والاجتماعية والإدارية والاقتصادية والعسكرية والتربوية. وهذا بدهي، لأن رسول الله ﷺ:

١- هو الوارث التام لجميع الأنبياء والمرسلين السابقين. فقد أخذ الله الميثاق من الأنبياء على القبول بنبوته. وبدهي أن هذا الميثاق كان باسم أممهم.

٢- وهو المرسَل برسالة عالمية وأبدية، ولم يُبعث إلى قوم معينين خاصة، أو لبلادٍ معينة حصراً، كغيره من الأنبياء. والشواهدُ الصادقة تجدها في كتب الخصائص.

٣- وهو الرحمة المجسَّمة المهداة إلى البشرية وهاديها الأخيرُ. والدليل على ذلك آيات القرآن الكريم، وسيرته السَنِيَّة برهان صريح على هذا.

٤- وهذه الرحمة المجسمة صارت درعاً واقية لأمته. والذين اتبعوه أمِنوا به من الهلاك العام من بعده أماناً لم يُعْطَ لأمم الأنبياء من غيره.

٥- وهذا الإنسان الممتاز الرفيعُ الشأنِ أقسم الحقُّ تعالى به وحده من بين سائر الأنبياء، وأيده بحيازةِ امتيازِ "لَعَمْرُكَ". فحياته انعكاس مراد الحق تعالى في مرآةٍ مجلاّةٍ، وبها أقسم تعالى.

٦- وهو الذي امتاز بأن الحق تعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم، وخصه في الخطاب بعنوانَي النبوة والرسالة. وفيه عبرة للمؤمنين ليتأدبوا معه.

٧- وهو الذي أوتي "جوامع الكلم"، بمعنى البيان الجامع البليغ الوجيز، كما أشرنا فيما سبق.

٨- وهو الذي نُصر بالرعب في قلوب الأعداء من مسيرة شهر، وهذا لطف وعناية خاصة به من الحق تعالى.

٩- وهو وحده صاحب الحظوة باستحالة اقتراب السيئات منه، بالإضافة إلى أنه كان الوسيلةَ للانفتاح الدائم لباب التوبة من الذنوب.

١٠- وهو الذي أوتي الكتابَ المحفوظ بحفظ خاص والمصانَ عن التغيير والتحريف والتبديل إلى يوم القيامة، متميزاً بذلك عن الكتب الأخرى.

١١- وكذا، هو المكرم بشرف رؤية عالَم الآخرة والاطلاعِ عليها بكل أعماقها وهو لا يزال في الدنيا. وقد كوفئ في لطفِ مقام المعراج بكرامةِ عمقِ عبوديته وبالمواهب هناك في ذهابه، وبثمرات رسالته كهدايا حمَلَها معه في إيابه.

ولقد حظي -مع هذه الخصائص التي هي قطرة من بحر- بدرجاتٍ ومقامات كثيرة كاثرة كمعجزة القرآن الكريم والمعجزات الكونية، أظن أن إحصاءها يستوعب مجلدات. والحقيقة أن أعماقه كلها تنبعث من رحاب وِجهته المَلَكوتية. وهو من هذه الوجهة، يتمتع بماهية يضيق عنها كل تعريف وتوصيف. فإن ماهيته أرفع عُلْوِيةً من الملائكة، وتَعَيُّنَهُ أول الموجودات وأقدمها. فكونُ وجوده أوّلَ الأنوار ونواةً أمرٌ بدهي. وبه تَحرَّك أولاً تسطيرُ القلم المقدس، وبه تَحقَّق البرنامجُ البشري. وهو البرهان الصريح الأبهى لسلسلة النبوة على الوجود الحق. وهو أول مرآة مُجَلاَّة لحضرة ذاته ﷻ. فهو أصفى وأشفُّ محلٍ لتظاهُر الصفات الإلهية، وهو أفصح ترجمان قاليّ وحاليّ للحق ﷻ، وهو رحمة الله تعالى المجسمةُ في الدارين، ورمزُ إتمامِ ألطافه ونِعمه علينا.

وبه عُرفت أسرار الألوهية كلُّها بكل الوضوح. وبه تنورت العوالم وانقشع الضباب والدخان الظاهري، فبانت حقائق الوجه الآخر للكائنات عيانا بيانا.
و كلُّ الأمور التي عُلِّمها النبيُّ آدمُ عليه السلام إجمالا، به أَدْرَكَتْ التفصيلَ التامَ.

فهو الوسيلة العزيزة الوحيدة التي تُوصِلُنا إلى الحق تعالى من غير حَيْدٍ وزيغ. وعنده مفاتيح أسرار الخزائن الإلهية. وهو المستودع الأمين على سر مبدإ الوجود ومنتهاه.

هذا الذي لا يضاهيه أحد، بوصلةُ حقٍ جَعَل الحقُّ تعالى طاعتَه مِن طاعته. أضاءت الكائناتُ بالأنوار التي نشَرَها فصارت كتابا وقصراً منيفا ومَعرضا، وتَنوَّرت تلك الظلمات الشاسعة وذلك العمى اللامتناهي.

فبفضله صارت الظلمات ضياء، والتقت السماء والأرض في أُفقِهِ الوضاءِ التقاءً نهائياً.

هو الذي رسالته القرآن. وهو الذي أُفقُه العرفانُ. وهو الذي بيانه برهان. وهو وسيلة سعادة الدارين. هو الذي نال تلطيف الحق تعالى بألف وسامٍ معجزةٍ، وهو الذي سيظل اسمه وذكراه الطيبة على الألسنة إلى يوم القيامة مرتبطا بتزكية القرآن.

هو مدار شرف الإنسانية، ونقطةُ مركزِ حقائقِ النبوة. هو قائد عسكر جيش الأنبياء وهادي الإنس والجن، الصادقُ الذي لا يضل معه أحد. بيانُه "أمير اللواء لعسكر الأنبياء" كما عبر عنه الشاعر "فضولي"، وكتابه أعظم هدية من الحق تعالى... ولِما أنه محلَّ التجلي "للروح الأعظم"، -وهو كذلك بدون شك- فتبليغه إكسير الحياة لأرواحنا... وبه استيقظت الإنسانية على القيم الإنسانية الحقة... وبه اصطبغت بالصبغة التي يرتضيها الله تعالى. ففي غيابه الحسرة الخالصة والهجران المحض، وفي الانفلات منه الضلالةُ الصريحة والخذلان المبين.

فهو النقطة المركزية للأسماء الإلهية والصفات السبحانية وهو النجم القطبي في سماء النبوة. الظهورُ الأول والحقيقةُ الإجمالية ترعرعتا مرتبطَين

به، والعناية الإلهية المجسَّمةُ الأخيرةُ به عُبِّر عنها، ومفتاحُ الشفاعة الذي يَفتح كلَّ باب يوم القيامة سُلّم -ويسلَّم- إليه.

الرسالة التي حَمَّله الحق تعالى إياها متميزة جدا عما حُمّل به الأنبياء جميعاً، وتوجُّه ألطافِه تعالى إليه ذو لون تكريمي وإعزازي. فحين يكلمه ربه يكلمه بأسلوب خاص يُعزه به ويعلمنا نحن أدبَ الخطابِ معه. فهو المخاطَب العزيز بأفق التكريم والتلطيف بخطاب: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم:١-٤). فهو مداد القلم الذي كُتب به الوجود، وروحٌ ومعنًى بمثابة الغاية لكتابة سطور الكائنات ومعناها، وأفصحُ ترجمانٍ لمجاهيلِ ظهورِ الأسرارِ الإلهية، ومخزنُ معرفة الحقائق اللاهوتية. هو خير شخص للمنصب السامي في الآية: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(آل عمران:٣١)، وأَسْطَعُ مَظهرٍ لمقام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾(الفتْح:١٠)، وأرفعُ إنسانٍ في ذروة مرتبة الرضا، والممثلُ المشع بالأنوار لرضوان الحق تعالى، والنورُ الهادي للسائرين، بفحوَى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾(الضحى:٥). وهو بحقيقةِ مضمونِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧) المفتاحُ السِّرِّيُّ والبابُ للعوالم الرافلة بالإيمان والمعرفة في الدنيا، وبالجنة وجمالِ الله في الأخرى، والوسيلةُ النورانيةُ للحظوظ الماورائية، والمفسِّرُ للحقائق التي لا يُدرَك كنهُها، والمفتي الخاص لعالم الذات (سبحانه)، والمَشرِق المنوَّر لأفق الصفات، والمُرشد الهادي المؤتمَن لمن اتبعه، وبَوْصَلة الحقِّ لأهل التوحيد، وشعلةُ النور الإلهي المبدِّد لظلمات الضباب والدخان المحيطِ بعوالم الإدراك والإحساس، والخليلُ الوفيُّ الخالصُ للواهبين قلوبَهم

للحق تعالى، والخصمُ الألد للشيطان والشيطنة، والسورُ الحامي لمن احتمى به في الدنيا والعقبى، والشفيع الموئلُ للمذنبين.

به خُففت التكاليف الثقيلة التي ما كان النهوض بأعبائها مستطاعاً، وبفضله رُفع عن الأمة الخطأ والنسيان. وفي مناخه وإقليمه بَدَّل العفوُ والعذاب لونَه، ووقع في كل صدر رجاء العفو والغفران.

هو المدعو الخاص الذي دعاه الحق تعالى إلى وليمة السماوات، وهو العارج العابر بـ"قاب قوسين" حيث ترنوا إليه الأبصار. وضيافةُ "سدرة المنتهى" هبةٌ مهداة إليه وحده، وما رآه في مضمونِ ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾(النجم:١٧) من غير دُوار في الرأس أو غبش في العين، رصانةٌ ووطادةٌ خاصةٌ تَلطَّفَ الله تعالى بها عليه. شاهَدَ ظهور الآية الكبرى بخصائص ذاتِها فما عَشِيَت عينه البتة... وإذ ذاك صار "المشار إليه بالبنان" في أهل السماء كافة... معه صار جبريل –لأول مرة– رفيقاً وخادماً لبشر في سفر سماويٍّ لا يُدرك... وكان هو في سفره هذا يَمضي إلى ما وراء العوالم المادية عابراً العوالمَ المادية بسرعة تتعدى سرعة ضوء البوارق.. فيَرى ما لا يُرى. فـ"سدرة المنتهى" أولُ منزل، و"قاب قوسين أو أدنى" ذروةٌ يستسلم فيها العقل، و"لقاء الله" حظوةٌ تتعدى أُفق إدراكِنا وفهمِنا.

وسيد هذا كله –بتعبير الشيخ غالب–[1]، (مترجَماً من التركية)

[1] الشيخ غالب: ولد بإسطنبول سنة ١٧٥٧ وتوفي سنة ١٧٩٩. اسمه محمد بن مصطفى راشد. وغالب مَخْلصُه (اسمه الشعري) على عادة الشعراء الأتراك. تعلم الفارسية على يد أبيه بتلقي الدروس من مصنف تحفة الشاهدي في الطريقة المولوية التي ينتسب اليها هو وأبوه. تدرج في معارف الدين والتصوف والأدب حتى ارتقى إلى مشيخة التكية المولوية في غلاطة بإسطنبول، وبقي فيها إلى وفاته. له مصنفات في التصوف وشروح على المثنوي ودواوين شعر. أثر في شعراء التركية والفارسية وله أسلوب خاص ذو تداعيات غنية وخيال سارب ومتسلسل. أدخل ما يسمى بالسبك الهندي الى الشعر التركي ومال إلى الانبساط في المفردات التركية حسب مقاييس عصره. واحد من كبار شعراء المتصوفة (المترجم).

"هو سلطان الرسل الشاهُ الممجد،
وهو للبائسين، العز السرمد،
في الديوان الإلهي العميد المعتمد،
الأحمد المحمود المحمد".

إنه قد رأى... ورجع إلينا ليُرينا ما رأى. وإنه قد سمع، وعاد ليُسمِع أرواحنا ما سَمع. فهَمس في وجداننا بأسرار الأول والآخر، والظاهر والباطن. هو أهم رمز للأول، وهو مرآة الآخِر الباثَّةُ للأنوار. هو أعلى صوتٍ داعٍ للأحدية الذاتية والواحدية الصفاتية، وهو الإنسان الكامل الحقيقي المستودعُ الأمين على عِلم الذات والصفات والأسماء. هو منذ التعيُّن الأول مهاجرُ أفقِ الإنسان بعنوان "أحمد"، وضيف المدينة من مكة باسم "محمد"، وصاحب لواء الحمد من البرزخ باسم "محمود"، وقيّمُ أستار الجنة وجمالِ الله، ومنهلُ فيضِ العوالم الروحانية والجوهرُ الأصل لعالم الجسمانية بأسمائه الشريفة كلها.

فيا لب الوجود ونواتها، ويا ثمرة شجرة الخلق والصوتَ الجهوري لحقيقة التوحيد، لولاك ما كان لنا ولا للكائنات معنى. ولقد قرأنا ذواتنا، ووقف كل منا حسب موقعه -إن استطاع- في الصف الصواب - بفضلك أنت

بقدومك وَضَح الوجودُ والحوادث وزال الغبش عنها... بتشريف مجيئك تبدلت ألوانُ الأشياء وصارت لساناً فصيحاً تنطق باسمِ ما وراء الوجود.

ولم يسقط لك ظل على الأرض، ولكننا نجونا بفضل ظلك من السقوط والهلاك الأبدي. واليك أُوكِلَ منذ الأزل حَلُّ عقدة الكائنات المتشابكة، وإليك وُسِّد تقديمُها وتثمينها. والذين جاؤوا قبلك اكتفوا بتهجي مجمَلات هذه العقدة المتشابكة... وأنت الذي حللتَ العقدة وفصَّلت المجمل. وإليك سُلِّمَتْ مفاتيح الدارين بالتقدير الأول والتسليم الآخر... فأنت

مُفَتّحِ باب الدنيا ومرشد سبيل الآخرة. وصرتَ -برسالتك- الناطقَ باسم حقيقة التوحيد ومُخَلِّصَ الإنس والجان.

وقبل قدومك إلى الدنيا وتشريفك لها نادى مئات بل ألوف من أصحاب الوجوه النيرة بدعوى التوحيد، لكن أحداً منهم لم يبلغ مبلغ داوُدِيَّتِكَ.[١] فقد كانت لمواهبهم حدود معينة ما كان لهم أن يتخطوها فيَصِلوا إلى آفاقك. وقد سعوا في سبيل نشر رسالاتهم وتبليغاتهم أعظم السعي، وتخطوا ما لا يُتخطى. فمنهم من قُطع أمامه السبل، ومنهم من قُطعت رقبته، ومنهم من ارتحل إلى عالم الآخرة وما زال في بداية الطريق أو منتصفه، ومنهم من لقى أعنف أنواع التمرد، ومنهم من رُجم بالأحجار حيثما حل. كلهم طفح بالعشق والشوق في كل آن، وذاقوا وهم على قيد الحياة مرارة الموت مرات عديدة. وأكثرهم وجدوا ما يبتغون فنجا بفضلهم الألوف المؤلفة من البشر... ولكنك وحدك من بينهم أسمعتَ صوتك القاراتِ المختلفة ووقفت منتصب القامة من غير تزعزع واهتزاز. ولم يتخلف من أصحابك الذين اتبعوك تائه في الطريق إلا عدد قليل من المنفلتين. كان ينبغي إنجاز عمل عظيم، فَكَدَّ مَن اتبعوك كَدّاً كلهم أجمعون، وسعوا بلا فتور، وركضوا، ولكن لم يتعبوا قط، ولم يتخلفوا -البتة- عن المسير.

فهم يليقون بك وأنت تليق بهم. وتحبهم ويحبونك. كأن يد القدرة أعدتهم لصحبتك -وهبنا الله شعور نشوة الصحبة هذه في قلوبنا- فكانوا جديرين بصحبتك ولائقين بها. وحين سرتَ إلى الوصال فرحاً كـ"ليلة العرس"[٢] رنوت إليهم بجانب قلبك الناظر إليهم، فبكيت قبالة تلك الوجوه الناضرة.

---

[١] نسبة إلى النبي داود عليه السلام المشتهر بحسن الصوت وجَهْوَريته (المترجم)

[٢] ليلة العرس: من الرموز المصطلح عليها عند "المولوية" خاصة من طرق الصوفية، إشارة الى الفرح بالانتقال إلى العالم الآخر كالفرح في ليلة الزفاف. (المترجم)

لم يكن المعراج من نصيبِ أيِّ مباركٍ مِن قبلك... فطفتَ وشاهدت كل ما وراء المادة في أفق الرؤية. لكنك -حتى في رفراف تلك المحاسن التي تبهر العيون بضيائها- لم تفتأ تذكُر أصحابك وتذكُر من يأتون مِن بَعدُ. ولم يخمد في قلبك لهيبُ الرغبة والشوق في أن تُرِي ما تَرَى وتُسمِع ما تَسمَع وتُشْعِر بما تَشْعُر. ما أبدع وما أعظم ذهابك وإيابك وفَتْحَك فرجة في باب الماورائيات للأرواح المستعدة.!. فَرُحتَ كما أنت، ورجعت كما أنت، وفي هذه الرحلة السماوية الفريدة في تاريخ البشرية طراً، ارتبطتْ ألطاف الأزل بأنفاسك... ولم ينِ مَن في السماوات والأرض مِن السلام عليك توقيراً ومِن انتظار التباشير. كانت الأنوار فوارة في الأطراف كلها، والأضواءُ هاطلة في الأرجاء جميعها، طافحة على العصور كافة. ونحن احتفظنا برجائنا في أن تسقط قطراتٌ من حُزَم تلك الأنوار فوق صدر هذا العصر العفريت المارد، وسنبقى نرجو ونأمل. فأنت وفيّ، وما كنت لتَحرِم عشاقك في هذا العصر وأنت تهطل كرماً وعناية ووداً على الأرجاء كلها... وفِعلاً لم تحرمهم البتة. فإنَّ مَن يسير منا إلى النور، فإنما يسير بضيائك.. وإن كنا نحيا -ولو في الجملة- فهو بانتسابنا إليك.

يا أيها النبي المبارك المحلق في الأعالي أبداً..! أنت روحُ الروحِ لنا، ورسالتُك دواء لأدوائنا المزمنة، نرجوك أن تأتينا كرة أخرى، فلا تدعْنا بلا روح... نرجوك أن تتكلم مرة أخرى، فلا تَدَع عبيدك في مضض الهموم... في طريق مسيرتنا كثير من المتربصين بنا الداوئر، وعظائمُ من نيران الفتن تَغشي آفاقنا بدخانها... ونحن نكدح في السير مهما كان، نسعى مرة، ونكبو أخرى!.. فاجعل معيتك علامة لنا في طرق سيرنا، وأَشعِرْ قلوبنا بطمأنينة دلالتك وهدايتك إلى سواء السبيل. ولقد سار في هذه الطريق

الألوف ومئات الألوف، وعَبَرُوا منابت الأشواك والعضاه، فَقَطَفوا وروداً فضلاً وزيادة، أو تعبوا وأُنهكوا مرات ومرات، واهتزوا وارتعشوا أحيانا... لكنهم كوفئوا دوما مكافأةَ الساعين الجادين الكادّين. وأنت الموجود في بداية طريق المفاجآت هذه، وأنت في نهايتها، وأنت في قرار قلوبنا أبداً، تعزُّزا ودَلالاً وإن غبت عن العيون. فإنْ كانت قلوبنا مازالت تنبض بالحياة فإنما هي من الإكسير الذي سقيتها أرواحنا. وإنْ كانت صدورنا مفتوحة لك، فهي بفضل جاذبية رسالتك واستيلائها على الألباب. وإذا لم تنادنا من فوق قمم القلوب، فلم نسمع نحن -بدورنا - مِن آفاق أرواحنا أنفاسَك المُحْيِيَة، فسنصفرُّ كالأوراق التي يلتهمها الخريف، ونصير سبباً لهبوب أنسام الحزن في أفقك. وكم كنا نتمنى ألا نتطاير أشتاتا مع الخريف، وألا نكون وسيلةَ حزن يطرأ عليك... لكن هيهات هيهات!.

ولقد جئتَ لتنفخ الروح في القلوب الميتة، ففعلت وأديت ووفيت بما اعتمدتَ عليه من منبع المدد والعناية... فانظر الآن إلى "الجنائز الحية" التي تجوب حيث رَفْرَفَت الحياةُ زماناً كبساتين إرَم! وإلى الغربان تنعق عناداً للبلابل! وإلى ضجيجِ مهرجانات الوطاويط في الأرجاء!... فتعالَ رحمةً بحالنا، ولا تقهر الطالبين للحياة بغيابك! ففي كثير من النواحي التي كان اسمُك يحلِّق في سمائها، إذا بالشياطين ترفع فيها ألويتها... والدنيا وقعت في أحابيلِ فقر الروح والمعنى. إن إطلالك مرة واحدة على الأرواح سيُبدِّد ألاعيبَ الشياطين، وسيبث الحياة في المكبوتة أصواتُهم وأنفاسهم منذ عصور. وكم زُمرٍ حائرة تحبو في الشعاب الصعاب تظن أنها سواء الطريق، وكم زُمرٍ من غير طريقٍ البتة!. وعواصفُ النفاق تهُبُّ في كل جهة وصوب، والشتاءُ الزمهرير ينفث التوحش بلا كلل. وأبناءُ

"فاوست" أغرارٌ أكثر غررا من ذي قبل، و"مفيستو" أحذقُ المتمرسين! وإنا مغلوبون دائماً، وندفع الثمن على الدوام، فكأننا محكومون بدفع الإتاوة... فمنذ أن فتحتُ عيني رأيتُنَا نُهان ونُذَل كالأيتام في مائدة اللئام، ورأيتُنا نَعْلَق في شِباك الأفكار الخؤونة. وكيف نُيَتَّم في مائدة اللئام وأنت موجود؟ وما معنى فقدان الصاحب الحامي والحُكمُ لك؟ كلا.. لسنا أيتاماً، ولسنا من غير صاحب وحام... بل نحن كأمثال أولاد الشوارع الذين انتزعوا أنفسهم من مآويهم الدافئة وألقوها إلى الدروب... ولن ننجو من تعاطي المخدرات هناك وهنالك، ومِن ظلمِنا لأنفسنا، إلا أن نعود إليك ونستنشق روائحك الوردية... قُطَّاعُ الطرق يصولون في كل ناحية، وهريرُ السُّرَّاق والمشؤومين يُسْمَع في كل جهة. أباحوا كل شيء، فنهبوها، وكانت قلوبنا مما نهبوا!. "عقلُ المعاد" مَهيض الجناح في هذا الزمان. الوجدانُ مضطرب في الخفقان وأرواحنا في شِباك الهذيان... فافتح فاك وأرسل إلينا من أنفاسك نفحةً طرية توقظنا فنعود بها إلى ذواتنا... قانون الفناء لن يحُول دون قوة تأثير روحك، ولن يَقْدِر أحدٌ على محو اسمك من القلوب. أنت هبة الأزل إلينا هديةً لا تقدر بثمن، وأنت راعي بستان الآباد. وبكلماتٍ منك يُبَدِّل الشوكُ طبعَه فيغدو ورداً... وإذ تَنطق تكون بيادرُ الأكاذيب كلها رماداً.

لجأنا إلى أعتاب بابك... نرجوك أن تكلمنا -متجاوزاً بُعدنا عنك- كما كنت تكلم أحباءك. فإذا فَرّجت بين شفتيك مرة بطل سِحرُ سَحَرةِ الكلام، فسنحل عُقَدُ أَلْسِنةِ المحكوم عليهم بالخرس -حتى إن لم يستحقوا ذلك-، وستنطلق الأصوات تنضد خطبا عصماء باسمك. وكم عصورٍ ميتةٍ انبعثت بأنفاسك -فدت نفوسُنا تلك الأنفاس- وكم مرةٍ تَراجَع إسرافيلُ

خطواتٍ إلى الوراء ووقف توقيراً لسماع أنفاسك الداوُدية بصوتِ صُورِك أنت. وكم كرّةٍ أنبتت القفارُ القاحلةُ جِنانا وحدائقَ بأنفاسك. ولستُ أدري هل تَعُدُّ "الرجاءَ كرّة أخرى" وقاحةً؟ وإنها إن تكُ وقاحة فهي هينة بالنسبة إلى حرمان قلوبنا منك. نحن بذورٌ سائبة تنتظر لواقح، وأنت كالرياح المرسلة اللواقح... نحن أجسادٌ ميتة تنتظر الإِحياء، وأنفاسك إكسير الحياة لنا... فهُبَّ فوق رؤوسنا، وأَرِنَا سبيل الانبعاث، وانصبب علينا غيثاً زخاتٍ وزخاتٍ، ودَوِّ فينا ببشرى ربيع جديد. نحن نترقب مفاجآتِ تلطيفٍ وإكرام، ورؤوسُنا نضعها حيثما ستدوس قدماك، وعيوننا ترقُبُ حيثما سيسطع ظهورك المرتقب.

هذا العالَم عالمك... فهل يعني أيُّ قول وصوتٍ لغيرك شيئا في عالمك أنت؟ فمذ وقع ظلك على سطح الأرض لم يبق للنبي سليمان إلا الاسم. السِّكة عندك، والختم بيدك، فما قوة العسكر المقابل ولو كان قائده الإسكندر؟ وإذ تنعكس أصداء صوتك الدَّاوُدِي أناشيدَ في كل العالم فهل من حاجة إلى داوُد عليه السلام؟ ومادام القول قولك أفلا يُعَدُّ كلامُ متحدثٍ غيرِك وقاحة؟ ونحن الساقطون أرضا لن يُقيمنا على أقدامنا غيرُك... وظهرُ الإنسانية المقصومُ المحدَوْدِب لن يُقوِّمه شيء إلا همتُك.

وإن ظلك على رؤوسنا -ولو من بعيدٍ- صار نفخةَ "انبعاث من الموت". وإن ولادتك الحقيقية ستطفئ الشموع الشيطانية كلها، وتحفِّز الأرواح المدفوعة إلى الظلمات نحوَ منبعِ نورٍ لا يخبو... قد ربط الله النور الذي يضيء العوالم بك. وزِرُّ نبع النور الذي يضيء الدُّنَى تحت لمسة يدك. ولئن سألت فالله مريد مجيب... ولئن قلت فإنَّا سماعون مطيعون... فاسأل حتى تتجلى المشيئة الإلهية، وقل حتى تَسمَعَ الآذان قولاً سديداً.

أنت عند الحق تعالى وعند الخلق خير من العوالم كلها. نحن مستعدون لإرضاء دلالك وتعززك، وأنت إكسير حياتنا.[١] يد المسيح كانت تحيي أجساد الموتى بإذن الله، وأنت صرت إسرافيل تنفخ الروح في القلوب الميتة منذ مئاتٍ وألوفٍ من الأعوام. فتعالَ الآن وأذعْ صيتك كرة أخرى في العالم أجمع حتى تنطفئ نيران النفاق والشقاق والفتنة، وتَتَسربَل كلُّ الأرجاء بلون قريتك.

وإن ما قلتُ هو صدى بؤسي، لكن رجائي هو الرجاء العام. عَرَفناك رحمةَ الرحمن للعالمين أبداً، وعَرَفنا أنفسَنا سائلين متسولين في الباب:

"أكرِم يا سلطاني ولا تقطع الكرم عن كل بائس متذلل،

وهل يليق بنبع الكرم قطعُ الكرم عن متسول؟"[٢]

(رَبَّنَا اٰتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أمرنا رَشَدًا، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا فَرَجًا وَمَخْرَجًا. وَصَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلاَةً تَكُونُ لَكَ رِضَاءً وَلِحَقِّهِ أَدَاءً، وَصَلِّ وَسَلِّمْ أَيْضًا عَلَى جَمِيعِ إِخْوَانِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، آمِينَ يَا مُعِينُ)[٣]

---

[١] لعل المقصود بهذا الخطاب الأدبي أن الرسول ﷺ هو إكسير الحياة الحقيقية الساري بالإحياء في كل شيء إحياءً حقاً. ولذلك فكل قول منه، وكل إيماءة منه، بل حتى كل سكوت منه، عزيزٌ مُفدّى أعظم من دلال الحبيب وتعززه على العاشق الولهان. (المترجم)

[٢] ترجمة بيتين لمحمد لطفي الألوارلي من التركية. وهو من مشايخ المؤلف (المترجم)

[٣] ما بين القوسين ورد في الأصل بالعربية (المترجم)

نظرة إجمالية إلى الإسلام



الإسلام مشتق من مادة السلم والسلام، ومعناه استسلام العبد لله تعالى، وانقياده لأوامره، وانخراطه في السير في طريق سليم وسديد نحوَ السلامة، وبثُّ الأمان في الناس وفي كل شيء، كما يعني سلامة الآخرين من لسانه ويده.

أساس الإسلام ومبدؤه هو الإيمان والإذعان، ومنتهاه الإحسان والإخلاص. وحقيقةُ الإسلام بإيجازٍ، هي أن يصدِّق المرء بحقيقة الألوهية تصديقًا لا يحتمل الضد مطلقًا، ويوثقَ رابطة قلبه بالحق تعالى، ويؤديَ التكاليف أداءً دقيقًا ورقيقًا وكأنه يرى الله تعالى أو يراه الله تعالى، وأن يسعى في بلوغ رضا الله في كل عمل يعمله.

وقد عرّف بعضهم الإسلام تلخيصًا بأنه: "التسليم لله ﷻ وإظهار الانقياد والولاء له بالشكر قولاً وفعلاً وحالاً، والمكوث في الرغب والرهب الدائم". فالذي على هذا الحال، يسمى مؤمنًا أو مسلمًا -وليس إسلاميًّا (Islamist-İslamcı)[1]- ويعتبر مرشَّحا لنيل السعادة الأبدية

إن الإسلام الذي يستند إلى الوحي الإلهي، وبلَّغه الرسول ﷺ وتَمثَّله

---

[1] أنبه أن مسمى "إسلامي" (Islamist) و"ديني" له وقع أثقل على النفس بالتركية، إذ يقال بالنص "إسْلامْجِي" (İslamcı) و"دينْجِي" (Dinci) بحرفي النسبة الجيم والياء (جي)، وبهما أيضًا يُعرف أصحاب الحرف مثل "كَبابْجي" أو "حَلْوَجي" (صانع الكباب أو الحلوى وبائعهما)، فيكون المعنى أثقل في التركية وكأن المبلغ أو الداعية إلى الإسلام صاحب حرفة يحترف الإسلام ويتاجر به. (المترجم)

وأحياه وطبَّقه.. دين سماوي. والمؤمن والمسلم هو من يجعل الإيمان بهذا الدين، إحياءً لحياته. ففي أساس الإسلام وباطنِه الإيمانُ والإذعان والتسليم، وفي ظاهره الطاعةُ والانقياد والعمل الصالح. وعرَّف السلف الدين بأنه: "وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات". وإنما يمكن الحصول على الثمار الدنيوية والأخروية لمنظومةٍ حركيةٍ فعَّالة كهذه بقدر جعلها عنصرًا لإحياء الحياة، وبمقدار تمثُّلها في الواقع. وإلا فيتعسر الحديث عن محاسنها إذا أقصيت إلى خارج الحياة.

ومع الانتباه للتمييز اللغوي بين الإسلام والإيمان، فالرأي الأرجح المقبول، هو أنْ لا إسلام بدون إيمان، ولا إيمان بدون إسلام؛ الإيمان باطن، والإسلام هو الظاهر بانعكاسه على القول والفعل والحال. والنظام الإلهي الذي نسميه "الدين الحق" هو الأمر الجامع لذلك كله. فالدين هو عنوان إلهي يعني أنْ يكون الإيمان والإسلام بجميع شُعَبهما وكلياتهما حياة للحياة. وإن القبول بهذا النظام على هذا الوجه وتطبيقَه في واقع الحياة، هو التصرف المؤمن، والذي يمثله بهذه الحال هو "المتديّن" التقي وليس "الديني"[1]. فبناءً على هذا، الذين يظنون أن الدين مجردُ "اعتقادٍ"، وكذلك "المسلمون بالثقافة" الذين لم يتقبلوه قبولاً خالصًا في صميم قلوبهم، كلاهما مخدوع. وجليّ أن كلتا الزمرتين محرومة، وستحرم، من حسن ثواب الدنيا والآخرة التي وعد الله ﷻ به أهل الدين والتدين.

---

[1] الديني: نسبة إلى الدين كما يقال "الإسلامي" نسبة إلى الإسلام. وهذان المصطلحان قد تم استخدامهما من قبل بعض الأوساط المغرضة والمعادية للإسلام -ولا سيما في تركيا- بقصد تشويه سمعة كل مسلم واع يحمل همّ إحياء شعائر دينه وإبلاغها إلى الآخرين.وهذه الأمور تدخل في صراع المصطلحات الثقافية الكثيرة، الحامي على سطح العالم الإسلامي، وفي تركيا خاصة. ومرده إلى قصد التمييز أو الفصل (كل حسب مرامه) بين المسلم وبين المبلّغ أو المرشد أو الداعية. ويراد منه تجريد المبلّغ أو المرشد أو الداعية عن الإسلام في بعض الأوساط، لعزله والاستفراد به. (المترجم)

لكن لا يصح احتساب العمل جزءًا من الإيمان استنادًا إلى ما ذكرناه آنفا؛ فمن اعتقد بأن العمل فرض ثم تَرَكَ إقامتَه وإجراءَه على وجهه فمع أنه يكون آثمًا ومرتكبَ ذنبٍ، لكنه يعتبر مؤمنًا. ولا علاقة لهذا الذي نقوله بأفكار "المرجئة" البتة، ذلك بأن الاستهانة بالذنوب مع الإيمانِ شيء، وتقويمَ المسألة في إطارِ "أن الله إن شاء غفر، وإن شاء عذب" شيء آخر. والإيمانُ -حسب القرآن- أصلٌ لابد منه، وأساسٌ ضروري لا يقوم شيء إلا به، وأما الإسلام فهو الوسيلة الوحيدة لصيرورة الإيمان من أعماق طبع الإنسان.

فالعمل من غير إيمانٍ نفاقٌ، وتركُ العمل رغم وجود الإيمان فسقٌ. ولا يُغفر عن النفاق بتاتا باعتباره كفرًا مخفيًّا ومضمرًا، أما الفسق أو الفجور، فيحتمل فيه المغفرة -في كل وقت- بالتوبة والاستغفار والإنابة إلى الحق تعالى. وبهذا الاعتبار، ينبغي أن نحافظ على حسن الظن بحق تارك العمل الذي لا يزدري به أو لا يستحقره أو لا يستهين به، وأن لا نحكم عليه بالكفر؛ وأما تارك العمل الذي يستحقر المؤمنين لكونهم مسلمين ويُسَفِّههم، فللظن به وجه آخر غير الوجه الأول.

ويَجدر أن نذكّر ههنا، بأن محطّ الإيمان ومحل انكشافه هو القلب والوجدان، وبأن الله تعالى يريد -بمقتضى الإسلام- أصلاً مهمًّا آخر مع هذا القبول الوجداني، ألا وهو العمل الصالح والخُلُق الحسن. فمِن هذه الوجهة، ينبغي على المؤمن أن يحفظ -في كل وقت- ما صدّق به وآمن، سواء الأمور النظرية أو الشؤون العملية، إلا أن يُكره أو يُضْطر.

نعم، كما أنه لابد من تجنّب الشرك وكلِّ شوائب الشرك، لكي نكون مسلمين، ينبغي -كذلك- تعليق القلب بالله بإخلاص، وعبادةُ الله كأننا نراه

أو كأنه يرانا، وإجراءُ التصرفات الاجتماعية في إطار "الخلُق الحسن" الذي يأمر به الإسلام... وذلك كله، انعكاس لصور الروح الإسلامية على حياة الإنسان بأبعاد تجلياتها المختلفة. إن هذه الشؤون التي يمكن أن نُرجعها إلى الإيمان والإسلام والإحسان -كما ورد في حديث جبريل المشهور- هي بعينها، سلسلةٌ من اللوازم المرتبطة ببعضها البعض والمتداعيةِ فيما بينها، وأعماقٌ مختلفةٌ لشأنٍ واحدٍ، مع الأخذ بالاعتبار أن الأصل الأساس هو الإيمان، وذلك باعتبار فروق الظاهر والباطن للحقيقة الواحدة. إن الباطن يستدعي الظاهر ويربو به، وإن الظاهر يستند إلى الباطن ويتأسس عليه ويقوم به. وإن العملي هو صوت لروح النظري وجوهرِه.

فما دام أصل المسألة كذلك، فادعاء أن الدين محضُ مسألةٍ وجدانية، استهانةٌ بروح الدين ووقاحةٌ وتجاوُزٌ للحد. والذي يُظهِر قبولَه للدين -والله يتولى السرائر- ثم يقول: "اعتبرْ بما في قلبي"، ثم يتعدى ذلك إلى اعتبار الانشغال بالجوانب العملية للدين تطرفًا، فإنما يُمنّي نفسه بالأوهام الفارغة ويستتر عن المؤمنين بقناع الإيمان. إن تفسير الإيمان والإسلام تفسيرًا يمالئ أهواء الناس وغرائزهم، يخرجه عن دائرة الدين السماوي، ويجعله نظامًا بشريًّا؛ والأصل أن الإسلام وضْعٌ إلهيّ إلى البشر لإنقاذهم من الأهواء والغرائز وربطِهم بالحق وهداية الحق تعالى. أو بتعبير آخر، هو مجموع السنن الإلهية المنزلة لإخراج البشر من سجن الحيوانية وضِيق الجسمانية، وتجهيزِهم للانطلاق والسياحة في الإقليم الرحيب الفسيح للقلب والروح. وإن روح هذا النظام الذي لا نظير له هو الإيمان، وجسدَه هو الإسلام، وشعورَه هو الإحسان، وعنوانَه المعظم هو الدين.

الدين -وكما قلنا في البداية- يخاطب العقلاء وأصحاب الشعور،

ويوجههم بإرادتهم واختيارهم إلى الخير الدنيوي والأخروي، ويَعِدُ المستجيبين له، بالسعادة الأبدية. إن موقع المكلفين حيال الدين ليس الانسحاق تحت مسؤولياتهم إزاءه، بل -انطلاقًا من حقيقةِ "الخالقُ أعلم بخلقه"- تعليق الصلاح والحَسَن والخير والسعادة الأبدية بإرادتهم -في مستوى الشرط العادي- في علم الله وبإرادته وتقديره، تكريمٌ وتلطيفٌ من المشيئة الكلية إلى الاختيار الجزئي الموهوب لهم قديمًا. والدين بهذا الوجه من حيث أداؤه المعبِّر عن الألوهية وتفسيرُه المعبر عن العبودية، يختلف اختلافًا بيّنًا عن التنظيمات المتشكلة في صورة أديان؛ فأولا وقبل كل شيء، المخاطَبون في هذا الدين هم أصحاب العقول والإرادةِ، الذين يسْعَوْن إلى تطبيق هذا النظام الذي وضعه الله تعالى، ويَجِدُّون في تمثله. وبهذا الاعتبار يمكن تفسير الدين من وجهة أخرى بأنه: لطفٌ وتوجهٌ خاص إلى جاهزيةٍ خاصة. فإن عديم العقل والإرادة، ليس مكلفًا بالدين، وليس محلا للتوجيه إلى الخير.

نعم، إن العقل والإرادة هما الشرط الأول للدين وأهم أركان "التدين" الذي معناه أن يكون الإسلام حياةً للحياة. ويعني هذا، أن من لا عقل ولا إرادة له، ليس محلاً للتكليف بمسؤولية الدين التي تتطلب قابلية التمييز بين الخير والشر. فهو في حِلٍّ من الدين الذي هو مجموعة القوانين الإلهية، التي تَشترط العقلَ والاختيارَ أولاً، ومن التدين الذي هو مِن خَلقِ الله تعالى وكسبِ البشر.

وإن هذا الدين -باعتباره وضعًا وتكليفًا من العليم بخلقه- يرشد ويقود إلى الخير أبدًا، ويُجيش القلوب بوعدِ حُسن العاقبة، ويدعو إلى التحوط والحذر بوعيدِ سوء العاقبة. وأوامره ووصاياه في هذا الصدد، باقية وثابتة

لا تَخلَق جدَّتها. فإن هذه الأوامر والوصايا، ذات أداء أزلي وهندام أبدي... تَخْلَق الأنظمةُ كلها وتَبلَى، وتبقى هي جديدةً وندية ومغبوطة، إلا في عينِ مَن مَنعتْه الأحكامُ المسبقة من النظر السليم. فما من وسيلة أو طريق للخير والسعادة من نتاج عقل البشر، إلا ويُحكم عليها بالزوال أو القِدم.. ويَعرض عليها التبدل من مجتمع إلى آخر، وتترهل وتخرق بمرور الزمان، وتستهلك وتتهرأ بالغلط والتصحيح المستمرَّيْن... فهي لا تتعدى أن تكون "نُظَيْماتٍ" تُمَنِّي بخيرات نسبية وإضافية في مستوى معين، بل تبدو وكأنها تُمَنّي بالخيرات بالنظر إلى ظاهر أمرها، لكنها لم تحقِّق قط ما تصبو إليه البشرية في الماضي، ولن تحقق أمانيها البتة في المستقبل.

أما الدين الحق، فقد جاء برسالات البُشرَى التي تستجيب لكل مطالب الإنسان المخلوق للأبدية، والمرشحِ لها، والمتقلبِ دائمًا في آمال السعادة الأبدية. وإذ جاء بها لم يكلِّف الإنسانَ بتكليفٍ يخالف ماهيته وذاته، ولم يُهمِلْ رغبةً مِن رغباته ولا مطلبًا من مطالبه؛ فالعقول السليمة والأفكار المستقيمة تُقِرُّ أنْ لا إغفال ولا إحجام في هذا الدين عن رغبات الإنسان ومطالبه وأمانيه، ولا تَناقُض في أوامره التكوينية أو في تفسيرها. وفوق ذلك كله؛ إنه منظومة ممتازة، مفصلة حسب ماهية الإنسان وقابلياته وآماله وميوله، يَعِده ويرجيه بالسعادة الأخروية ورضى الحق تعالى وإمكان رؤية الله سبحانه.

وما دام امرؤ يعيش حياته وفاقًا لدين الإسلام، فإنه يستفيد من النعم المشروعة كافة في هذه الدنيا، وكذا يقضي عمره في نشوة السير في الدروب الموفية إلى الجنة بملاحظة الاطمئنان إلى حظوته بمزيد من ألطاف الحق تعالى حينما يحين الأوان، مع نوال الثواب وحسن الجزاء

في الأخرى بقدر يتعدى الخيال والتصور. هذا، وإذا وسعه أن يعيش حياته بالارتباط الدائم مع رضا الحق تعالى -وهو الأساس في التدين- فلعلنا لا نكون مبالِغين إذا قلنا إنه يباري الملائكة. وبالمقابل، يقف المتنكر للدين الحق، والمنقادُ "لعقل المَعاش"، والمنتسبُ إلى تنظيمات مختلفة متشكلة في صورة أديان، والمُناصرُ للنُّظُم البشرية أو الدنيوية (اللادينية)... عاجز عن تبيان ما يُطَمْئِن الإنسانَ أو يُقنعه بشأن حاضره وقابله، وسوف يعجز لا محالة! لأن هذا الدين هو نظام الله في الأرض. والله هو الخالق، والخالق هو الأعلم بكل شيء. ولا جرم أن كل فكر ومنهج ونظام بشريٍّ لِما أنه نتاج الإدراك المنحصر، من الممكن أن يعتلّ في أغلب الأحوال بعلات الأغراض والمنافع الشخصية أو العائلية أو القومية. ولذلك هي مُنْبَتَّةٌ لا تُوصِل إلى الخير المطلق، ولا يُرتجى منها السعادةُ الأبدية. فالمنظومات والنُّظُم المختلفة المحصورُ أفقُها بالأغراض الشخصية والنعراتِ العرقية والمصالح الطبقية والفئوية، مهما بدت متكاملة، فلن تستجيب لرغبات الإنسان ومتطلباته غير المحصورة. فإن من طبيعة هذه الأمور أن يكون أصحابها ذوي ذهنٍ كدر، وعقلٍ مشوش، ومنطقٍ أعمى، وشعورٍ قصير النظر، ووجدانٍ وبصيرةٍ ملبدةِ الأفق بالدخان والقتام... فهم لا يستطيعون أن يبصروا ما ينبغي أن يُرى، وإن يبصروا يبصروا شتاتًا وشيئًا معوجًّا، فتخرج تفسيراتهم مثقلة بالأغلاط وكليمة بالأخطاء.

الدين الحق نظام فريد لا يُضِل، ووضْعٌ إلهيٌّ فسيح ورحيب يفتح آفاقًا دنيوية وأخروية جديدة. فهذا النظام اللاهوتي "دينٌ" باعتبار أبعاده الاعتقادية، و"شريعةٌ" من وجهته العملية، و"ملّة" بوظائفه الاجتماعية... وهذه المعاني هي المقصودة متى ما نقول: "الملة الإسلامية". الواقع أن أسلوب إجراء

الحركات والفعاليات كلها يتوافق مع جوهر الإيمان، وكيفما كانت الصورة التي عليها الإيمان. والهيئة الاجتماعية تأخذ شكلها حسب تلك التصرفات والسلوكيات والفعاليات. ولذلك يجب على المؤمن الذي آمن إيمانًا سديدًا، وجعلَ هذا الإيمانَ بالعمل الصالح عمقًا من أعماق طبيعته وجِبِلّته، أن يكون عاشقًا للحقيقة، ومنحازًا إلى الحق، وعادلا، ومستقيمًا، وأمينًا، ومثالًا للخلق الحسن، وسالكًا سبيل العلم والمعرفة، ومشدودًا شدًا مُحْكمًا إلى الجاذبية القدسية للدين، ومنشغلا بدافع الارتقاء إلى موقع العنصر الفعال في الموازنات الدولية... فتجده متحفزًا في هذه الأحوال، بل لابد أن يكون كذلك، وأن لا يتأخر طرفة عين حتى يحقق ما يريد.

إن المؤمن الذي كَمُل إيمانه وارتقى إيمانه إلى مرتبة الإذعان، وأعمالُه كلها موزونة بموازين الحق، وقلبُه موصول في كل وقت بربه، وتصرفاتُه كلها منطبعة بتلك الصلة الربانية... هذا المؤمن لن يستوقفه هذا وذاك، ولن يدور البتة في فَلَك الآخرين مهما كانوا؛ يقوم ويقعد حاملاً شعور الانتماء إلى أمة شريفة ممسكة بالمركز (أمة الوسط)، ومتميزًا بخصاله في كل حركة من حركاته. إنه يحس بتوقير غائر حيال كل إنسان وكل شيء مخلوق، لأجل الخالق، ويتوقى من الدنايا التي لا تأتلف مع نعمة "الإنسانية"، ويَبرز بين الناس بفائقيةِ دينه وإيمانه وفكره وسلوكياته، وإذ يتصرف كذلك، لا يعتريه قط استعلاءٌ أو كبر، ولا يفكر في إكراهِ غيره على قبول فهمه وفلسفته في الحياة. فهو يتقبل الآخر "كَمَا هُو" بملاحظةِ أن النظام الذي آمن به يَقطع سبيل الإكراه في الدين؛ فيعيش بمحبةِ مسلكه ومشربه بدلاً عن إجبار الآخرين على معتقداته، ويُشهر أفكاره ومعتقداته ويمثلها تمثيلاً سليمًا، ويعتني عناية شديدة بأن يكون أنموذجًا يغبطه

الناس، وإذ يقوم بذلك، لا يستجدي إعجابًا ومديحًا من أحد قطّ، بل يَحتسب كلَّ عمل من ضرورات السبيل لكسب رضى الحق تعالى؛ فلا يفكر إلا في مرضاة الحق تعالى في كل قول وعمل وسلوك، ويعرف أن المباهاة والبهارج جراثيمُ تَقتل القلب، ويتمسك بالحق تعالى بإخلاص كامل، ثم يمضي في مسيرته.

فالأصل أن الإسلام جاء لإنقاذ البشر من الإكراه، وتحفيزِهم لاختيارٍ جديدٍ بإرادتهم الحرة مخاطِبًا عقولهم ومنطقهم، وليس لدفع أتباعه إلى الضغط على هذا وذاك للقبول بنظام معتقداتهم أو إكراههم عليه. ففي الأيام التي طُبِّق الدين بلا نقص ولا فتور، فإن جاذبيته المعنوية لم تَدَعْ حاجةً إلى ألاعيبِ المنطق الملتوية، أو القوة الطائشة، أو القهر الصريح أو الخفي، أو الجبر والإكراه؛ فلقد نطقت الحالُ وأبانت، ووضَّح اللسانُ المبهماتِ، فإذا خلا الميدانُ للقول، خوطب الوجدان، وبَشَّر البيانُ وأنذر، متحليًا بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يُضغَط على أحد لا قولا ولا فعلا ناهيك عن الإكراه والجبر، بل كان الإكراه والجبر ممتنعًا، لأن الإسلام لا يَقبل إيمان المكرَه والمقهور، ولأن الأعمال القائمة على الجبر والقوة القاهرة تُناقِض جوهره وروحه. بل لا يَحتسِبُ الدينُ الحقُّ من العبادات عملا ليس في أصله الإخلاص أو رضى الله تعالى. فلا يَرى في إيمان المكره والمقهور إيماناً، بل نفاقاً، ولا الأعمالَ أعمالاً، بل رياءً بشُعبها كافة. لذلك، لا يجيز الإسلامُ الإكراهَ في الدين، ويمنعه بنص القرآن: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)، فيقطع دابرَ القهر لأنه يَعتبر الرياء عينَ النفاق، ويَعتبر النفاقَ كفراً مستوراً. والحال أن الإسلام جاء ليقتلع جذور الكفر، ويمحوَ الشرك من الشعور والفكر، ويُغلقَ أبواب الرياء والسمعة.

لكنَّ مَنْعَ هذا الإكراهِ والجبر، لا ينفي الإجبار الداخلي للوجدان، أو التأثُّرَ والميل الشبيه بالقهر، المتولدَ في القلب المؤهلِ لمعرفة فضل التوقير وحق الاحترام حيال التعبير عن الحق قولاً وفعلاً. فمن الطبيعي أن يخاطَب وجدانُ البشر جميعًا بالأسلوب القرآني في كل فرصة متاحة، وأن تُحَفّزَ الفطراتُ السليمة، وأن تُخلَّصَ البشريةُ من الشرك وشوائبه بتوجيه القلوبِ الممهدةِ والمستعدة، إلى الله تعالى، ويُهَيَّجَ الإيمان ونورُ الإسلام وشعورُ الإخلاص والإحسانِ في القلوب، بتبليغ الناس جميعًا أنَّ أصفى الهداية وأخلصَها ممثلةٌ في سيدنا محمد ﷺ، وأن حقيقة الإنسان والأشياء والكائنات قد نودي بها في القرآن، وأن الحُكم والحكمة في قبضة الله تعالى. فَبذلك يُبعث في القلوب نورُ الإيمان والإسلامِ وشعورُ الإحسان والإخلاص، ويُنادَى الجميعُ إلى التوحيد الحقيقي. وهذا من الضرورات اللازمة لإيماننا بالإسلام واستجابتنا لدعوة سيدنا ﷺ.

إن نبينا خاتمُ الأنبياء، ورسالته التي قَدمها للإنسانية أكملُ الرسالات وأتمها، وأهدى الوسائل إلى الله وأضمنها وأوثقُها؛ ولم ترشِد إلا إلى الصواب والهدى. فمتى ما وَجد هذا الدينُ من يمثّله صدقًا صار ظلاً للحق، يلجأ إليه الناس من كل فئة سراعًا ليتفيأوا في ظله، وأَبطَل سحرَ الأنظمة الشيطانية كلها، ولم يَترك أتباعَه من غير نور حتى في أحلك الأحوال. فإن كان لا يستطيع في الوقت الحاضر أن يعبر عن نفسه تعبيرًا كاملاً، فذلك بعداوة خصومه الألدّاء المستمرة بلا توانٍ منذ عصور، وحقدِهم وبغضهم وتشويههم لصورته ومحاربتهم له من جهة، ولجهل منتسبيه وخذلانهم وغفلتهم من جهة أخرى. ولكن دوام هذا الحال محال؛ فحينما يحين الوقت، فسيَجد الفرصةَ لكي يعبّر عن نفسه كرّة أخرى في مناحي الحياة

كافة، ويتكلم بصوته الخاص، ويشعشع في العيون بألوانه ورقوشه الذاتية، ويحسِّس بكنهه في كل مكان بتناغمه وانسجامه السماوي، وذلك بفحوى "الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه" (رواه البيهقي)، وبفضل أوليائه الذين يتولونه بخالص قلوبهم، ويربطون مصيرهم به، فيَجعلون غايةَ خَلْقِهم السيرَ في خطه.

نعم، حينما تنتبه هذه "الأمة" إلى أنها الأمة المصطفاة من الله، وأنه هو اختار لهم اسم "المسلمين" بمنطوقِ ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾(الحج:٧٨) فستقول: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(الحج:٧٨)، وتتوجه إلى ربها الكريم، وتستسلم لحكمته، وستسمو في النهاية -لا محالة- إلى حال التعبير عن ذاتها بالصورة التي يريدها الحق تعالى.

والصحيح أن إحراز هذا الموقع من الأمور التي يمكن أن تتحقق فعلاً في كل وقت. فإن الإسلام هو الدين الخاتم الكامل الذي اختاره الله تعالى ليشرِّف به الإنسانيةَ. وهو بختمه وبكماله، تفصيلٌ وبسطٌ وأداء للأديان السماوية كلها حسب متطلبات الزمان الأخير. لكن هذا النظام الكامل محروم الآن من تمثيل في مستوى تمثيل الشهود الأوائل، ومبتلىً بسوء الحظِ في أيدي نفرٍ عديمي الوفاء، فهو لذلك محكوم عليه اليوم بالانحباس في الضيق وهو رحيب، وبالمنع من الكلام بلهجته الخاصة. وهذا يعني -في الوقت نفسه- تضييقاً وحظراً على الأديان السماوية كافة... إذ من البديهي أن الإسلام جاء مصدقاً للأنبياء جميعاً، ولرسالاتهم كلها مراعيا ما بلغه إدراك البشر وفهمُه... فصار بمثابةِ نداءٍ جامعٍ لأصواتهم وأنفاسهم أجمعين. وإن انقطاع صوت هذا النداء السماوي، وفي عصرٍ جمحت وطغت فيه الأفكارُ والمعتقداتُ الماديةُ والطبيعية، هو انهزام وخسران

للأديان الأخرى أيضاً تجاه هذه التيارات العفريتية المتمردة، بل يعني انقراضَها تماماً. فالإسلام ذودٌ عن الدين الحق وصون له. وكذلك هو -باعتبار أن دعوة الأنبياء جميعاً واحدة- بمثابة نقطةِ استنادٍ للنُّظُم السماوية الأخرى ونقطةِ استمدادٍ لها وشاهدٍ يشهد لها. فإحياء الإسلام مجدداً يُعَدّ إحياءً لها أيضاً في معنى من المعاني، بإصلاح الجوانب اللازم إصلاحُها، وتجديدِ وإعمارِ ما ينبغي إعادة تعميره ولو جزئياً، وفتحِ آفاق جديدة أمام أَتْباعها بالضوابط ذات الدور التأسيسي فيها. وإني أظن ذلك كله ممكنا، وأحسب أن وحدة المصدر مُعِين وسند متين في هذا الأمر.

إن الأديان كلها ركزت على أصول وأسس معينة واحدة، وأكدت على حقائقَ بعينها. ومن حيث الضوابط الأصلية -وبالتناسب مع أحوال الزمان وحاجاته- كلُّ نبي بعثه الله تعالى، قام بدور الامتداد لمن سبقه والمكمّل والمتمم له، وصَدَّق رسالةَ السابق أو السابقين، وكمَّلها حسب الأحوال والشرائط، وفصَّل للأمور التي تتطلب التفصيل، وجدد المسائل المحتاجة إلى تجديد، وفي الأحوال كلها أكد على الأمور الأصيلة بعينها؛ فالتوحيد والنبوة والبعث والنشور والعبادة هي المسائل المقدَّمة العزيزة لدى نبي... فهي الزبدة في دعوة الأنبياء والمرسلين أجمعين، مع التنوع في الأسلوب والتعبير والبيان والأداء. أما الفروق في الديانات أو الإجمال والتفصيل، والإطلاق والتقييد، والوضوح والخفاء وأمثالها في المسائل المختلفة، فتتعلق بأفق إدراك البشرية وتَحَضُّرِها وتطورها. فقد شرَّع الحق تعالى لكل أمة أوامرَ وقوانين خاصة تتعلق بالفروع حسب مبلغ علم تلك الأمة وإحاطتها، ونوعِ معضلاتها وحاجاتها، ووضَّح -مجدَّدًا- الأسسَ التكوينية والضوابط التشريعية حسب إدراك المخاطَبين، وبَيَّن تَنَزُّلاته

الكلامية بتنوعاتها المتعددة ببعدِ تجلٍّ مختلف في كل مرحلة. فتوالى التنوع والتجديد في أمورٍ مثلِ تفصيل المجمل وإطلاق المقيد وتعميم الخاص وتوضيح المبهم، مع أن محور المضمون والمنطوق واحد وثابت؛ فكم من المسائل هي كافية للمبتدئ والبدوي، تستدعي تفصيلا أكثر للمنتهي والحضري.

فهنا نشهد تبدلاً دائمًا في المسائل التبعية الثانوية في رسالات الأنبياء والرسل ابتداءً من أولهم إلى خاتمهم، بالصورة المبينة آنفًا، لكن هذا التبدل لم يمس أبدًا روحَ الرسالة الأصل، ولم يغادر حدود التفرعات. أما التفرق والاختلاف والصراع والحروب الناشئة منهما بين أتباع الأديان السماوية، فليس مردها إلى الدين والتدين، بل إلى تفسيرات خاطئة كان يسوقها المبتدئون من أتباع الأديان الذين لم يحافظوا على أصل الرسالة الإلهية وتربوا على الانجراف وراء المصالح والحقد والبغض والانحراف والأهواء والنزوات... ولا زالت القضية كذلك. فمن أجل ألا تقع أنواع التنازع والتفرق كما وقع أمس، ولكي نلم الشعث إن كان قد وقع اليوم، يجب القبول بالإيمان وبالإسلام وفاقًا للأصول والأسس التي وضعها الله تعالى، وجعْلُها جزءًا لا يتجزأ من طبعنا وجِبلّتنا. ولكن الحاجة ماسة إلى "العمل الصالح" لكي يثمر هذا الإيمانُ ويبدي قوتَه... بعبارة أخرى: حتى يسبغ الحياةَ على الوجدان؛ فبقدر إسناد الإيمان بالعمل الصالح وإمداد المؤمن بالعبادة، يقترب إلى الله تعالى، ويظل محافظا على هذا القرب واكتسابِ رضاه. وإلاَّ، فالإيمان الذي لم يُمَدَّ بالعبادة ولم يُسنَد بها، لن يبدي قوته تمامًا، وكذلك المؤمن الذي ليس له عبودية لن يستطيع الثبات منتصبًّا على ساقيه أمدًا طويلا. ولذلك ما برح القرآن

الكريم يُتبِع الإيمان بالعمل الصالح ويُذكِّرُ بظاهر "العمل بالأركان" مع باطن "التصديق بالقلب" الذي هو الركن الأساس، ولا يفتأ ينبه إلى الحزم في مناسباتنا الداخلية والخارجية، الباطنة والظاهرة... إذ الإيمان أساس وحيد للعمل، والعملُ سُور للإيمان وصونٌ وشاهد وضمان له.

إن التصرفات الحسنة غير المستمدة من الإيمان هي أعمال توافقت مع الصواب لا يُحتَمَل دوامها وتماديها بتاتًا، ولا تُمنِّي بمستقبل واعدٍ البتة. والإيمانُ من غير عمل إيمانٌ غير مسنود قد يَعرِض عليه التصدعُ والانهيار، ولا يُحتَمَل انفساحُه وتوسعُه، وتقليدٌ بارد عبارة عن مقبولات نظرية. أما الإسلام الذي نسميه "الدين الحق"، فهو العنوان المبجَّل للعمل بكل المسؤوليات والتكاليف التي جاء بها القرآن، إلى جانب الإيمان القلبي الصادق بمجموع الأصول والفروع لهاتين الحقيقتين.

فالإسلام بهذا الفهم هو المصدر الفريد الوحيد لسعادة الإنسان القلبيةِ والروحية، والمادية والمعنوية، والدنيوية والأخروية. غير أن الاستفادة من مصدرٍ كهذا على الوجه الأتم قد نيطت بالاستخدام الأمثل للأجهزة الظاهرية والباطنية الموهوبة للإنسان بالفطرة. فالذين يستخدمون مواهبهم الأولية كأجهزةِ استقبالٍ للواردات الثانية، يبدأون أعمالهم بالمحاسن والألطاف، ويقضونها بالمحاسن والألطاف في الأجواء الزرقاء لـ"الدوائر الصالحة"،[1] ويُفلحون بإنجازِ أعمالٍ تُنبئ عن مدارجِ الأبدية في كل آن ولمحةِ بصرٍ من حياتهم.

وما برح الإسلام مصدرَ عزٍ وقوة لأتْباعِه الذين يؤمنون به ويَحيَونه بصدق، وقد أسعدهم بقدرِ صدقِ انتسابهم، ولم يُوقِعْهم قط في خذلانٍ

[1] "الدوائر الصالحة" اشتقاق على الضد من "الدوائر الفاسدة" كما مر في هامش سابق. (المترجم).

دائم أو متمادٍ. فمنذ عهد الصحابة وحتى اليوم كَمْ عشنا بفضله في فترات مختلفة عصورًا ذهبية وأقمنا حضارات زاهية؛ وبالمقابل في مراحل الشؤم التي وَلَّينا فيها ظهورَنا الدينَ وقطعنا علاقته عن الحياة، توالت علينا النكبات وضجت الجموع عويلاً في الانكسارات، وانقصم ظهر المجتمع حتى عجز عن القيام. ولكنْ -حتى في تلك المراحل- هناك الكثير ممن ظَلَّ مؤمنًا بالدين وقوته، غير أنهم حدَّقوا بأبصارهم في أفق الجدود والحظوات الخارقة، وقاموا وقعدوا حالمين بعنايةِ الكرامات الخارقة، وغضوا البصر عن العادات والسنن الإلهية. ومعلوم أن على المؤمنين أن يؤمنوا بإمكان وقوع ألطاف الحقِ تعالى منةً منه وفضلاً.. لكن علهيم أيضًا أن لا ينسوا البتة أنّ الوسيلة إلى استمداد هذه العناية هي الهمةُ والمجاهدة. وقد تفضَّل الله تعالى بتذكيرنا في الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(العنكبوت:٦٩)، بأن الألطاف التي يخلقها ويُظهرها تقترن بعزم الإنسان وإرادته، فنبَّهَنا إلى أهمية الجهد والمثابرة في نفس الوقت الذي قطع فيه السبيلَ أمام الشرك، فكأن السعي والجهد من أمارات توفيقه وتوجهه الخاص.

ولابد أن أنبّه ههنا إلى أنه ينبغي أن لا يحمل محاولتنا لتفسيرِ وشرحِ النظام الإلهي الجاري في الوجود والحوادث، وفاعليةِ هذا النظام باطراد وانسجام، وكأنه تابع للأسباب... ينبغي أن لا يحمل ذلك على أننا نقوِّم الأحداث من منظورِ فكرة "التعين السابق" (Determination)[1]؛ فغاية ما

[1] المقصود أن لا يُفهم أن الأستاذ المؤلف يلتفت إلى الأسباب بملاحظة تعيين الأسباب للنتائج. ويُراجع ما هو مشروح في فصل المعينية (Determination) في كتاب "ونحن نقيم صرح الروح"، ١١٧، للمؤلف، دار النيل، ط:٣، ٢٠٠٩)، (المترجم).والتعيين: في الفرنسية (Détermination) وفي الإنكليزية (Determination). وإذا كان بين الشيئين علاقة توجب أن يكون الثاني لازماً عن الأول كانت هذه العلاقة تعيناً. وإذا كانت لا توجب ذلك دلت على عدم التعين. ويطلق اصطلاح التعين

نريده هي التذكير بأن الإرادة الكلية والجزئية في تصرفات الإنسان تَوَجُّهٌ ذو لون من المشيئة الإلهية، وكذلك التذكير بأهميتها في مستوى الشرط العادي. وأذكِّر من فوري هنا بأمرٍ آخر هو: أنه -سواء اعتبرنا "الإرادة" مَيلا أو تصرفًا جزئيًّا في ضمن ذلك الميل- لابد أن يَستعمل المؤمن قابليةَ الترجيح هذه، والتي يحسها في وجدانه، باتجاهِ تحقيق ما يريده الحق تعالى ويشاؤه، وأن يحفظ عزمه وثباته على هذه الحال. فاللازم أن يتجنب المؤمن ما يقبِّحه الشرع، وأن يسعى إلى المعروف، ويَثْبُتَ بأطواره ومواقفه في موضعِ تمثيل الإسلام ثباتًا دائمًا، حتى تكون كل لقطة من حياته أنموذجًا لوجه من أوجه الإسلام، وحتى يُصوِّر الإسلامَ في ذاته ويشدو به في صوته ويجسِّده في شكله باعتباره الممثلَ الصدوق لهذا الدين، وحتى يستخدمَ كل قدراته التي وهبها الله له في جعل الإسلام إحياءً للحياة... فيتحرى في كل صغيرة وكبيرة من أعماله كلها -مهما كانت- رضا الرب تعالى، وحسب تعبير بديع الزمان: أن يكون العمل لله، والابتداء لله، واللقاء لله، والتكلم لله... والتحرك أبدًا في دائرةِ "لله، ولوجه الله، ولأجل الله"، وتكونَ الثواني والدقائق والساعات والأيام في هذا العمر الفاني أجزاءً من زمانِ طريق البقاء، وتغدوَ وسائلَ لسعادته الأبدية.[1]

وعلى المؤمن أن يغذي إيمانَه بَنِيَّاته وتصوراته وإرادته وبرامجه، ويؤديَ حق إسلامه، وألا يرسل نفسه إلى الغفلة دقيقة واحدة أو ثانية واحدة، حتى لا يقع في التفسخ. وعليه أن يحرك مكوك الشعور والحس

السابق (Prédetermination) على تحديد واقعة أو فعل بعلل وأسباب متقدمة على اللحظة التي تسبق مباشرة حدوث تلك الواقعة أو ذلك الفعل. والتعيين السابق عند (بوسويه) مرادف للتحريك السابق (Prémotion). (المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، ١٩٨٢)

[1] من اللمعات لبديع الزمان سعيد النورسي، اللمعة الثالثة ص ٢٥، دار النيل، القاهرة، ٢٠٠٧.

والإرادة دائمًا من الإيمان إلى "الحركية"، ومن "الحركية" إلى الإيمان، وينسجَ نقوش قماشِ حياته ورقوشَه وكأنه يعرضُها لمشاهدة أنظار الله تعالى بكامل انشراحِ الصدر.

إن الكفر والإلحاد جهنم في القلب، وتَرْك العمل الصالح غربةٌ ومخمصة ووحشة. ولا مفر من ظهور اختلال الشخصية في أمثال هؤلاء بين حين وآخر. إن عزائم هؤلاء خائرة وأفكارهم سائبة وإراداتهم مشلولة. وإن الذي يقوي الإرادة إنما هو الدعاء والعبادة، والذي يقتلع جذور الأحاسيس والانقيادات الفاسدة إنما هو التَوَجُّه إلى الحق تعالى والإنابة إليه.. ولم يحدُث أن انقطع في الطريق من تَوَجَّهَ بوجهه إلى الله بالمعايير الإسلامية... ولئن تَعرَّض نفر منهم إلى اهتزازٍ بسبب ضعف منهم، فلم يُصرَع أحد منهم على ظهره تمامًا، فكيف بمن شد وثاق حياته بوشيجة الإحياء؟!

ولن يستطيع المؤمن أن يصمد واقفًا على ساقيه ولا ينكبَّ على الأرض إلا إذا عاش حياةً ذاتية وبعزم الإحياء. هذا ما شهدناه أبدًا. فهو عادة سبحانية لمشيئة الله الكلية، وتبديلُها وتغييرها محال على كل أحد. ولا جرم أن هناك أعداءً ألِدّاءَ يَبرزون دومًا ضد الذين يعيشون الحياة في هذه الاستقامة، تطفح صدورُهم غيظًا وحقدًا على هؤلاء المؤمنين ويقعدون لهم كل مقعد ليسحقوهم، ويتربصون بهم الدوائر، ويتصدون لهم كل يوم بخطر جديد. ولكن المؤمنين حق الإيمان، يَخرجون دائمًا من هذه المحن أشد شحذًا من قبل، بل يتبدلون إلى أخرويين ورِبيين وربانيين... وبمشاعر الرضا، يغيّرون المصائب إلى رحمات، ويحوِّلون زخاتِ البلايا إلى مرشِّحات للتطهير والتصفية، فلا ينخلعون عن فكرهم وسلوكهم الذاتيَين.

فالواجب علينا -نحن المسلمين- أن نَعود إلى أنفسنا وقيمنا، ونعزم على البقاء بذاتنا، ونتغذى من مصادرنا بأقصى قدراتنا. وإن مصدر الدين الإسلامي ومنبعه هو القرآن والسنة. فهو فائض من صدرهما. وقد أحرزت الأمة الإسلامية موقعًا تُغبط عليه، وصارت قدوة للأمم ما دامت متمسكة بهذا النظام الإلهي؛ وبالمقابل كلما ابتعدت عن قيمها الذاتية، وقَلدت الأجانب، وسقطت أسيرةَ أهوائِها ونزواتها، انكبت على وجهها من بؤس إلى بؤس، ومن عارٍ إلى عار.

فيلزمُ المسلمَ ألا يهمل قيمه الذاتية البتة، وأن يحاول الاستفادة من المصادر الأجنبية بشرط استئذان النُّظُم والقواعد الأساسية الذاتية، وتنقيتها بالترشيح في تلك المصافي. ولكي لا يُساء فهمُ المقصود، نقول: إن الإسلام لا يمنع المسلمين من تعلم علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفضاء والطب والهندسة والإدارة العامة وإدارة الأعمال والزراعة وأمثالها، بل يحثهم على التخصص فيها وأخْذِها والاستفادة منها من أي مصدر كان، لكنه لا يريد أن يبقى المسلمون تبعًا لغيرهم على الدوام، بل يحبذُ لهم الاستفادةَ مما عند الأجانب من هذه الأمور، ثم التخلصَ السريع من استجدائها، وإقامةَ عالمهم الذاتي في الأوامر الإلهية التكوينية كما في الأوامر التشريعية.

وكان أجدادنا في عصورنا الذهبية، يتذكرون مرارًا وكلَّ يوم أنهم "خلفاء الله في الأرض"، ويتحرون مراد الله ورضاه في كل حركة من حركاتهم الدنيوية والأخروية، ويمحصون أحوالهم بميزان الأوامر التشريعية، ويقيسون مدى صلتهم بربهم، ويَجِدُّون في التعرف على الأسس التكوينية بعشق جادٍ للحقيقة والبحث، ويَحُدّون البصر لاستطلاع

الوجود والحوادث، ويحثون السير في السلوك إلى التوفيق بين ما اطلعوا عليه فعلموا وما سمعوه ففهموا، وبين العائلة والمجتمع والوجود كله، فيهرولون من العلم إلى العرفان، ويحلقون من المعرفة إلى المحبة، فيرون في كل شيء وحادثةٍ وتبليغٍ من الحق تعالى وسيلةً للسمو نحوه، ويضعونها في مقدمة أعمالهم الدنيوية وملاحظاتهم الأخروية.

ولقد بلغوا أفقًا كهذا الأفق لأنهم عاشوا الإسلام وأحيوه باعتباره كلاًّ لا يتجزأ، وبحبهم إياه من صميم قلوبهم وتحبيبهم له، وبجعلِ الحياة الإسلامية غايةَ حياتهم. فلما توطد في قلوبهم روحُ حركةٍ كهذه توطُّدًا مكينًا، تأسَّس توازُن الدنيا والعقبى تلقائيًّا وجَعَلَهُم مجتمعًا متوازنًا، فصاروا مقتدرين على التعبير عن ذواتهم في كل مكان وفي كل مجال للحياة. فما برحوا -بفضل ذلك- يتجددون ويتغيّرون في دائرة "مقوماتهم الذاتية"، ويهرعون إلى التغيير، ويتعمقون على الدوام، ويصبحون بإيمانهم وحركيتهم أساتذةً يُعلمون الإنسانية دروسًا في الحضارة في رقعةٍ جغرافيةٍ واسعة. فكانوا مرايا للحق تعالى في حركاتهم وسكناتهم، وكلامهم وصمتهم... وكانوا في كل تصرفاتهم وسلوكياتهم المتناغمة المؤتلفة كأن كل واحد منهم آلة موسيقية تُشْجي بأناشيده تعالى... ويَدْعون إليه بنداءاتهم الحرَّى كنداء الدلَّال. فكأنهم -بتعمقهم وعرفانهم هذا- مجتمعُ صحابة، وكأنهم ممثلون لخصال كثيرة تَرجع إلى رؤية النبي ﷺ.

فإذا ما دخل هؤلاء المنورون إلى العلاقات مع الله تعالى أو تفكروا في عقباهم، فإنهم -بين فينة وفينة- يرسلون أنفسهم في رحاب المعرفة، ويرتعشون بالخشية من أعماقهم، وتوجف قلوبهم، ويستغرقون في المحاسبة، ويجددون مراجعة كل شيء فيهم، ويَزِنون معايير القلب كل

مرة، ويحسون دائمًا بوطأة المسؤوليات والتكاليف على أكتافهم كالجبال، وتذوب النفس والجسمانية فيهم ذوبانًا يبدلهم إلى موجودات روحانية، وبالأخص إذا ما فاض القرآنُ والحقائقُ التي يستهدف القرآنُ شرحَها وانصبت في قلوبهم، فإن هذه القلوب التي غدت وكأن كل واحد منها بيت من بيوت الله ستتطهر من كل خاطر أجنبي، فلا تفكر إلا به تعالى ولا تشعر إلا به وتشرق شمس النهار به وتغيب به.

والأصل أن القلب المؤمن لا يَسَعُ الإسلامَ إلى جانبِ معتقدٍ غيره أو تصورات أخرى. فما إن يدخل الإيمان والإسلام القلبَ، حتى يكنسَ المتقبَّلاتِ الخاطئة ويمسحها ويلفظها، وتصبغ العبادةُ كلَّ جهاته بلونه، ويصونه شعورُ الإحسان تحت دفيئةِ أن يرى الحق أو يراه الحق، فلا يَبقى فيه إلا الأنسام التي تهبُّ منه تعالى.

فبفضل هذه العلاقة مع الله تعالى، والقائمةِ على أساس الإيمان والإسلام، تتجلى في فكر الإنسان وسلوكه استقامةٌ لا تتذبذب، وإخلاصٌ متماد، وشعورٌ مستمر في التعاون، وهمةٌ قلبية للتساند، وأخلاق أخروية. فالإيمان النافذ إلى دواخل الإنسان بهذه الدرجة، يتجلى في أحوال المؤمن كلها، سواء في الوظيفة أو التجارة أو معاملات الأسواق أو سائر الأنشطة الاجتماعية، فيطبع بصماته عليها، ويرسم على روحه صورةَ معناه، وتنقلب الصورة بمرور الزمان إلى قصيدة معنوية تُقرأ على تصرفاته وسلوكياته كلها... فكأن مؤمنا في مثل هذا التماسك هو المعنيُّ بمقولةِ: "إذا رأيته ذكرتَ الله تعالى"[1].

ونعتقد أن الإيمان والإسلام بالمعنى الحقيقي هو هذا، والوضعُ الإلهي الذي نسميه "الدين" هو العنوان الجامع لكل ذلك، و"التدين" اسم

[1] ابن ماحه، الزهد ٤.

لصيرورة هذه الحقيقة الجليلة حياةً أو إحياء للحياة. مبدؤه يستند إلى أجمل الكلام وأحسنه: كلمةِ الشهادة أو كلمة التوحيد.. ومنتهاه يمضي حتى يصل إلى رؤية الحق تعالى. فكل مَن يرَضى به ويعيشه على هذا الحال -والله يتولى السرائر- هو مؤمن ومسلم ومتدين من وجهة الكتاب والسنة... وأي اسم أو عنوان آخر غير ذلك قد يُلصق به يعني تهوينًا من شأنه ووضعًا من قدره.

ويَرِد في المصطلحات الإسلامية بلساننا تعبيراتٌ مثل: "إسلام" و"مسلمان-مسلم" و"دينْدَارْ-ملتزم" عَلَمًا على المسلم. لكن لا يرِد فيها كلمات دسها الأجانب عن قصدٍ إلى لساننا فاستعملها البعض، مثل "إسلامي" (Islamist) و"دينيّ".[1] إننا لم نتعرف على مثل هذه الألفاظ والأوصاف في ديننا من قبل وإلى عصرنا الحاضر. ولا يهمنا أنْ وردت بعينها أو بأشباهها في الأديان الأخرى أو المنظومات المتشكلة في صورة أديان غير ديننا. فبموجب ديننا، المسلمُ الذي يرتكب الذنوب أو يقع في الخطيئة يكون "آثما"، لكنه يبقى "مؤمنًا". والذي يترك العمل بأمور من الأسس الإسلامية، بشرط عدم إنكاره لها، يبقى "مسلما". فعلى هذا الاعتبار، تسميةُ الذي يبتغي أن يعيش الدين كاملاً بـ"الإسلامي" (Islamist) أو "الديني" غيرُ مناسب، كما أن تسمية تارك العمل بقسم من الأوامر الإسلامية أو المتقاعس عنها بـ"الكُفري" أو "الضلالي" أو "الفسقي" تعبير غير لائق. وأرى أن على الجميع أن يصون نزاهة لسانه، وأن يفكر ويتكلم بمستوى يليق بالإنسان، وأن يتعلم كيف يحترم كل أحد.

[1] انظر هامش صفحة ١٧٢ و١٧٣

فهرس